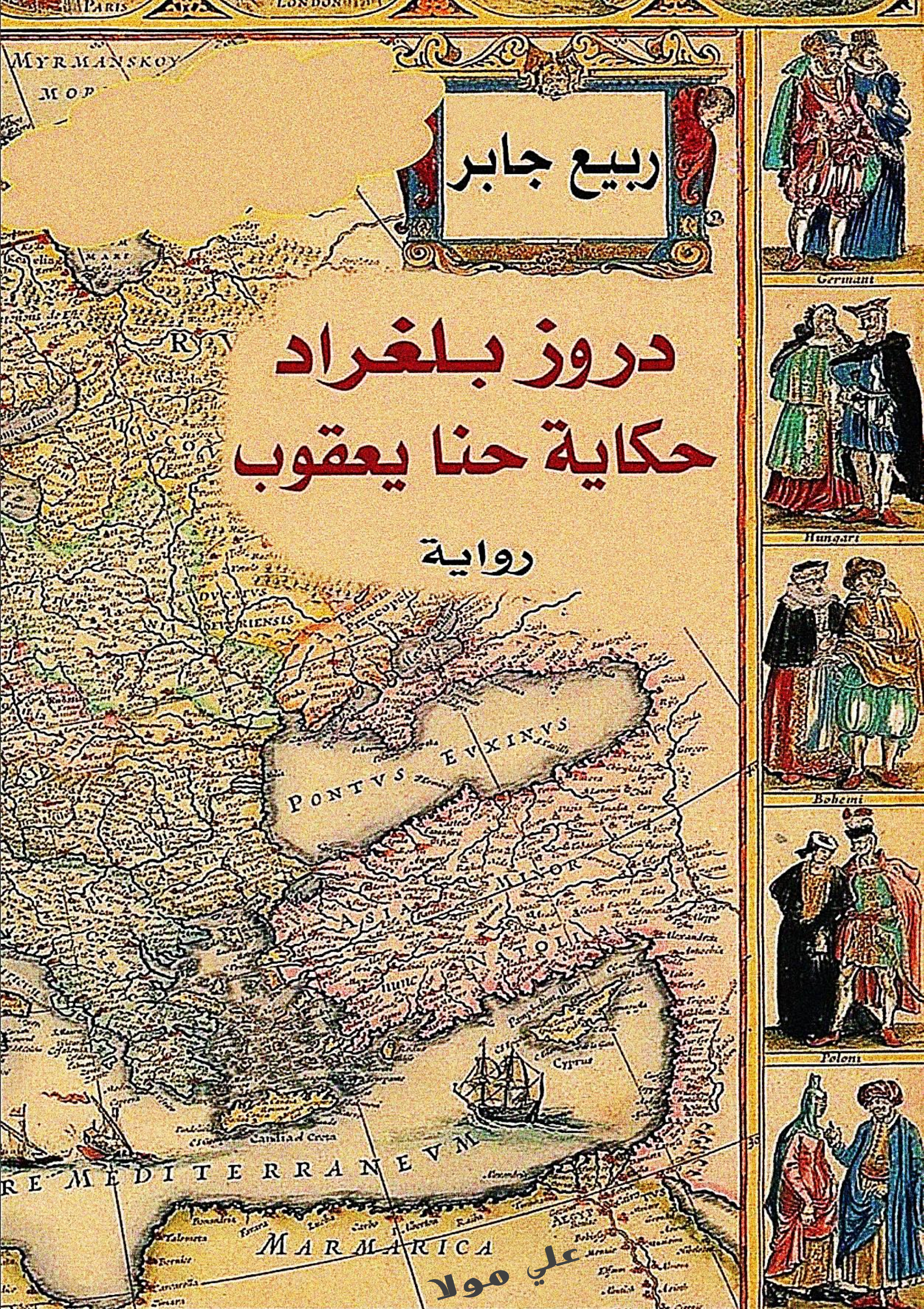
ربيع جابر

دروز بلغراد
حكاية حنا يعقوب

روايـة



ربيع جابر

دروز بلغراد
حكاية حنا يعقوب

رواية

المركز الثقافي العربي
دار الآداب

دروز بلغراد

حكاية حنا يعقوب

(رواية)

تأليف: ربيع جابر

الطبعة الأولى، 2011

ISBN: 978-9953-68-496-0

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 سيدنا

هاتف: 00212 522 303339

e-mail: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت: ص.ب: 5158 ـ 113 الحمرا

هاتف: 01-352826 / 01-343701

e-mail: cca_casa_bey@yahoo.com

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب: 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633(01) ـ 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال. وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومجرد عن أي قصد.

الجبل الأسود (1872)

«أيقظني الهدير وارتجاج الأرض. أين أنا؟ في حبس الهرسك أم في قلعة بلغراد؟ القيود الحديد منعتني من النهوض لكنني أمد رقبتي ومن دون وعي أوشك ان أصيح كما في السنين البعيدة في بلدي البعيد: «بيض بيض، بيض مسلوق». أسمع ركضاً وصراخاً ثم خبطات مرعبة فوقي - على وجه الأرض - كأن حيوانات أسطورية عملاقة تتراكض وتقع وتموت. خوار فظيع يملأ الفضاء وأشم رائحة اللحم الذي يحترق. الرعب يخترق عقلي كحد السيف. عرق بارد كالثلج يبلّ جسمي. أتجمد كما يحدث في الكوابيس - كما في اللحظة التي تسبق فرقعة البواريد وسقوط قاسم مع أخوته على الرمل الرطب - عارفاً أنني قد لا أخرج من هنا. لماذا أموت في هذا المكان من دون أن أرى زوجتي وابنتي وبيتي مرة أخرى؟ خرجت في الصبح أبيع بيضاً والشمس لم تطلع من وراء جبل صنين بعد. قبل عشر سنوات، قبل 11 سنة، قبل 12 سنة. التراب يتساقط على رأسي. مكتوب لي في اللوح المحفوظ أنني أطمر حياً حبيساً بلا جرم في هذه الأرض الغريبة؟

أين العدل؟ كيف يصنع الربّ بي هذا؟ وهيلانة؟ والصغيرة كم

كبرت وأنا لا أراها ولا أسمع صوتها؟ النار والدخان. الضجة وراء الحيطان. الزعيق فوقي وتحتي. لم أكن متأكداً من قبل والآن أعرف: هناك محابيس تحتي أيضاً، طبقة أخرى تحت.

عقلي مقسوم نصفين. نصف مذعور يرى في الظلام الأيدي والأقدام تحاول عبثاً أن تتخلص من القيود، ونصف ساكن لا يهتم ويشرد إلى البعيد: إذا كانت هذه ساعتي الأخيرة فأنا اطلب أن أرى أمامي الوجوه القديمة التي أحبها لا هذه الوجوه. رموني هنا قبل سبعة شهور وطوال هذه الفترة لم أصادق أحداً من المحابيس. قيّدوني إلى وتد يفتته الصدأ في الزاوية الفارغة حيث تنحدر الأرض ويتجمع الماء عند تساقط المطر. «لن تعطش»، قال الحارس الأحمر الشعر وهو يبتسم ويخرج بينما المفاتيح الكثيرة تطقطق على جنبه. «لكنك ستجوع»، قال صوت في الظلام، وامتلأ المكان ضحكاً يشبه الزعيق. سمعت صرير الأسنان وصليل السلاسل وكما يحدث في كل مرة أُنقل فيها فقدت السيطرة على بطني ووسّخت نفسي. رفعت وجهي إلى فوق ولم أهتم بالآخرين لأن الظلمة كاملة. ظننت أنهم يتكلمون لغة الحراس في هذه الأقاليم - لغة تعلمت نتفاً منها في القلعة البيضاء - لكن بينما يوجهون الشتائم صوبي اكتشفت أنهم يأتون من أمكنة مختلفة ويتكلمون أكثر من لغة واحدة. سألوني عن اسمي ومن أين أجيء ولماذا حبسوني. لم أجب لئلا يعرفوا من صوتي المخنوق أنني أبكي. في وقت الأكل انشق الباب ووضعوا أكلاً في القدر جنب الباب. بقيت بلا أكل لأنني مربوط في أبعد زاوية.

عظامي ثقيلة في كيس جلدي وأحاول أن أرفعها. لكنني بلا قوة. أسمع ارتطام الأجسام والسلاسل والرؤوس - بعضهم مقيد

إلى بعض - ثم الصوت الحاد الذي يصرخ وينادي الحراس. الدخان يتسرب إلى هنا. أسعل وكذلك غيري وحين يرتطم أحدهم بي أستوعب أن النجاة ممكنة. أمُدُّ ذراعي وأقبض على ساق أو ذراع. طبيعة الصوت في القبو تتبدل وأنتبه أن الباب فتح لكن الظلام لم يتغير. لعله الليل في الخارج. تطرقني عظمة على وجهي وأقع إلى خلف وأصدم رأسي. الدم يملأ فمي وحلقي كما في مرفأ بيروت قبل 12 سنة. لا أدري من أين تأتي القدرة إلى بدني الجائع المحطم لكنني أمد أطرافي مرة أخرى ومثل حيوان لا يفهم أتشبث بالرجل المذعور الذي يحاول أن يهرب وأحفر أصابعي فيه. الغريب أن عضوي ينتصب. يضربني مرة أخرى وهذه المرة أستعمل أسناني. أغرزها في اللحم والعظم ولا أقبل أن أترك كي أختنق. المفاتيح تطرطق، رائحتها قوية، وعلى ثياب الرجل أشم رائحة الخارج. يشدني أحدهم وأسقط. أعرف أنني ميت. حتى أسناني وقعت من لثتي المريضة. رأسي تراخى، مال عن رقبتي. ماء آسن ولج أنفي وعينيّ. في ثياب الرجل الذي فتح الباب رائحة خبز وسكر وتفاح. أبلع دمي وأرفع وجهي. رائحة التفاح تمنحني هذا. بلا أمل أفتح فمي وأقول: أنا حنا يعقوب.»

بيروت (1860)

هذه حكاية حنا يعقوب وزوجته هيلانة قسطنطين يعقوب وإبنتهما بربارة، وفيها ما وقع للعائلة البيروتية الصغيرة من مصائب بسبب الحظ العاثر ووجود الرجل المتوسط القامة الحنطي الوجه

الأسود الشعر والعينين بائع البيض في المكان الخطأ في الساعة الخطأ.

كانت هيلانة تخشى عليه من خروجه اليومي المبكر في تلك الفترة بسبب كثرة العساكر والغرباء في البلد. وقعت حرب أهلية في الجبل الذي يظلل بيروت وبعد معارك ومذابح دامت ثلاثة أسابيع كسر الدروز المسيحيين واستولوا على جبل لبنان. عدوى القتل انتقلت على الألسنة وفي الهواء إلى مدينة دمشق: أغار المسلمون بالبارود على حي النصارى وأحرقوه، جرت الدماء في أقنية الدواب وسط الدروب. الناجون بجلودهم نزحوا إلى بيروت. انحدروا بين الصخور والأشواك كقطعان ماشية أفلتت من ذئاب وأحاطوا بأسوار المدينة القديمة ثم تدفقوا إلى قلبها. كانوا أكثر من سكان البلد وهيلانة خافت حين رأت أولاداً لم ترَ شبهاً لهم من قبل، طوالاً كالقصب، شبه عراة بعظام ناتئة من الجلد، يقفزون على الحائط وراء البيت ويدنون من قن الدجاج. أطلت برأسها فهربوا. قالت لزوجها عند رجوعه في المساء وهو سألها من أين بالضبط قفزوا. خرج في الصباح بلا سلة البيض وجلب حجارة ورفع الحائط أعلى. ساعدته في التعمير بينما بربارة تدب عند العتبة وتلعب مع الفراشات الملونة. كانت روائح الربيع تهب من البساتين مع النسائم لكنها في هذه السنة لم تكن طيبة. خرجت هيلانة إلى السوق كي تشتري ملحاً فوجدت الأزقة الضيقة المسقوفة بين كنيسة سيدة النورية وحارة اليهود مسدودة بعائلات منكوبة نائمة على الطريق. خافت وهي تحاول أن تجد موضعاً لقدمها. داست على كيس من القش فخرجت يد من الأرض وقبضت على كاحلها. لم تزعق لأن وجهاً أبيض شديد الجمال بان

بعد اليد، والقبضة ارتخت. بنت لا تجاوز السادسة نهضت وهي تفرك النوم من عينيها بأصابع بيضاء قصيرة. قالت «صباح الخير» ومن نبرة الصوت عرفت هيلانة كم هي جائعة.

رجع حنا في المساء مبلولاً بالعرق وبينما يغتسل وهي تسكب له ماء أخبرها أن البوارج تسد المرفأ، وصلت من أسطنبول وباريس ولا أحد يعرف ماذا ستفعل. أخبرته عن نساء دمشقيات اللهجة رأتهن يتدافعن على قفة الخبز أمام الجامع العمري. قال «الربّ يرحم». استحى أن يخبرها كم سلة بيض باع في ذلك اليوم. من قبل كان يخبرها كم بيضة باع. لكن منذ عجت البلد بالناس صار يخرج الى مزارع المصيطبة والرأس والأشرفية كي يشتري من هناك بيضاً. الدجاجات في القن وراء البيت لم تعد كافية. كانت سلة واحدة تكفي للنهار ومرات يرجع وهي نصف ملآنة.

لم يقبل من هيلانة وهو يقوم عنها وهي تتعلق برقبته وتطلب منه البقاء في الفراش في ذلك الفجر الأخير الأسود. قالت له رأيت في المنام أن السلة وقعت والبيضات تكسرت. ضحك كما يفعل في كل مرة تقول فيها «البيضات» بدلاً من «البيض» وقال لها لا تقلقي والبيض سلقته واذا انكسر صار تقشيره أسهل. على عكسها كان منشرحاً ضاحك الوجه في ذلك الصباح الأخير وعندما رفع بظفر خنصره الطويل خصلة شعر عن وجهها سرى التيار الطيب منه إليها وطمر وسواسها. هكذا غادر البيت مع سلتي بيض وهو لا يعرف أنه لن يرجع.

(شفاعة في القشلاق)

أتى الشيخ غفار عز الدين إلى المدينة على بغلة بيضاء وسأل عن بيت اسماعيل باشا المجر. كان معفراً بالغبار وشمس النهار الطويل تثقل لسانه. مع هذا شعر الحرس أمام باب الدركاه بالمهابة. وراء البغلة البيضاء التي لم ينزل عنها بانت بغلتان بلون الرماد أصغر حجماً أو لعل الأحمال أثقلتها فظهرت أقرب إلى الأرض. أحد الحراس ترك مركزه وسار أمام الشيخ الأبيض اللحية المدوّر العمامة في زحمة الناس والحمير والبضائع يشق له وللبغلات الثلاث درباً إلى «ساحة عالسور» حيث نصبت فرقة عثمانية خيماً موقتة. الشيخ غفار عز الدين تهادى مرهقاً في مكانه العالي وشعر بالهواء يغادر صدره ولا يرجع. في حياته كلها لم ينزل إلى بيروت غير مرتين: مرة مع قافلة من حوران نزلت في بلاد الشوف كي تعزي بشيخ عقل الطائفة ثم أكملت الطريق إلى الساحل في تجارة. وهذه المرة. هل يقدر أن يحصي السنوات الفاصلة؟ لعلها خمسون سنة! لكن هذا بلد آخر: بيوت على بيوت ودكاكين تزحم دكاكين وناس فوق ناس. الضجة مخيفة. نحاس يطرطق وأفواه كثيرة تتكلم في وقت واحد ولا أذن تسمع. وقف الحارس أسفل طريق تتسلق هضبة. مسح عرقاً عن وجهه ورأسه ثم نفض أصابعه صوب الأرض. هذا زاد الشيخ انهاكاً. «اسأل يا شيخنا في باب القشلاق»، قال الحارس وهو يدل برأسه إلى السراي الكبير الذي يتوّج الهضبة. أخذ القرشين وهو يشكر ويدعو له بالتوفيق ثم تبدد في الزحمة. في تلك اللحظة تعالى الأذان. ضوء الغروب لوّن الوجوه بالأحمر. أمام حوانيت الخياطين خفقت

أقمشة معلقة. في قريته في أعالي الجبل لم يسمع الشيخ غفار أذاناً يوماً. بينما يرتقي الهضبة إلى القشلاق تحركت شفتاه بلا وعي: الله يا كريم الله يا رحيم.

هذا الفجر وهو يحمّل البغلات مع كنّاته لاحت منه التفاتة إلى أم علي - زوجته وإبنة عمه - شبه مطوية عند العتبة تستند إلى الباب بيد واحدة، فخاف أن تقع على وجهها. بلغ هذا العمر من أجل أن يفقد أولاده؟ الأحفاد بعضهم نائم وبعضهم استيقظ لكن حتى الصغار فهموا في هذا الفجر ان الركض والقفز والصياح لا يجوز. بينما يحزم الجرتين بالحبال اقتربت ابنته بهية ومدت يدها. كانت أقوى من رجل، سميكة العظم، وحين أنهت تثبيت الجرتين ربتت على ظهر البغلة وقالت شيئاً. لم يسمع الدعاء بسبب بكاء كناته: نشيج محبوس يفلت من الأعماق فجأة ثم يُسترد كاللعاب إلى الداخل. دارت بهية حول البغلة التي تلوك شعيراً واقتربت منه. باست يديه وضمها إليه وباست كتفه. لم تبكِ. احترقت دمعتها يوم ترملت. بعد معركة عين دارة لم تعد نفسها. استقامت وحين نظر إلى وجهها مشفقاً يريد أن يقول لها كلمة طيبة أعجزه الموقف: بدت عجفاء يابسة متحجرة. أشاح بوجهه وصغرى كنّاته زوجة سليمان أنقذته بوقوعها بين ذراعيه. كانت المفضلة عنده ويحبها اكثر من ابنة واذا مرض لا يأكل من غير يدها. رائحة سكرية حارة فاحت من رقبتها السمراء وملأت أنفه. عانقته وهي تدعو له وتوالت من بعدها الباقيات وجاء الصغار أيضاً. بعد ذلك اصطفوا مثل صف العسكر على المصطبة. أوشك عندئذٍ أن يترك خطته ويدخل وينام تعباً. لكنه تنفس ونظر إلى أم علي وقال: «ادعي للأولاد يا أم علي أن يرجعوا معي، الله يحب صلاة الأم». ثم

ركب بغلته ونظر من أعلى إلى بهية وقال: «ادعي لأبيك بالتوفيق يا بهية، ادعي لي». كان يعلم أنها غاضبة ولا تقبل نزوله الى اسماعيل باشا. رفعت صوتها أمس حين عرفت وقالت كيف تذلنا هكذا يا أبي! أسكتها بحركة عنيفة من يده وهي تراجعت الى خلف كأنه سيضربها. طبيعتهما واحدة لكنها لا تعلم. بينما يبتعد على البغلة البيضاء في ذلك الفجر فهمت أنه يفعل هذا من أجل أم علي.

هواء الجبل بارد آخر الليل، حتى في الصيف. لمّ العباءة على بدنه وأخذ يصلي بينما الطريق تنحدر صوب النهر. مع شروق الشمس تعثرت إحدى البغلتين فسمع بيضاً يتكسر في سلّة. نزل ورمى البيض الذي تكسر على الصخور جنب النهر وتذكر أم علي أصغر سناً تضحك وتقول ان البيض المكسور بشارة.

(شفاعة في القشلاق - 2)

بكره علي قضى في كمين خارج دير القمر. بهاء الدين جرحته السيوف في وقعة زحلة ولفظ أنفاسه بجوار قلعة حاصبيا. بقي للشيخ غفار خمسة أبناء وهؤلاء محابيس عند اسماعيل باشا الهنغاري ينتظرون مع 550 درزياً السفن التي ستأخذهم إلى المنفى في طرابلس الغرب وفي بلغراد. أخبروه ان اسماعيل باشا يقبل الشفاعات ولهذا أتى. لكنه في طلعة القشلاق، بينما الشمس تغرب، اضطرب. استرد نفسه حين رأى عيون الحراس تتأمله. كان الباب الكبير مقفلاً وترجل أمام الباب الصغير. اشتدت قبضته

على الرسن وهو يلفظ اسم الباشا. أخبروه ان الباشا يتعشى وانتظره واقفاً تحت شجرة الجميز في باحة القشلاق بينما العبيد ينقلون بعض أحمال البغلتين إلى المطبخ. كان الشيخ غفار يشير عليهم بعصاه المنحوتة من خشب الجوز مستخدماً كلمات قليلة. خرج أحد الكتبة من السراي ودعاه إلى الدخول والاستراحة. وجاء صبي من حيث لا يعلم ووضع أمام البغلات ماء وطرح على الأرض شعيراً. الشيخ ناوله من كيس القروش كما ناول عبيد المطبخ من قبله لكنه لم يدخل وظل واقفاً تحت الشجرة. غسل يديه ووجهه ورقبته وشرب ماء طعمه ملح وأكل حبات تين أودعتها احدى الكنّات جرابه. كان الظلام هبط والقناديل أضيئت وعُلقت عندما نادوا عليه أخيراً. في اللحظة التي ولج فيها العمارة الحجر العملاقة اختفى طنين أذنيه. أدرك أن أولاده هنا، في قبو السراي.

باس يد الباشا والخاتم بفص الياقوت. «تفضل يا شيخ غفار»، قال اسماعيل باشا وأشار الى الطراحات جنبه. فاجأه ذلك: أن يلفظ الباشا اسمه. كان رجلاً غريب الوجه، يتكلم بصوت خافت حتى ان الشيخ غفار جاهد كي يسمعه رغم قوة سمعه، وأغرب ما في وجهه عينه اليسرى شبه النائمة: كان الجفن متهدلاً على هذه العين، متجعداً. بدا مستريحاً صافي المزاج وهو يلتقط ابزيم الأرجيلة ويسحب نفساً طويلاً. مصابيح الزيت المعلقة أنارت القبب وانعكست على رخام في الزوايا. «ماذا كنت تفكر الآن وأنت تحت الجميزة؟»، سأله اسماعيل باشا. تراجع الشيخ غفار الى خلف مرتبكاً. انحنى حين تحركت شفتا الباشا كي يصير أقرب ويسمع أحسن لكن هذا لم ينفعه: هل سمع خطأ؟ تكلم اسماعيل باشا من جديد مشيراً بالابزيم العاج الى النافذة البعيدة

الغائبة في الظلال: «أردت أن أرى ماذا يفعل شيخ في مكانك وهو وحده.» قبل أن يتكلم الشيخ حرّك الباشا يده مرة أخرى فأسرع احد الواقفين في المدخل وبدأ يخفف ضوء القناديل. كان الفتيل يقصر والشعلة تتضاءل في جوف الزجاجة، قنديلاً بعد قنديل، وأمر الباشا بالتركية هذه المرة: «تكلم!». جاهد الشيخ وهو يركب الجمل في رأسه. ابتسم الباشا وتململت يده المستترة في قماش العباءة وهو يرجع الى العربية: «قل ما جئت من أجله!»

بلا انتباه نظر الشيخ الى الجرتين اللتين جلبهما. كانت هذه ثروة العائلة. جرتا ذهب، ليرات ذهب عثملي استمرت ترنّ في رأسه مثل الرعب طوال رحلته من قمة الجبل الى هذه المدينة الرطبة.

والآن كيف يبدأ؟ ضحك اسماعيل باشا وسبقه مرة أخرى: «هل تعرف ان الدعاوى المقدمة من المسيحيين ضد أولادك أكثر من الدعاوى ضد سعيد بيك جنبلاط ذاته؟ هذه العثمليات لا تكفي لدفع التعاويض عن نصف الدعاوى يا شيخ غفار. والشيخ سعيد مريض لكن أولادك في عز الشباب فكيف أفلتهم؟ لو طلبت هذا من فؤاد باشا تعرف ماذا يفعل؟ لا ينفيهم لكنه يعلق لهم المشانق تحت هذه الجميزة حيث كنت واقفاً.» اليد تحركت مرة أخرى والعبيد دخلوا يحملون قهوة وحلوى وماء وفواكه. كان الباشا يحدق إليه شديد النظرة. فتح الشيخ غفار فمه لكنه لم يعرف ماذا يقول. تبدلت ملامح الباشا، صار كئيباً، هزّ رأسه وسحب من الأرجيلة نفساً كأنه يتنهد.

(شفاعة في القشلاق - 3)

«أعرف. عندي أولاد وأعرف. أنا ولدت في قرية على ضفة نهر الدانوب في بلاد الصرب. أبي كان يزرع الخوخ ويعمل منه الخمر البراندي المشهور في أراضي المجر. قريتنا كانت على الحدود في ذلك الوقت وحين أحرقها مصطفى باشا أبي الثاني وولي نعمتي، كنت في الرابعة.

أبي كان يشرب نصف المحصول الذي يخمره ويتعامل مع أخواتي وأمي تعاملي أنا الآن مع الجاريات الشركسيات. لا تشفى احداهن من البقع السوداء حتى تتبقع الاخرى. أحياناً أنتبه أننا نتشابه. قطعوه بالسيوف وأنا أنظر. رأسه تدحرج مفتوح العينين على العشب القصير الأخضر. مثل هذه الفترة من السنة. والدانوب لم ينخفض بعد. كان الدم ينوفر أسود اللون من خرطومين في عنقه. حصان مصطفى باشا توقف فوق رأسي والشمس اختفت. ركلت الرأس ورأيته يتدحرج صوب النهر. قريتنا أعلى من الدانوب. أخذني مصطفى باشا الى بيته في اسطنبول وعلّمني مع اولاده. في الصيف كان يأخذني معه الى ضيعه في البوسنة والجبل الاسود وبلغاريا كي نتصيد.

عاملني كأنني من لحمه ودمه وحين جرحوني في المورة ووقعت عن حصاني أصابته حمى وهو يأكل في القصر في أنقرة قبل ان يصل خبري إليه. الأب يقلع عينيه من أجل أولاده، يقولون. والبدو عندهم مثل: الدم ذهب أحمر. لكنني يا شيخ غفار لا أملك دم أولادك كي أبيعه.»

الشيخ الثمانيني التعبان سقط وجهه ولم ينبس بحرف حين

سكت الباشا. من خارج النافذة تسللت أصوات متباعدة. كأن المدينة تسافر على البحر وتبتعد. تراجعت ضجة الناس وارتفع نباح الكلاب وعواء بنات آوى. تكاثف الظلام. قرقرت الأرجيلة. مال جذع الشيخ غفار الى أمام مثل شجرة قصفوها. لفّ الباشا النربيج على عنق الزجاجة ثم رفع اصبعاً. اقترب أحد الكتبة وأعطاه ورقة. قرأ الباشا المكتوب فامتلأت أذنا الشيخ بالدم. «محمود غفار عز الدين 37 دعوى قتل وجرح وحرق - بشير غفار عز الدين 34 دعوى قتل وجرح وحرق - نعمان غفار عز الدين 31 دعوى قتل وجرح وحرق ونهب - سليمان غفار عز الدين 14 دعوى قتل وجرح وحرق - قاسم غفار عز الدين 12 دعوى قتل وجرح وحرق». مرة واحدة فقط ارتفع وجه الشيخ غير مصدق: عند ذكر الدعاوى على ولده نعمان. الا إذا خطف سيفاً في معركة ونسي ان يرده! «نهب؟ سرقة؟» لكن لسانه بقي معقوداً. جاء يطلب شفاعة فاذا به أخرس!

«سأخدمك يا شيخ غفار خدمة. من أجل مكانتك عند قومك ومن أجل منزلتك بين أقرانك المشايخ الذين لم يردوا طلباً لأبي الوزير مصطفى باشا في حربه مع العاصي ابراهيم باشا المصري ومن أجل أعوامك وشيبة شعرك سأعطيك ما أعطي وليس من أجل هذه الليرات. عثملياتك سنوزعها على الأرامل والأيتام المسيحيين طعاماً ولباساً وهذا نعرف أنه يرضيك. وكي لا ترجع الى بيتك وحيداً سأعطيك من يرافقك. انتقِ واحداً من أولادك الخمسة وخذه معك من الزندان. اذهب الآن بسرعة يا شيخ غفار قبل ان أبدل تفكيري وتندم. الله معك».

(باب المرفأ)

بائع البيض حنا يعقوب مرّ أمام جامع السراي سريع الخطوة وهو يرى بطرف العين القباقيب الخشب والمداسات الجلد السختيان متراصفة في المدخل. كانت السرج مضاءة في جوف الجامع ولحظة قيام المصلين من سجودهم تطاولت الظلال بغتة وبدا انها تسابقه في الدرب المنحدرة الى البحر. التقى باعة كعك وسحلب أسفل سوق القطن وبادلهم تحية الفجر ونصحهم أن يعجلوا. عادة يلتقيهم امام جامع السراي. غذوا الخطى في الطلعة ورائحة السحلب الساخنة غمرت وجهه. بينما يعبر امام جامع الدباغة رأى بائع القهوة منصور مراد يقفز الى خلف ويرمي من يده فنجاناً أحرق أصابعه. ألقى عليه التحية وسمع صوتاً لا يعرفه يرد تحيته من داخل إحد البيوت النائمة. قبل ان تكتمل البسمة على وجهه شتمه صوت آخر من وراء نافذة غارقة في الظلام. ردّ الشتيمة همساً وأسرع يقطع البقعة المتقعرة حيث الرائحة لا تطاق. من جهة المسلخ هجم خوار شديد وما يشبه الصراخ. في العتمة الخفيفة شعر بحركة إبل وحمير وراء صف الجميزات. انتبه لئلا يزلق على بلاط الزقاق وراء الخان البحري الجديد وقبل ان يخرج من تحت الأعقاد والقبب - هذا الزقاق يشبه قبواً مفتوحاً من الجهتين - سمع أنيناً أنثوياً حاراً وراء باب مشقق الخشب. تلكأ لحظة متسع العينين ثم خرج الى ضوء المشاعل الأليف في مدخل الأرصفة. بات باب المرفأ مركزه الصباحي المفضل في الفترة الأخيرة. قبل ان يبلغ نقطته شعر بالحركة القوية وراء صف العنابر وسمع الأصوات. من دون أن يرى ساحة التحميل المحجوبة عنه بعنبر البصل والبطيخ

أدرك أنه سيبيع ما في السلتين قبل حلول الظهيرة. رأى كومة من أكياس الطحين تتعالى منتفخة وثقيلة مثل جبل وأمامها ينتصب عسكري. كان الحارس الليلي مستقيماً كرمح، مستعداً تماماً، وبائع البيض استغرب ذلك لأن الوقت مبكر والضباط عموماً لم يخرجوا بعد. توقف عندما انتبه الى بقعة دم أسود تتوسط الطريق المكسوة بغبار الطحين. في اللحظة ذاتها سمع صوتاً وراء ظهره. استدار فرأى بحارة فرنجة في ثياب غريبة. كلموه بالاشارات وحين أخرجوا قروشاً يعرفها بدأ يبيع. كان يقشر البيضة برمشة عين وتبقى القشرة كاملة بين أصابعه مثل بيضة فارغة. أدهشهم ذلك. كانوا سبعة بحارة واشتروا وأكلوا أكثر من نصف سلة وكلما نظروا الى يده ضاحكين وجدوا بيضة جديدة مقشورة للتو تنتظر. هو أيضاً ضحك بينما أسنانهم تتلون بصفار البيض. في هذه الاثناء انتشر الضوء وبانت البواخر منتشرة على صفحة البحر. أحدهم ربت على كتفه مسروراً قبل أن يذهبوا. في لحظة انطفاء المشاعل في باب المرفأ رفع حنا يعقوب وجهه وأطلق صيحته الأولى: «بيض بيض، بيض مسلوق». شعر أنه صباح مبارك. مصّ أصابعه كأنه يمصّ عظمات عصفور ثم حرك لسانه منظفاً سقف حلقه وجوانب فمه من أثر البيض الدسم. بينما يمسح يده على قميصه ارتجف البحر وارتطمت المراكب الصغيرة بالسلسول الحجر. حمل السلتين من جديد وتقدم مطلقاً صيحته. وضع مسافة بينه وبين العسكري الجامد كفزاعة الغربان وعبر. حين أطلّ على ساحة التحميل جمّده المنظر المخيف في مكانه: رجال لا يقدر أن يحصيهم يركعون على الأرض في صف طويل وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم. عرف انهم دروز من ثيابهم ومن الطاقيات القطن البيضاء على الرؤوس.

أحدهم كان يميل ثم يستقيم وينقل ركبتيه على الأرض كي يتوازن، وحين سقط الى امام وطرق بجبهته الرصيف مال معه آخرون واهتزوا واوشكوا على السقوط مثله: كان مربوطاً إليهم.

بائع البيض أراد ان يستدير ويهرب إلى البيت. دبّ الرعب في أوصاله برؤية الجبليين هكذا، مربوطين بحبل كالحيوانات وراكعين على حافة البحر. حاول أن يحرك ساقيه لكن الذعر شلّ أطرافه. التفتت صوبه رؤوس ثم رأى جنوداً يقتربون منه. ورأى ضابطاً يتقي بكفٍ مرفوعة أشعة الشمس يبتسم له ويسأله عن اسمه.

(باب المرفأ - 2)

«جئت في وقتك يا ابني يا حنا. لا تخف، هؤلاء محابيس حاربوا في الجبل وصدرت الإرادة السنية بنفيهم الى بلاد الصرب وراء البحر. هذه السفينة هنا، انظر الى الباخرة الكبيرة أم ثلاثة دواخين، هذه وصلت الليلة من إزمير كي تأخذهم. لكننا الآن ننتظر سعادة القنُصل الفرنساوي كي يقوم من النوم ويأتي ويحصي الرؤوس. اذا كان العدد ناقصاً يظن اننا نسهل للمحابيس الهرب ويقدم اعتراضاً امام الباشا. مهم جداً عدد الرؤوس. هل تعرف عكا؟ عظيم. عكا بلد حلو. من هنا الى مرفأ عكا رحلة يومين أو أقل في هذه الباخرة. أتيت في أحسن وقت يا ابني يا حنا: كم ثمن هذا البيض الباقي معك؟ سأعطيك ضعف ثمنه وسأزيد على ذلك ثلاث ليرات ذهب تأخذها مني عندما ترجع من عكا. الباخرة تتوقف في عكا كي تتزود بالفحم الحجري. انت تنزل منها هناك

وترجع وهؤلاء يكملون الرحلة الى بلغراد. حين يأتي القنصل الفرنساوي بعد قليل لا تفتح فمك وافعل مثل الباقين كي يظنك واحداً منهم. هذا سهل جداً وخذْ، البسْ هذه على رأسك. لا تتكلم إلا اذا سألك القنصل عن اسمك. احفظْ الإسم: سليمان غفار عز الدين. انظرْ هناك: هؤلاء الأربعة الذين ينظرون الى هنا أخوتك. تصرفْ كأنهم أخوتك. تركع جنبهم الآن وتتوكل على ربّك وتزور عكا وترجع الينا ونعطيك ثلاث عثمليات وأجرة الطريق. فهمت؟ احفظْ اسمك: سليمان غفار عز الدين.»

لم يشعر حنا يعقوب بالشمس التي تشوي رقبته بينما الضابط يتكلم. ظل ساكتاً مصعوقاً أمام الوجه الطويل المنقط بنمش شبه طفولي. تركهم يأخذون السلتين منه. أعطته يد نحيلة طاقية درزية كي يلبسها على رأسه فأخذها بحركة لاإرادية. سأله الصوت العجيب هل حفظ الإسم فلفظ الحروف بصوت مرتجف كأنه الآن يتعلم الحكي: «سليمان غفار عز الدين». دفعه الجنود صوب المحابيس وفي تلك اللحظة فقط خرج من الصدمة. استدار استدارة عنيفة وارتمى على قدمي الضابط: «أبوس رجلك يا باشا لا تفعل بي هذا، زوجتي صغيرة عمرها 17 سنة لا احد عندها غيري وابنتي طفلة ما زالت ترضع، أبوس رجلك خذْ غيري أنا لا اقدر ان أذهب.» سمع كلمة تركية ولم يفهم كيف صار في لحظة مطروحاً على ظهره مثبتاً الى الأرض كأنهم دقوا أطرافه بالمسامير على صليب. ألم فظيع أحرق فمه وحتى بعد رؤية السكين لم يستوعب. كان الضابط يضربه بقبضة الخنجر لا بشفرته. ثم كلّمه بالعربية وأمره أن يفتح فمه ويمد لسانه. مال بوجهه وقال بسرعة: «قبلت قبلت» وأقفل فمه لئلا يقطعوا لسانه. نهض الضابط وهو

يبتسم: «عفارم عفارم، وحين ترجع من عكا لك ثلاث ليرات ذهب».

قيدوه وشدوا الحبل حتى خرج الدم من معصميه. في رمشة عين ابتلت الطاقية على رأسه بالعرق. كان يتأرجح في ركوعه. الألم مزّق مفاصله. حين لاحظ قرفاً ظاهراً على وجوه غامضة قريبة أدرك أن البلل الحارق المباغت بين فخذيه ليس عرقاً. داخ وسبح في ضباب ومرّ عليه زمن أخرس غريب ثم تركز الحريق في كليتيه وفكر أنهم جرحوه وهو لم ينتبه. بعد ذلك رأى رجلاً شديد الشقرة أزرق العينين ينحني عليه ويقول شيئاً. في البدء لم يفهم. ثم، دفعة واحدة، بينما الرجل الأجنبي يبتعد، رجع اليه الإدراك واستعاد صفاء ذهنه. لن تسنح له فرصة ثانية: وحده هذا الرجل قد ينقذه، القنصل الفرنساوي. رفع حنا وجهه ومدّ رقبته وصرخ مثل غريق: «أنا حنا يعقوب، مسيحي من بيروت، بيتي على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك.» كان القنصل بعيداً الآن لكنه سمع الصرخة والتفت ونظر من فوق كتفه وسأل الترجمان ماذا يقول السجين؟ أجابه الترجمان بفرنسية ممتازة وبلا تردد: «يقول أنا قتلت حنا يعقوب، مسيحي من بيروت، بيته على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك.» بدا الغضب على القنصل واحتقن وجهه. اقترب ضابط الترحيل وقال: «اذا شاء سعادتك نقطع لسانه.» ردّ القنصل قالباً شفتيه: «لا، لسنا برابرة، لكن اجعلوا المجرم يخرس». خطف الضابط بارودة من احد الجنود وطوح بها في الهواء مثل فأس وهشم قبضتها الخشب على فك السجين. كان يمسك البارودة من قسطلها الحديد وقبل ان يردها هزّها كي يرى الى أي حد تخلعت ثم مسح يده على ظهر الجندي.

(هيلانة)

بعد خروجه خفّفت ضوء القنديل وانحنت على بربارة تتشمّمها. كانت الطفلة غارقة في نوم عميق. «الآن تنامين يا عفريتة!»، همست هيلانة ضاحكة. بينما تستقيم بقميصها الفضفاض الذي رقّ قطنه انبثقت قطرة حليب حارة من حلمتها وكرجت على بطنها. تثاءبت شاعرة بالسكينة العميقة. مدت يدها وأطفأت القنديل وارتمت على الفرشة. بينما تغرق في النوم من جديد بان خيط رمادي نحيل - كأنه رُسم بريشة حبر- فوق قمة جبل صنين. كانت متعبة لأن الطفلة أيقظتها ثلاث مرات هذه الليلة. حتى وهي غائبة في أرض النوم ظلت هيلانة تشعر بتحفز في احدى حلمتيها. انقلبت على جنبها كي ترتاح فإحتكّ القماش بالثدي وشعرت به يترطب. أخرجت تنهيدة وبلعت ريقها مملوءة بلذة النوم بينما اصبعها مكبوس في قبضة بربارة. وهكذا لم تشعر بجلبة العائدين من الصلاة في الجامع ولم تسمع نداءات باعة اللبن ولا باعة المهلبية والرز بالحليب والحلاوة. بقيت هاجعة مثل كيس طحين حتى ملأت الشمس الفضاء وضجّ الحي بالحركة وبثرثرة النساء المسنّات أمام الكنيسة. حتى عندئذٍ لم تنهض. كانت تعرف من القبضة الصغيرة النائمة أنها تقدر ان تنام قليلاً بعد. ومع أن بقبقة الدجاجات الجائعة أخذت ترتفع من القن لم تتحرك. فقط طوت رقبتها قليلاً ومالت برأسها على المخدة كي يزيح شعاع الشمس عن جفنها. دخل أنفها أثر من رائحة حنا -تبغ وعرق وملح وحجارة - لكن رائحتها هي والطفلة ظلت طاغية على الفراش: الحليب والصابون وماء زهر الليمون وما يشبه الشحم

الابيض يذوب على نار خفيفة. بين اليقظة والنوم ابتسمت وهي تتخيل حنا منادياً في زحمة سوق الفشخة: «بيضات بيضات، أطيب بيضات.» حين قرع خادم الكنيسة الجرس النحاس للقداس الصباحي اهتزّ الحائط وفتحت عينيها. رسمت شارة الصليب وهمست «أبانا الذي في السموات ليتقدس إسمك». نظرت الى بربارة فوجدتها مستيقظة، باسمة وساكنة كملاك على ظهرها، متسعة العينين تحدق ببؤبؤيها الرطبين الى ذرات الغبار المعلقة في عمود الشمس. مرة أخرى انتبهت كم تشبه حنا.

اغتسلت عند الجرن وشربت ماء. حملت الطفلة وخرجت وفتحت باب القن وأطلقت الدجاج. تراكضت الدجاجات حرّة سعيدة تنقر التراب وتتقافز. انتشرت بريشها الأبيض والأحمر والبنّي حتى أبعد نقطة في الدار لكنها رجعت بسرعة البرق الى هيلانة مع رشّة الحب الأولى. غرفت ثلاث قبضات ملآنة وطرحتها كالمروحة أمام الدجاج المتسابق بينما بربارة تتغرغر بالضحك. استدارت والطفلة على خاصرتها ومشت حتى الحائط الذي صار أعلى وتطاولت واقفة على رؤوس أصابعها كي ترى السوق. رأت سلالاً تعبر وتحتها رؤوس. في سلة خيزران مدوّرة كبيرة رأت سمكاً فضياً صادوه للتو ما زال يلعط حيّاً ومبلولاً بماء البحر. رضخت لبربارة وعادت الى الدجاج ورشت حفنة أخيرة. بعد ذلك جلست على العتبة وأرضعتها. كان الضوء يلمع على شجرة الرمان وراء القن وينعكس على الوريقات الخضراء الصقيلة وعلى ثمر زهري يكبر ويتدور ويغمق لون قشرته صباحاً بعد صباح. قبل حلول الظهيرة سمعت بائعاً ينادي فخرجت واشترت منه ربطة سبانخ: أرادت مفاجأة حنا. بينما تعود تحركت كومة

ثياب كحلية جنب الطريق وامتدت يد من داخل الكومة مفتوحة الراحة تطلب حسنة. لم ترَ وجه العجوز لكنها سمعت صوتاً حلواً يدعو لها ولأهل بيتها بالصحة وطول العمر. رجعت وألقت في اليد قرشاً لكن الاصابع العظم أمسكت يدها. لم تتوقع ذلك. دام الأمر لحظة ثم أفلتتها الأصابع القوية وسمعت الصوت يقول من داخل القماش: «الله يعطيك ويبعد الشرّ من دربك، افتحي يدك يا ابنتي الجميلة كي اقرأ لكِ كفّك». لكن هيلانة لم تتلكأ أطول وأسرعت الى البيت.

قصت كعوب السبانخ قاعدة في الظل عند حافة البئر. رمت للدجاج بعض السيقان التي عضّتها الدودة ثم نقعت الورق العريض الاخضر في جرن الماء كي ينظف. غسلت فنجان برغل رفيع وبلّته دقيقتين ثم فركته بالطحين. نفضت ورق السبانخ في الشمس حتى جفّ ورتبته طبقة على طبقة وفرمته دفعة واحدة. قشّرت بصلاً وفرمته ناعماً واشعلت العيدان اليابسة في الموقد امام الباب وقلّت البصل بمزيج سمن بلدي وزيت زيتون وعندما ذبل وشفّ واصفرّ لونه ألقت عليه السبانخ. نادتها جارتها ام سمعان عندما شمّت رائحة التقلية وسألتها ماذا تطبخ؟ بربارة التي تدّب على الطراحة رفعت رأسها كالخروف تبحث عن مصدر الصوت. هيلانة أبعدت مقلى الفخار عن النار وحملت الطفلة وذهبت الى شباك جارتها وتكلمت معها. سليم الصغير قارع الجرس أطلّ عليهما من برج الكنيسة أصفر الأسنان يضحك كأبله ثم اختفى. أم جرجي أطّلت من نافذة أعلى وهي تعصر قميصاً مبلولاً. دخلت الحديث بيسرٍ لأنها كانت سامعة كل شيء وهي في الداخل: «أبو جرجي لا يرضى ان أطبخ كبّة حيلة. يقول نفسه لا تقبل اللبن المطبوخ. لا

يأكل الكبّة إلا بلحمة وبالصينية.» قالت هيلانة «حنا يحبّ كثيراً حشوة السبانخ.» أم سمعان مدّت ذراعيها البضّين-البيضاوين من النافذة وهي تنحني: «اعطيني». رفعت هيلانة الطفلة عالياً فشمّت الرائحة. تغرغرت بربارة بالضحك.

(محابيس)

حملوهم على دفعات بالمراكب. كانت الباخرة راسية وراء السلسول عاجزة عن دخول الميناء بسبب الصخور والمدخل الضيق. وقع حنا في بطن المركب لكن الآخرين شدّوه حتى جلس مكوماً على نفسه. هكذا أتيح له أن يرى الاشباح تبتعد وهي واقفة بلا حراك على الرصيف العريض تنظر الى البحر. لم يتبين الوجوه لأن الخان الجديد ألقى ظلاله واسعة معتمة على الرصيف. ولم يتبين الوجوه بسبب الألم الفظيع في فكه وفمه. مرة ثم أخرى بصق في أرض المركب دماً وقطعاً مكسرة من أسنانه. رفع عينيه ورأى ضباباً خفيفاً أصفر تمزقه النوارس ووراء الغشاوة التي تغزلها الشمس ميّز جنوداً يقفون على حافة الرصيف ويلّوحون له. كانوا يأكلون البيض ويلقون القشور الى البحر. جذبه الحبل جذباً عنيفاً. شعر أن كتفه انخلع من جذعه. حاول أن يتحرك فوجد قدمه عالقة في أخشاب القعر. أحد المحابيس قبض على ذراعه التي توجعه ثم التصق به من خلف. انتظر ضربة لكن يدين قويتين امسكتا به من تحت ابطيه ورفعته فوف حافة المركب. من خلّص قدمه العالقة؟ ماذا يفعلون الآن؟ اذا رموه في البحر مربوط اليدين يغرق ويموت!

أراد أن يصرخ فامتلأ حلقه بزجاجٍ مطحون. عندئذٍ فقط سمع صوتاً يأمره أن يشرب من البحر وأن يغسل فمه. لم يفهم. ثم أبصر كفاً كبيرة الحجم تغوص في البحر وتغرف ماء وتخبط وجهه. قال الصوت: «ألا تقدر أن تغسل وجهك؟» أجابه حنا: «أنا مربوط.» بينما يتنفس لاهثاً والرذاذ المالح يدخل عينيه رأى يده تتحرك وحدها كأنها مفصولة عنه وتغرف ماء وترفعه الى فمه. اغتسل محنياً على البحر. حين فرك رقبته ورأسه شعر بالروح ترجع الى بدنه. فرك معصميه بالماء مقلّداً الآخرين. تحمّل الحريق ولسعة الملح على الجرح الطري. في طرف المركب جلس رجل أبيض الشعر عاري الصدر يلفّ الحبل الطويل رافعاً مرفقه. كان ماهراً سريعاً كأنه قضى حياته يتمرن من أجل هذه الساعة. شعر حنا بنعاسٍ شديد ثم انتبه أنه يدوخ: المحابيس يتحلقون حوله ويركضون. ارتطم المركب ببطن الباخرة. ارتجّ جسمه وفكر أنه لا يستطيع الوقوف. رجعت قوته لحظة فقط ثم ذهبت. أحدهم لكز جنبه كي يتحرك. «رِجلي»، قال. سمع صوت الدرزي الذي ساعده من قبل: «لا يقدر ان يحرك رِجله.» ثم تناهى اليه صوت أبعد، يسقط من أعلى، كأن من السماء: «احملوه!» سمع أحدهم كأنه يضحك: «طيب، نحمله، هذا أخونا، لا؟» وهكذا حملوه.

ارتفع كالميت على الأكف وحين اهتز المركب فكر أنهم الآن يرمونه في الماء. أحدهم كان غاضباً، يبرطم بما يشبه السباب، وحنا فتح عينيه تماماً وهو معلق بين البحر والسماء ورأى الوجوه في الأعلى تنظر اليه ورأى سقالة خشب تتدلى من حبال وتتأرجح وتخبط جنب الباخرة. ارتجّ المركب مرة اخرى فمالت نظرته. سفينة ثلاثية الصواري ترفع الراية الطليانية كانت تدخل المرفأ.

أشرعتها منتفخة بيضاء والبحارة يكافحون. كانوا يطوون الأشرعة. نساء في فساتين أوروبية باهرة الألوان - واقفات تحت الشماسي عند درابزين السفينة - نظرن الى هذه الجهة. إحداهن لوّحت له بمنديلها الحرير. أحدهم ارتقى السقالة الخشب وبلا جهد كبير التقطه من الباقين وأجلسه كأنه ولد وأمسك به لئلا يسقط. مال ناعساً كأنه يوشك على النوم. ارتفعت السقالة مع صرير عجلات. سقطت أشياء جنبه. ماذا يرمون من فوق؟ حبال؟ قبل أن يغيب عن الوعي شعر أن فمه ينزف من جديد.

(هيلانة - 2)

خافت أن يسقط سليم الصغير عن حافة البرج ويحطم القن ويدق عنقه. كان ضئيل الجسم أخرق وحين انتهى من فرك الجرس بالرمل والحامض بدا الجرس بلونين كانه صُبّ من مادتين: نحاس بارق في الأسفل - حيث تطال يده - وحديد مطفأ في الأعلى. ألهاها عن اللبن الذي تغليه حتى كاد يلتصق بكعب الطنجرة. من مكانه المشرف استرق النظر الى لمعة ركبتيها. انحنت كي تلقم النار فبرق بياض نحرها. ارتعشت ساقه. على الصينية جنبها تراصفت أقراص الكبة: راقبها بينما تعدّها. طيّبت عجينة البرغل والطحين بالكمون وتحويشة الأعشاب اليابسة (حبق ومردكوش ومنتور واكليل الجبل) ثم قسمتها الى كرات بحجم بيضة الفري. كانت تبلّ رؤوس أصابعها في كاسة ماء ثم تلتقط بيضة عجين وتكوّرها وتقرصها على الراحة المفتوحة حتى ترق ويفرغ جوفها.

عندئذ تحشوها ملعقتين من خلطة المقلى الذي برد في الهواء: بصل وسبانخ وصنوبر رشت عليه ملحاً وسماقاً. كم مرة حلم سليم الصغير لو أن الربّ خلقه حنا يعقوبُ ولم يخلقه خادماً ينظف الكنيسة ويقتل الفئران. بينما تقفل القرص على الحشوة انتبه الى ضيق في صدره وخاف ان يقع: هذه أصعب مهماته، تلميع الجرس. كان يحسد خادم سيدة النورية لأن جرسها في الباحة امامها على الأرض. ألقت فرعاً أخضر في الموقد فارتفع دخان. دمعت عيناها واشاحت بوجهها ونظرت الى بربارة مستلقية على ظهرها في الداخل تمد يديها وتحول ان تقبض على أشعة الشمس. رائحة الغار القوية أبعدت البرغش الذي بدأ يحوم. أطلت جارة من نافذة غير بعيدة وردت الدرفة في وجه الدخان. تعالى أذان الظهر وانتظرت لكن حنا لم يمر على البيت. قبل أن يكبس المهجرون البلد كان يرتاح كل ظهيرة: يجيء حين تقوى الحرارة وتفرغ الطرقات. يتخلص من مداسه عند العتبة ثم يُعلّق سلة البيض. يبدو معتكراً مقفل الوجه. تصبّ الماء البارد من ابريق الفخار على يديه ويغسل وجهه ورقبته فوق الجرن ثم يتناول الابريق ويشرب ويشرب. يرفعه عالياً ويقع الماء الصافي في قوس طويل ويختفي في زلعومه: تعجب كيف يتبدل وجهه ويروق كأنه تراب عطشان والآن سقط عليه المطر. يلاعب بربارة التي تهتف عليه كأنه غاب سنوات لا ساعات. يأكل لقمة خفيفة ويشرب فنجان قهوة. مرات كثيرة يرد درف النوافذ ويضطجع معها قبل الخروج. بدّل عاداته في الفترة الأخيرة لكنها شعرت أنه قد يمر هذه الظهيرة. انتظرت وعندما عمّت الجلبة السوق من جديد أدركت أنه لن يرجع قبل المساء.

أكلت قليلاً وارضعت الطفلة وراقبت الدجاج يستخرج دوداً رمادياً من التراب. عند الغروب سقت الأحواض وشربت كوب زهورات واقفة تحت شباك أم سمعان. كانت جارتها مسرورة لأن ابنها يوسف خرج للصيد في بحر عين المريسة وتوفق بسرب من السمك: «البزري والبوري يكثر في هذا الوقت.» بلا سبب واضح أحست هيلانة بخوف. بحثت في أعماقها فعاد اليها المنام الذي نسيته: كانت قاعدة في عتمة العتبة ترضع بربارة وتنتظر حنا وحين أطلّ أخيراً كان يحمل قنديلاً ويبدو مثل شخص آخر، مثل المرحوم أبيه ربما، مع أنها لا تعرف شكل أبيه لأنها لم ترَه يوماً. كان حنا لكن ليس حنا الذي يرجع كل مساء. بدا بشعره الأبيض عجوزاً. هبّ الهواء وأبعد المنام. تقافز الدجاج وام سمعان قالت: «الحقيها». التفتت هيلانة ورأت دجاجة تقفز من غصن الرمانة الى الحائط وتتراكض على الحافة وهي تبقبق وترقّص جناحيها ثم تطير وتختفي. وضعت كوب الزهورات على الأرض وركضت خارجة الى السوق فوجدت الدجاجة بلا عناء: كانت هاجعة اسفل الحائط ترجف خوفاً وتحاول أن تدخل بين الحجارة. أم سمعان قالت وهي تراها عائدة ضاحكة والدجاجة تحت إبطها: «قولي لحنا أن يُشحل أغصان الشجرة.» هيلانة أرسلت الدجاجة مباشرة الى القن وردت أن السبب الهواء، من دونه لا تقدر أن تطير الى هذا العلو. تركتها ام سمعان تجمع الدجاج واختفت داخل بيتها. أقفلت القن ومضت واسعة الخطوة الى طفلتها: كانت بحاجة الى حملها وشدّها الى قلبها كأنها لم تفعل منذ دهر.

حلّ المساء وفاحت روائح القلي والطبيخ. خرجت اصوات الاكل من البيوت ولم يرجع حنا. انتظرته واقفة في الباب المفضي

الى السوق مع أنه لا يستسيغ ذلك. حين تكاثف الظلام وبدأ بعض القناديل ينطفىء استدارت راجفة برداً وذهبت الى تحت شباك جارتها ونادت. أم سمعان ظهرت تحمل رغيف خبز: «خير؟»
«حنا، حنا تأخر كثيراً.»

(قلعة بلغراد)

رموه في قبو تحت الأرض وظل زمناً لا يعرف أين هو - هذه عكا؟ - غير واثق من النجاة. لم يشعر بالرحلة ولا بالبحر. من أيام الباخرة ولياليها لم يركد في ذاكرته غير رائحة التوابل لأن الباخرة كانت معدة للتجارة مع بلاد الهند. رائحة التوابل - الباقية من رحلات سابقة - وصوت بشري واحد وسط الدمدمة المتقطعة والهدير الذي لا يسكت أبداً. ظنّ الهدير فيه وناتجاً عن الحمى التي استحكمت عليه ولم يدرك أنه موج البحر. لم يفهم سرّ الصوت: عرف أنه الدرزي الذي ساعده في المركب لكنه لم يفهم لماذا بقي معه. النار شوت دماغه لكن ذلك لم يعذبه. العذاب كان أدوار البرد. لم يتحمل الصقيع وصار يصرخ طالباً أغطية. عرف أن أحدهم يغطيه. لم يذهب الصقيع - ظلت أطرافه تنتفض - لكن البطانية ساعدته. ثم تورّم وجهه. ولسانه تضخم في فمه حتى صار مثل حيوان عجيب اختار وكراً في أغرب الأمكنة. حاول عبثاً أن يلوك قطعة خبز: انزلق فكه وغاصت الأضراس في النيرة الطرية. قماشة مبلولة تقطر على شفتيه منعت عنه الموت عطشاً. حدث شيء في نقطة ما وشعر بالأيدي تقلبه وتنقله. بعد ذلك فعلوا شيئاً

جعله يزعق ألماً: أصابعُ قوية تحسست ركبته العارية ثم قبضت على ساقه في موضعين وفتلت المفصل. لم يعرف ماذا صنع كي يُعذب هكذا. ربطوا ركبته ربطاً شديداً وتركوه. كانت رائحة البهارات تملأ أنفه وجاهد لئلا يعطس ويضاعف الألم. الصوت طلب منه أن يفتح فمه. كف كبيرة كالرفش انسلّت تحت رقبته ورفعت رأسه. القطرات سالت حلوة عطرة في زلعومه. شهق وبكى لأنه لم يمت بعد ولأنه تعرّف رغم الحرارة على طعم البرتقال. كان المكان مظلماً كالعادة لكنه جرّب: فتح عينيه حتى درجة الألم وحاول أن يرى وجه الدرزي. لم يرَ شيئاً.

من كتلة الدمدمة الغامضة كانت تصل اليه أحياناً عبارة واضحة، مثل خيط ينفصل عن كنزة. أدرك انه يُذكر من عبارة «هذا المسيحي المسكين» مرة، ومن «هذا الحمار المسيحي» مرات أخرى. لم يستطع ان يربط أصوات الدروز حوله بوجوه. حين حاول ذلك اكتشف انه يتذكر وجه الضابط المنمش في المرفأ والجنود الذي ضربوه وهو ملقى على ظهره. لم يتذكر الوجوه في المركب لكنه تذكر أسنانه ولطخات الدم في بركة المياه المتجمعة. كانت الدمدمة تبتعد احياناً ويشعر بحرارة طفيفة على جفنيه المتورمين كأنهم فتحوا كوة في السقف. «أنا قاسم، اذا أردت شيئاً اندهْ لي!»، قال الصوت. شعر أنه وحده في كيس أسود. لاحقاً، حين أخرجوه الى ظهر الباخرة وأعمته الشمس، تخيّل نفسه راكضاً على الطريق الطويلة بمحاذاة شريط الساحل الباهر من عكا الى صيدا الى البيت. بربش برموشه وخانه البدن الجائع ووقع. اضطروا الى حمله وبينما يسحبونه الى البر سمع احصاء الأسماء وقرع أذنه السليمة اسم غامض مشؤوم: «سليمان غفار عز الدين.»

صاح في القبو حتى بحّ صوته: «أنا حنا يعقوب!» كانت الرطوبة فظيعة وشعر بالعفن ينمو على رقبته. زحفت حشرات على جسمه. دقّ رأسه على الحائط. داخ من شدّة الألم. لم يفهم. كان البحر مثل هوّة سوداء وقبل الهوّة حياته وبعد الهوّة هذا الظلام الذي يتمدد. «اصبرْ يا حنا!»، قال أبوه في الظلام.

(قلعة بلغراد - 2)

نقلوه بعد فترة الى قبو آخر. مكان يتسع لعشرة محابيس وضعوا فيه سبعين درزياً. في الطريق الى القبو الجديد حاول ان يتكلم مع الحارس. كان رجلاً مربع الجسم يبصر في الظلام وتفوح منه رائحة كلسية: كأنه قُدّ من كلس. فكّه عن الحلقة في الحائط وأمسك به من رقبته مثل أرنب ورفعه ودفعه وهزّه. بكى حنا وهو يحاول أن يشرح له ما جرى في مرفأ بيروت. الحارس لم يهتم. في الدهليز سمع حنا لغة عجيبة. سقطت الحروف كالمطارق على سمعه. أيقن في لحظة تجلٍ أن الباخرة ألقته في نهاية العالم. عبرت المتاهة مشاعل أسرع من البرق ورأى لماذا يتحرك حارسه مثل أطرش: كان مقطوع الأذنين.

قيّده وذهب. في الظلمة الجديدة الضيقة سمع الدروز يسأل بعضهم عن بعض ويتبادلون السلام. أدرك أنهم اجتمعوا من جديد للتو وأنهم مثله كانوا موزعين على أقبية أخرى. أصواتهم بدت أليفة هذه المرة، محببة: على الأقل يتكلمون لغة يفهمها. أصغى باحثاً عن صوت مفرد في دوامة الأصوات. لكن الجوع أنعسه

والهواء القليل أطفأه مثل شمعة. غاص في نوم عميق وحتى قرقعة الباب - يأتون بأحد؟ يجلبون أكلاً؟ - لم توقظه. في وقت متقدم من الليل - بدا كذلك لأنهم رقدوا وناموا والشخير ارتفع- شعر بالصوت جنب أذنه وارتجف. لم يعرف كيف عثر عليه في الظلمة الدامسة. ولا كيف اكتشف أنه هنا. طوال الوقت ظل ساكتاً: أراد ألا يعرفوا أنه هنا، معهم، هو «المسيحي». لكن الدرزي عثر عليه. سأله كيف صار فمه وسأله كيف صارت ركبته؟

«أحسن.»

سأله هل عرف صوته؟

«أنت قاسم.»

سأله هل يؤلمه حنكه بسبب الحكي؟

«لا، لساني ثقيل.»

تبادلا الهمس لئلا يستيقظ القبو. كان كلامهما يتقطع على وقع الهمهمات والشخير وقرقعة بعيدة.

«أنا اسمي حنا.»

«أعرف من تكون. أنت حنا يعقوب. مسيحي من بيروت. بيتك على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك. قدحت طبلة أذني وأنت تصيح في المينا.»

«ماذا فعلت أنا كي يحبسوني هنا؟ هل هذه بلاد الصرب؟»

«عندك أهل في بيروت؟ ماذا يعمل أبوك؟»

«أبي مدفون في مقبرة السنطية. كان يعمل في بيت النار في الحمام العمومي.»

«وأمك؟»

«ماتت وأنا صغير أرضع. كنت وحدي معها في البيت وحين رجع أبي في الليل وجدني ما زلت أرضع ثديها وهي ميتة.»

«عندك أخوة؟»

«عندي ثلاث أخوات. وعندي زوجتي وابنتي.»

«ابنتك صغيرة؟»

«سنة إلا نصف شهر.»

«غريب.»

لم يسأل حنا ما الغريب لكن سكوته سأل.

«سليمان أخونا الذي خرج عنده بنت عمرها سنة إلا نصف شهر. ومثلك: لم يرزق غيرها بعد.»

«لماذا يحبسونني هنا؟ لماذا يتركوننا بلا أكل؟»

أحسّ بالحركة وعرف أنه ابتعد. تلمس حنا الحائط حتى عثر على رطوبة. أبقى كفّه حتى ترطّبت ثم ذاق الماء. كان مقبولاً. أطفأ عطشه وخفّف حكاك لسانه المنتفخ. سمع بطنه: الجوع يمزق مصرانه ولا يدري هل يتحمل بعد. «سأموت الآن. لهذا أشعر بأبي. دهر ولم يخطر على بالي. يعقوب الوقّاد. أبي. لهذا سمعت صوته. كيف وجدني؟» رائحة غير معقولة غزت أنفه: بيض مسلوق! أحدهم يقشر بيضاً ويأكله! فتح فمه كي يبلع الرائحة. «امسكْ! خذْ!»، قال الصوت. كان هذا قاسم، جلب له خبزاً غريباً مغمساً بشوربة. «بصل ودهن.»، همس قاسم وهو يبتعد.

(يعقوب الوقّاد)

قضى حياته يحرق بدنه في بيت النار كي يستحم الآخرون بمياه ساخنة. طوال النهار يلقي حطباً في الفرن أسفل حمام الدركاه وآخر الليل يفتح البوابة ويخطو خطوة ويلج بيته: غرفة ضيقة دافئة شتاء وحارقة مثل جهنم ما تبقى من السنة. أعطى بناته للطالب الأول عارفاً أن الباقية منهن قليلاً في بيت السخام هذا مصيرها الاختناق. أحبهن أكثر من نفسه وجمع المهور واشترى قطعة الأرض المربعة المتاخمة لكنيسة مار الياس كي لا يقول الناس انه مات من دون ان يترك شيئاً للصبي. أراد لحنا فرصة العيش تحت الشمس، في المكان المشرع على الهواء الطلق وغناء العصافير وثرثرة البشر. لم يرد له أن يرث النار التي ورثها عن أبيه. لم يرد له الحبس اليومي الساخن تحت الحمام العمومي. أخذه الى تاجر في سوق العطارين كي يتعلم مهنة العطارة. عندما اكتشف أن المعلم يضربه بالخيزرانة وينقل على ظهره صناديق ويعامله معاملة البهيمة أخذه الى نجّار في سوق البوابجية. رائحة نشارة الخشب الشبيهة برائحة الصيصان طوّقت حنا سنة كاملة. تعلّم المصلحة على مضض وصمد عند النجّار حتى رحل الوالد. وجدوا الوقّاد راقداً بين أكوام الحطب والفحم الحجري. كان متصلباً ومغطى بغبار الفحم، ميتاً منذ ساعات، ولم يفتقده أحد لأنه لا يخرج. انتبهوا حين بردت المياه في برك الحمام العمومي وعلت جلبة المستحمين. دفنوه وبعد التعزية شدّ صاحب الدركاه على يد حنا: «لا تستعجل يا ابني، خذْ وقتك ودبرْ أمورك، لكن بعد العيد علينا أن نعطي البيت للوقّاد الجديد.» شاور حنا عقله

ولم يجلب حجراً أصفر من مقالع المصيطبة. استقرب واسترخص وفعل مثل آخرين من أبناء جيله: أغار تحت ستر الليل على أطلال السور العتيق الذي طوّق المدينة كاسوارة حتى قصفه الاسطول الانكليزي- النمسوي- العثماني في سنة الأربعين. نقل حجارة سوداء منقوشة الى وراء الكنيسة المغمورة برائحة زهر الياسمين وبنى بيته. قبل أن يتزوج ودّع معلمه النجّار موسى دندن واشترى الدجاج البيّاض ودبّر السلة. زار قبر أبيه مرة أخيرة في ذلك العيد وبينما يصيح في الأسواق صيحته الجديدة شعر بآخر أثر من يعقوب الوقّاد يتبدّد.

(قلعة بلغراد - 3)

لاحقاً تحسّن الوضع لأن الباشا أمر باخراجهم للعمل في البساتين، لكن في البدء قاسوا فظائع لا يتخيلها عاقل. كان الظلام عقاباً كاملاً متواصلاً وحتى عند الأكل لا يدخل ضوء الى القبو. ينشق الباب عن ظلام أخفّ وزناً ويُترك في الداخل سطلان خشب ثم يقرقع القفل من جديد. في وقت واحد فقط يتسرب شعاع من قنديل أو شمعة في طرف الدهليز لكن في هذا الوقت بالذات لا أحد يرغب أن ينظر وكثر يسدوّن أنوفهم ويجربون العودة الى النوم: عبدان ولدان ضئيلا الحجم يدخلان لتنظيف «الجورة». يزيحان الصندوق الخشب بالدائرة المثقوبة في مقعده ويستخدمان رفشين، الأول مسكته قصيرة والثاني أطول يغوص الى عمق مترين في الحفرة. ذات مرة، بينما ينقلان السطول المملوءة الى الخارج،

سمع حنا بكاء. رفع رأسه ورأى الأجسام الراقدة تغطي الأرض ولم يرَ وجهاً واحداً. الشعر أكل الوجوه. اشتبك شعر الرؤوس باللحى وغطى الظلام الملامح بالحبر. كانوا مكبوسين بعضهم الى بعض، والرؤوس تواجه الأقدام، وهو مكبوس بينهم، واذا اراد ان ينقلب في الليل تستغرق هذه الحركة وقتاً. لم يفهم من أين يتسلل الهواء الى هذا القبر. فكّوا قيودهم. ظلّوا شبه عاجزين عن الحركة. في الكابوس رأى أحدهم يركع على صدره ويخنقه لأنه مسيحي. استيقظ مرة على طرقات غريبة وقبل أن يدرك ان أحدهم يقرع الحائط بجمجمته سمع صرخات وأنيناً ثم ماجت الأجسام. ارتطموا بعضهم ببعض وهم يتسلقون الظلام ويحاولون الوصول الى نقطة محددة.

«اتركوني. أريد أن أموت. اتركوني!»

«هذا غانم أبو غنام. لا أقدر أن أسدّ رأسه.»

«امسكوه!»

قاتلهم بقوة ثور يُذبح لكنهم سيطروا عليه ولفّوا جرحه بمزق الثياب. رائحة الدم الساخنة ملأت القبو. لم يتوقف النزف. ظلّ أحدهم يكبس رأسه ويحاول.

«وحياة أمكم اتركوني وحدي.»

لم يتركه أحد. أصغوا الى أنينه حتى لفظ أنفاسه.

«الله يرحمه. دقوا على الباب.»

لم يأتِ الحارس حين قرعوا البوابة.

«والآن؟»

«الآن نسهر عليه.»

وهكذا صاروا يحكون عنه وعن غيره ويقارنون حكايات وتواريخ ويسمّون أهله وأولاده وأقاربه ويستذكرون خصاله الحميدة. كان الأقرب إليه صلةً دموية في القبو الشيخ عثمان أبو غنام: من العائلة الكبيرة نفسها لكنه يسكن قرية أخرى في القاطع المقابل، وقبل نزولهما في بلغراد لم يعرف أحدهما الآخر. حتى هنا لم يتبادلا كلاماً كثيراً. كان الميت راعي ماعز برّي الطباع قليل الحكي والمعاشرة كثير التنقل والشرود. غسلوا رأسه ورقبته ويديه وما استطاعوا من بدنه بقميص مبلولة. اصطفوا واقفين كأنهم في جنازة فوق الأرض وأدّوا الواجب. عزّوا قريبه عثمان وشدّوا على يده واحداً واحداً. كانت الحركة صعبة واستغرق العزاء زمناً لكنهم فعلوا ذلك بطيبة خاطر.

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان. أنت لا تراني الآن لكن أنا نجيب عبد الصمد من عماطور.»

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان. الله يرحم ابن عمك. أنا عماد الدين محمود من الباروك.»

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان. قتل النفس حرام والرحمة على قاتل نفسه لا تجوز، لكن الله يرحمه. الواحد منا لا يعرف في هذا المكان كيف لا يموت. الله يرحمه ويرحمنا جميعاً. أنا محمد بركات رضي الدين من بعقلين.»

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان. أنا خطار عبد الملك من بتاتر.»

وهكذا توالوا في الظلام وأحدهم يُسلّم يد الشيخ عثمان الى الآتي بعده حتى تبلّلت أصابعه عرقاً وبدأ معصمه يؤلمه من شدّة المصافحة. بعضهم، لكن هؤلاء قلة، رفع يداً حزينة وبدل

المصافحة عزّى هكذا ويده مرفوعة الى قلبه. كانت الإيماءات ضائعة في الظلام ومع هذا كرّروا الطقوس كاملة كأنهم في دار فسيحة عذبة الهواء تحت شمس الجبل وراء البحر.

(قلعة بلغراد - 4)

الظلام والقمل والجوع. كانوا ضائعين لا يعرفون الزمن، يرعى القمل شعرهم ولحاهم وأبدانهم وكلما قتلوا فوجاً يفقس من البيوض فوج جديد، لكن أصعب من العتم وعقص القمل كان الجوع. سطل خبز وسطل شوربة للقبو كله! سبعة لا يكفيهم هذا طعاماً وهم سبعون! عندما بدأ الإسهال يحصدهم أيقنوا أنهم في جهنم.

«لكننا لا نأكل شيئاً!»

حنا لم يعد قادراً على الوقوف. مع هذا زحف الى «الجورة» وانتظر دوره وهو يتلوى مثل عجل مريض. تدفق السائل الكثيف الحار من دبره كالشلال ولطخ الصندوق ومؤخرته وطرطش كاحليه. بكى فزعاً وهو يعود الى مكانه. جلس على جنبه بسبب الألم الذي لا يُحتمل ثم أسند ظهره. وضع خده على ذراعه وظل يهتز حتى أخذه النوم. في تلك الفترة الفظيعة اختفى قاسم ولم يعد يسمع صوته. لكنه بعد أيام سمعه يتكلم مع آخرين. كان حنا شبه نائم، شبه ميت، وأيقظته حماسة أصواتهم الغريبة وهم يحكون عن الأكل. كانوا أحياناً يصيحون.

«. . . أو صحن مجدرة مع سلطة بندورة وبصل.»

«أو طنجرة كشك بقورمة.»

«أو باذنجان محشي برز وكوسى محشي.»

«وقرع محشي. القرع أطيب من الكوسى والباذنجان.»

«ورق عنب قاطع، وحلاوة، ومربى لقطين.»

«أو رغيف مرقوق دوغري عن الصاج بلبنة سردالي.»

«كبّة بالصينية مع سلطة ملفوف.»

«أو شوربة جزر ولحمة.»

«يلعن الشوربة وساعة الشوربة.»

سمعهم حنا يعقوب. انقلب على بطنه. أنَّ كأنه يحتضر.

(جنّة على الدانوب)

بلا قصد أنقذتهم نازلي هانم من موت محقق. كانت عشيقة جودت باشا صاحب بلغراد وفي حاجة الى قاطفين للموسم والى شغيلة يحفرون أقنية ريّ ويصلحون حيطان جلولها المتهدمة. أصغى الباشا وهي تشكو اليه سرقته عبيدها.

«حاميها حراميها.»

«ليسوا لكِ. هؤلاء للدولة العليّة. اذا لم أوزعهم على الحدود وأسمّيهم عساكر تحترق بلغراد.»

«تريدني أن أنزل بهذا الثوب الحرير كي أقطف الخوخ والتفاح والعنب؟»

«لا يا نازلي، أنت مخصوصة لعمل رفيع، تعالي، أنا سأقطف لكِ خوخكِ وتفاحكِ وعنبكِ.»

أخرج جودت باشا المحابيس من الأقبية. حين أبصرهم يترنحون كالأشباح في ساحة القلعة البيضاء، عاجزين عن التراصف وأكفهم تحجب عيوناً أعمتها الشمس، امتعض ورفع اصبعاً متوعداً في وجه أمين سرّه الذي ينادونه شراوالي بيك.

«هذا غير مقبول أبداً. أنت تسرق خزينة الدولة يا شراوالي! الحبس ليس زريبة حيوانات. أنا لا أصدق ما أراه أمامي. قلْ لي أنني في منام.»

«أنا مدهوش مثل حضرتكم سعادة الباشا. أقطع يدي هذه قبل هذه لو كنت أعرف ما نراه الآن. الموتى اذا تراصفوا يبدون في صحة أفضل من هؤلاء المساكين. أطلب مهلة يومين من حضرتكم.»

بعد يومين تراصف المحابيس صفوفاً منتظمة بثياب مغسولة. كانت مداساتهم مرقعة الآن، ورؤوسهم كرؤوس الأطفال حليقة تماماً تبرق تحت ضوء الشمس. عيونهم أيضاً بدت هادئة: لم تعد زائغة جوعاً. انتزع المنظر هزّة رأس من جودت باشا.

«عظيم شراوالي ابني عظيم. قولوا لنازلي هانم ان تطعمهم وتسقيهم لكن بحدود. لا نريدهم أن يمرضوا. والذي يقطع حبله أو ينزل الى النهر يُقوص ويُقطع رأسه ويُجلب اليّ. امشوا من أمامي!»

خرجوا من قنطرة القلعة وساروا في صف طويل على درب حمراء كالكرز وهم لا يصدقون ما يرون. وجدوا البيوت شديدة البياض مرتبة كأقراص المعمول والأشجار خضراء مورقة شاهقة

العلو. في أسفل التلّة تهادى الدانوب عظيم المياه. بدوا مصدومين: هذه الجنّة؟ أطلّت نسوة من نوافذ. وقف تجار بثياب تركية وصربية ومجرية وبلغارية في مداخل الدكاكين يدخنون. الأولاد تجمدوا في الأبواب يحدقون بعيون زرقاء كسماء هذا الصباح الى طابور المحابيس. بانت امرأة مكشوفة الوجه من شرفة تتعلّق كمعجزة فوق الطريق: كانت أشجار الورد والليمون تحفّ ببيتها وحين لوّحت لهم بمنديلها الحرير تبادلوا نظرات حائرة: ما هذا المكان؟ حنا التفت برقبة عصفور ناظراً الى بائع جوّال يحمل أباريق فضة تشبه أباريق الجلاب والعرقسوس. عرج كالحجل مخففاً الثقل عن ركبته. حين اقترب أحد الحراس تحامل على ألمه وسار مثل الآخرين لئلا يردّه الى القبو. عربة ديليجانس تجرّها أربعة أحصنة أفسحت لهم الطريق وتوقفت. الركاب تأملوا طابور السجناء كأنهم يتأملون حيوانات نادرة مجلوبة للتو من الطرف الآخر للأرض. ظهر صبي من بين أشجار البتولا وفي يده حجر. لمعت الشمس على كتلة برونز ضخمة: أمير صربي الثوب على حصانه البرونز نظر اليهم بينما البلابل توسّخ سيفه المسلول. أحدهم شدّ الحبل وحنا اندفع الى أمام لئلا ينخلع معصمه. انعطفت الطريق وصارت الشمس في عيونهم. لو تابعوا المشي في هذا الاتجاه سنة أو نصف سنة بلغوا بيوتهم. تركوا درب العجلات أعلى التل وانحدروا في طريق قدم ضيقة. أشجار الخوخ والدراق أحاطت بهم من الجانبين ملوّنة بالثمر. روائح الطبيعة أسكرت أجسامهم المحطمة من الحبس الطويل. سمعوا غناء فلاحات خفيّات وتغريد طيور. أدهشهم إجاص كبير الحجم يتدلى حبة مشكوكة جنب الحبة والأغصان تنوء تحت الثقل. سمعوا خريراً ثم

رأوا ماء صافياً يتدفق من صخرة بيضاء. حين سمح لهم رئيس الحرس بالشرب ضحكوا. الهواء بارد هنا بسبب النبع. ارتعش حنا وهو يعبّ الماء ولا يشبع.

(جنّة على الدانوب - 2)

نازلي هانم رأت شراوالي بيك آتياً على حصانه في سحابة غبار. خرجت من البركة وراء شجرة التين تقطر ماء. تناولت الرداء القطن من عبدتها واستدارت ناظرة الى «بناتها» يتراشقن بالماء. لم تكن مالكة حقول وزوجة خامسة غير شرعية لجودت باشا وحسب. كانت أيضاً قوّادة معروفة على جهتي الدانوب. من سملين وراء الحدود يجيء زبائن اليها على المركب البخاري. تجار وأصحاب مزارع وموظفون في جمارك الامبراطورية النمسوية-الهنغارية. يقطعون ثلاثة أميال قصيرة من الماء كي ينعموا بالعسل الشرقي. يجلبون ضيوفاً نبلاء من بودابست وفيينا وسالزبورغ أحياناً. بنات صغيرات رومانيات وشركسيات وألبانيات وغجريات وسودانيات نزلن في مياه هذه البركة مع مرور الزمن. لم تتعلم لغاتهن لكنها علّمتهن بعض الفنون.

استقبلت شراوالي في الحديقة حيث تتناول الفطور وحدها كل صباح. شرب قهوة معها. مدّ يده حين أصرّت وذاق كعكاً محلى بدبس عنب. لكنه ظلّ قاعداً على حافة الكرسي.

«محابيس الباشا على الطريق.»

كانت تمسح زبدة بسكين فضة على قطعة خبز. توقفت لحظة

ثم استدارت وأمرت خادمتها أن تنادي «الوكيل». حضر رجل شديد السمرة قصير القامة بنّي العينين. ألقى التحية تاركاً مسافة بينه وبين المائدة. مسح وجهه العرقان وضرب نعل جزمته بالأرض كي ينظف من الوحل. هزّت نازلي هانم رأسها فقام شراوالي واقفاً.

«وقلْ للباشا ان يسمح لك بزيارتنا حين تمرض زوجتك. البيت بيتك.»

شعر أنه يتنفس من جديد وهو يضع عريشة العنب والهانم البيضاء وراء ظهره. الوكيل مشى الى جانبه مطأطئ الرأس. كان كبير الأذنين الى حد أن شراوالي بيك شرد وهو يعطيه التعليمات بخصوص طريقة التصرف مع المحابيس وصار يحدق الى داخل أذن عميقة ككهف.

«لكن سعادتكم كيف يمكن ان يقطفوا وأيديهم مربوطة؟»

«لا، سنربطهم بطريقة أخرى. أنت انتبهْ لعمالك، قلْ لهم ألا يختلطوا بالسجناء وإلا . . . القمل!»

من تحت الأشجار الكثيفة أطلّ الطابور فجأة خارجاً الى الضوء. بلا همسة واحدة تنذر أنهم وصلوا! أحنوا ظهورهم لئلا يطرقوا الأغصان المتدلية وعندما استقاموا وتجمدوا تحت حراسة البواريد هجم على الوكيل الحزن.

«المظاهر تخدع. أنت يهودي، صحيح؟ هؤلاء دروز من لبنان، الجبل المذكور في التوراة. لكنهم أسود كاسرة. الآن تراهم مربوطين مذلولين كالغنم لكن اقطعْ هذا الحبل واعطهم خردقاً وبلطات وأوقف جيشاً أمامهم وانظرْ! هل تعرف ماذا فعلوا بجيرانهم المسيحيين في بلدهم؟ وهؤلاء جيرانهم وأكلوا معهم!»

«أنتم على حق سعادتكم. الآن يبدون مثل الأولاد لكن أطول.»

«الأولاد!»

زفر شراوالي بيك وأمرّ رئيس الحرس بربط السجناء من الخصر فقط، كل مجموعة صغيرة بحبل واحد، وطرف الحبل يُربط الى شجرة ويحرسه جنديان أو ثلاثة. كان حصانه قد جُلب له. تلكأ لحظة وهو يراقب الدروز يحدقون الى الحصان بعيون واسعة ثم قفز. كان رشيقاً رغم أعوامه واعتدل على السرج ونظر الى الوكيل تحته.

«الأذان من جامع القلعة، تسمعونه هنا؟ جيد، عندما تسمع أذان الغروب ترسلهم، لا يهمني ماذا تفعل بعمالك بعد غياب الشمس لكن هؤلاء ترسلهم اليّ.»

«والأكل. معهم زوادة؟»

ضحك شراوالي بيك وهو يهمز حصانه: «لكل واحد تفاحة.»

(هيلانة - 3)

جارتها أم سمعان أرسلت أولادها الثلاثة للبحث عنه. سألوا هيلانة أين يبيع البيض هذه الأيام وأخبرتهم. برموا الأسواق ما بين الفشخة والبحر. كانت الطرقات غارقة في الليل والدكاكين موصدة. نزلوا الى المرفأ وسألوا عنه. تأخروا في الخارج وأبو سمعان انشغل باله وانتعل مداسه هو أيضاً وخرج يبحث عنهم.

التقى بهم غير بعيد من جامع الدباغة يتكلمون مع ندّاف قطن تأخر في إقفال دكانه.

«أعرفه، أعرفه ومرات أشتري منه، حنا. لكنه لم يمرّ من هنا اليوم. أمس عند العصر رأيته، كان هناك يتكلم مع منصور الذي يبيع القهوة.»

نظروا الى البقعة الفارغة حيث يقف بائع القهوة عادة في النهار.

«تعرف أين بيته؟»

«بائع البيض؟»

«لا، منصور هذا، بائع القهوة.»

دلّهم. شكروه وأسرعوا باتجاه جامع النوفرة. نادى عليهم. «انتظروا. أنا أذهب معكم.» أقفل دكانه وهرع خفيف الخطى مع أنه يميل الى البدانة. طرقوا باب منصور مراد. كان الحيّ ساكناً مظلماً وبدت الطرقات على الخشب مؤذية، كأن شيئاً سيئاً يحدث في هذه الساعة في مكان لا تراه عيونهم لكنه موجود.

(عالم الحدود)

منذ يومهم الأول في البساتين بدأ يحيّرهم لغز العالم الحدودي الغريب الذي يسمّى بلغراد. الصباح حمل على النسيم الغربي قرع أجراس الكنائس. لم يسمعوا الأجراس تدوي هكذا في حياتهم كلها. حتى حنا، وبيته على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك في

بيروت ولا يبعد إلا دقيقة عن كنيسة مار جرجس الأرثوذكس، تجمدت يده على عنقود العنب وفتح فمه. تدفق الصوت من أعلى كأنه يخرج مَن كوى القلعة البيضاء التي تتوّج التلّ. هذا مستحيل ويعرفون ذلك لأنهم سكان القبو تحت القلعة. لاحقاً اكتشفوا أن الهدير يجيء من الجانب الآخر للتل، من السفح الغربي لبلغراد. رئيس الحرس راقبهم بعين صقر. مثل الوكيل الذي يسموّنه صامويل البلغاري، استغرب رئيس الحرس إقبال المحابيس على الشغل. قطفوا الكرم كأنه كرم أبيهم ولم يكسروا الفروع ولم يرموا العناقيد رمياً في السلال. خيّم الصمت على الكرم بينما يقطفون كأن المكان خالٍ من البشر. طيور السماني التي بكّرت هذه السنة أوشكت أن ترتطم برؤوسهم في عبورها. اختفت وراء أشجار بلوط تتباعد على جزر صغيرة وسط الدانوب. خلّفت في الفضاء رائحة الخريف. حين بلغوا حافة الحقل عند الظهيرة اكتشف رئيس الحرس أمراً أغرب: هؤلاء الدروز يتجنبون النظر الى القاطفات الموزعات في الكروم المجاورة! اذا دنت من مكانهم هنغارية أو صربية حمراء الثوب عارية الذراعين حدّقوا الى التراب وتركوا رؤوس أصابعهم تقطف وحدها كما يفعل العميان! وقف ومشى الى نقطة تجمع فيها الجنود يتكلمون مع نساء ضاحكات يأكلن عنباً أكثر مما يلقين في السلال. نهرهم بقسوة وبعثرهم كالماعز الى مواقعهم ثم وقف وحيداً يسأل إحدى النساء عن أغنيتها. كلّمها بالتركية والصربية ومن العبارات الأولى عرفت من أين يأتي. بدت حذرة وهي تبتسم وتقول انها لم تكن تغني. ضحك متلمساً حزام البارودة ونقله على كتفه. باعد ما بين قدميه كي يرتاح في وقفته أكثر. من جيب داخلي أخرج مسبحة بيضاء الحبّات.

«بلى كنتِ تغنين، أنتِ ورفيقاتك هناك. هل أنا أطرش كي لا أسمع؟ وصوتك حلو أيضاً. لماذا لم تهربي مني مثلهن؟»

«لماذا نهرب؟ هنّ يقطفن في تلك الجهة الآن بسبب الظل.»

ضحك مرة أخرى: «الظل!» وبدا شديد السرور. ابتسمت ورأى أسنانها جميلة، متراصفة، مع فراغ طفيف بين السنين الأماميين.

«صوتك رقيق كثيراً ولا بد أنك تسعدين أهلك. لكن هذه الأغنيات يا حلوتي لا تغنى في هذه الحقول. هذا ليس نهر السافا، هذا الدانوب: التيار هنا أقوى. انظري هناك!»

بقرة ميتة منفوخة بالغازات بانت طافية على الماء والنهر يسحبها ويأخذها معه. علقت بين جزيرتين لكن الدانوب زحزحها وقلبها وجرّها من جديد. سدّت أنفها وهي تراقب البقرة معه وتشعر بخفقة في رأس معدتها. كان طويل القامة، وسيم الملامح. لكن ما أبقاها هنا لم يكن الا صوته. أيقنت أنه هو أيضاً يغني وانتظرته كي يتكلم عن جمال صوتها من جديد. لم تخف منه.

«تحبين الرقص ايضاً؟»

«تأخرت واذا بقيت أتكلم معك تزعل مني الباقيات.»

استدار ورفع صوته موجهاً الأوامر بالتركية الى جنود منتصبين في أحد الجلول كالفزاعات بلا حركة. أنّبهم بلا سبب وظلّ صوته جميلاً. استدار وبدا ناعساً يوشك على النوم كأنه غيّر وجهه وهو يستدير. غنّى لها هامساً بالصربية الأغنية التي سمعها تغنيها حين هبّ الهواء قبل قليل.

«هنا تشرق مملكة الصرب/ هنا يسكن الحجل البرّي/ على حيطان بلغراد غربت الى غير رجعة المملكة العثمانية/ هنا تشرق

مملكة الصرب/ هنا تميل زهور الليلك/ بسيفه المستقيم كسر أميرنا جورج الشجاع سيوفهم الهلالية.»

«كيف تعرفها؟ أين سمعتها؟»

ضحك ناظراً الى وجهها يتلون بالأحمر.

(عالم الحدود - 2)

الوكيل صامويل راقب مجموعة محابيس تقطف العنب في بقعة لم تُنظف من الأشواك كما يجب.

تجرّحت أيديهم. فركوا تراباً على جروحهم وتابعوا العمل. أحدهم تلفت حواليه ينظر باحثاً عند حائط الجلّ عن شيء ما والجنود اقتربوا وهم يهزون البواريد. انتبه لهم وعاد الى قطف العنب مقفل الوجه ساكتاً كحجر. الوكيل صامويل البلغاري غاب قليلاً ثم عاد وفي يده فرع طيون أخضر. ناوله للدرزي بلا صوت. هزّ الرجل الأربعيني المجعد الجبهة رأسه هزّة طفيفة لا تكاد تُلحظ. قطف من الفرع ورقة سميكة وفركها على الأصبع المجروح. بعد أمتار قليلة وجدوا حائط الجل متداعياً ولا يتحمل ثقلهم اذا اصطفوا معاً. لم يسمعهم حتى يتبادلون الحكي: تحركوا حركة شخص واحد وعمّروا قسماً من الحائط الدكّ برمشة عين. لم يوقفهم الا هجمة الجنود الذين خافوا حين رأوهم يحملون حجارة.

نازلي هانم استمعت اليه بينما المساء يأتي ويغلف الوادي

بضباب خفيف أصفر. لم تسمعه من قبل يتكلم بحماس عن عمال أجراء. قال ان المحابيس أنجزوا في يوم واحد عمل يومين أو ثلاثة. «متعة النظر اليهم.» ولم يرَ واحداً منهم يأكل بالسرقة، ولو حبّة تين. «مع أنها ليست تماماً سرقة كونهم يقطفون.» ابتسمت. مرّر اصبعه على حاجبه وسكت شاعراً أنه أكثر الحكي.

«يخافون من الجنود.»

لم يعرف هل تداعبه بالكلام.

«أو لعل الباشا يتخمهم بالطعام.»

قال صامويل انه لم يعرف مقدار جوعهم الا وقت الأكل.

«ماذا أطعمناهم؟»

قال صامويل انه أرسل شاول الى السوق كي يشتري خبزاً وان شاول تأخر وحين وصل وجلسوا للاستراحة الاولى والاخيرة في النهار عند شجرات الزان كانوا مبلولين بالعرق كأنهم غطسوا في النهر. اغتسلوا في الأحواض التي تشرب منها الماشية لأن رئيس الحرس عنده أوامر مشددة بمنعهم من النزول الى ضفة الدانوب خوفاً من ان يهربوا.

«الى أين؟ الى اسطنبول؟»

أضيئت القناديل. انعكس شعاع أصفر تحت الحاجبين الأبيضين الكثيفين: العينان الصغيرتان تنعسان باكراً بعد نهار من العمل طويل.

«كانوا جائعين اذاً؟»

«كسروا الخبز وأكلوه مع البصل والتفاح والعنب الذي وزعناه عليهم. أطعمنا الجنود أيضاً: رئيسهم أحمد البوسني تحلى بعد الطعام بنصف سلة تين.»

ضحكت ورأى انها على عكس ما اعتقد مستمتعة بالحديث.

«أكلوا في لحظة وهم ينظرون الى النهر. الجنود لفوا تبغاً ودخنوا. الدروز استلقوا على جنبهم على الأرض، حيث ربطوهم، وناموا عشر دقائق ثم قاموا الى القطاف من جديد. فلاحون حقيقيون.»

«تريدني أن أشتريهم من الباشا؟»

ضحكت نازلي هانم ولعبت بالحلقة الذهب في أذنها. ارتباكه دائماً يسلّيها. تكلّم ناظراً الى الطاولة.

«كنت أراقبهم طوال النهار ولم أقدر أن أتخيلهم يقتلون ويحرقون.»

«قد أخرج غداً الى البساتين وأنظر. يمكنك الذهاب. وقلْ لشاول اذا تأخر مرة أخرى في السوق حسابه عندي.»

(عالم الحدود - 3)

تعب حنا في الطريق الصاعدة. تعثر بقدميه ووقع على وجهه. ليس فلاحاً وجسمه المفكك لم يتحمل تعب النهار الطويل. تلكأ في نهوضه. الجو أحمر اللون والعصافير ترجع الى أوكارها. بطرف عينه أبصر ديك ماء يختفي منحدراً باتجاه القصب على حافة النهر. الإعياء تنقّل في أنحاء جسمه مثل قطيع ثقيل من النمل. بياض الريش الثلجي لديك الماء سبح أمامه بينما يقوم والحبل يشدّه. رأى حارساً يقطع قضيب رمان من شجرة ويعرّيه بالسكين

ثم يسوط الهواء. أزّ الفضاء وراء رأسه. حين خرجوا من تحت عتمة الأغصان انكشفت السماء البرتقالية فجأة واقتحمت عينيه كانفجار البارود. على الطريق الحمراء أعلى التل دمعت عيناه بسبب الغبار. أثناء النهار، وهو يحمل سلتي عنب ويتبع رائحة الخبز حتى شجرات الزان الظليلة، تذكر لحظة من حياة قديمة وأضاع مكانه في الزمن ولم يعد متأكداً أين هو ولا ماذا يفعل. جذبه الحبل من جديد وانعطف الطابور وهذه المرة أوشك على البكاء بسبب جمال الغيوم البيضاء- البرتقالية. سار كالنائم وحين وقع جفناه على عينيه من الإرهاق ترك الحبل يدلّ قدميه. ودّ لو يُترك هنا كي ينام يوماً أو يومين جنب الطريق على العشب الأصفر- البنّي تحت السماء الشاسعة. سمع موسيقى وهتافات أولاد ونساء. فتح عينيه لحظة ورأى مرجاً يتماوج بحشرات المساء المشعة وغابة تتعلق من أشجارها مصابيح صفراء وناراً يتحلق حولها الغجر ومجموعة غزلان مبقعة تطير في قفزات طويلة وتختفي. عبروا أمام دكاكين حجرية مقفلة وأخرى ينقل أصحابها البضاعة من أمامها الى داخلها وهم يتلفتون ويراقبون الطابور النعسان. حين بلغوا قنطرة القلعة أصغى الى إحصاء الأسماء نصف نائم.

«عبد الخالق الدويك؟»

«حاضر.»

«سلوم معضاد؟»

«حاضر.»

أصوات قريبة وأخرى بعيدة وهو يميل ويوشك على السقوط. بدا له أن إحصاء الأسماء لن ينتهي أبداً.

«سليمانَ غفار عز الدين؟»

طال السكوت.

«سليمان غفار عز الدين؟»

لكزته يد في كليته كي يستفيق.

«حاضر.»

انتبه أن صوته أيضاً يبدو بعيداً. كأنه يخرج من فم سجين آخر في مكان آخر. حين دخلوا القبو انطرح في ظلمة زاويته. غاص في الأرض ونام كالحطبة على بطنه حتى الصباح.

(عالم الحدود - 4)

«ممتاز يا نازلي. أنا مسرور أنك راضية عليهم الى هذه الدرجة. يجب الآن أن تعطي ضعف ما اتفقنا عليه.»

سكبت نبيذاً من جرّة في كأسين. سقطت قطرات قانية على المخدة البيضاء.

«أنا دائماً أعطيكم الضعف.»

مالت عليه مفتوحة الفم وتأملت تجاعيد وجهه. انتظرت حتى وضع الكأس. ابتسم وسألها هل صحيح ما سمعه عن وكيلها اليهودي البخيل؟

ضحكت وقالت انه أطعمهم قبل يومين عدساً مطبوخاً وبعد ذلك سقاهم قهوة وانه أراد ان يوزع عليهم تبغاً لكنهم اخبروه أنهم لا يدخنون.

«هذا صحيح. قوم عجيب. سأل شراوالي واحداً منهم لماذا لا يتزوجون الا امرأة واحدة ما داموا يقولون دوماً انهم مسلمون؟ ردّ عليه ان كتاب الله أوصى ان نعدل بين زوجاتنا ونحن نخاف ألا نعدل بينهن ولهذا لا نتزوج امرأتين.»

«شراوالي سأل؟»

«أعرف، أعرف، لكن شراوالي عنده لحظاته. وسأله هل صحيح ما سمعه أنهم مثل أهل الهند يعتقدون أن الواحد لا يموت حين يموت ولكن روحه تترك جسمه الى جسم طفل يولد في تلك اللحظة؟ أجابه ان هذا يسمى في لغتهم التقمص ومعناه ان الروح تبدل الجسم كما نبدل نحن القميص. وشراوالي، اسمعي هذا، شراوالي أجابه ان هذا هو سبب زواجهم من امرأة واحدة لأن الواحد منهم عاش مئة حياة على الأقل من قبل وفي كل حياة يأخذ واحدة فيكون المجموع مئة زوجة وهذا أكثر من اربع نساء بكثير.»

«صامويل وكيلي يقول انهم نادراً ما يتكلمون. وقت الطعام يأكلون ساكتين وهم يتأملون النهر

وعندما يسمعون الأذان ساعة الغروب يتغير لون وجوههم الى أسود.»

«تريدين أن أتركهم هنا في الليل يا نازلي هانم؟ هل أنا الذي حبستهم؟ سأخبرك شيئاً لا يعرفه كثر: هؤلاء الدروز أتوا وحدهم الى الحبس. نحن لم نقبض عليهم. عندما ذهب الوزير فؤاد باشا على رأس جيش عثماني الى بيروت صعد وحده مع حراسه الى جبل لبنان واجتمع بزعيمهم سعيد بيك جنبلاط في داره وقال له: على الدروز الذين قاتلوا في هذه الحرب أن يسلموا سلاحهم ويقدموا أنفسهم للمحكمة التي ألّفناها مع دول أوروبا. سعيد بيك أجابه ان

رجاله جميعاً أخلوا الجبل ونزحوا ليلاً عبر المضائق الى حوران على حدود الصحراء وأنهم يجمعون الآن البغال والحمير للعودة الى بيوتهم وأخذ زوجاتهم واولادهم ومتاعهم لانهم لا يريدون حرباً مع مولاهم السلطان ولأنهم يخشون غدر الجيش الفرنساوي. الوزير فؤاد باشا قال له أرسل لهم أن يحضروا اليّ الآن وعائلاتهم تبقى هنا في الحفظ والصون وأنا أحميها. وهذا ما جرى. من ثلاثة ألاف نزحوا الى حوران رجع ألف رجل وسلموا سلاحهم لفؤاد باشا. المحكمة فرضت على الدروز دفع تعويضات للمسيحيين وحكمت بالنفي على 670 درزياً. هم سلّموا سلاحهم. لماذا فعلوا ذلك؟ فلاحون حقيقيون، يقول وكيلك الملعون. جنود مرضوا من سفك الدماء، أقول أنا. بلا هذه السيرة يا نازلي. قلتِ عندكِ بنت جديدة، أين هي؟»

(هيلانة - 4)

أطلّ منصور مراد بشعرٍ منكوش ووجهٍ بقّعه النوم حاملاً شمعة تتمايل شعلتها: «خير يا جماعة؟». ألقى أبو سمعان تحية متلعثمة وسأله هل يعرف حنا يعقوب الذي يبيع بيضاً؟ نقل منصور مراد نظرته بين الوجوه الواقفة على بابه في هذا الليل وتعرّف على وجه موسى الندّاف. لكن الحيرة لم تتركه: من هؤلاء؟ ماذا يريدون؟ هل مات حنا وأتوا ينعونه؟ لكن ماذا جلب الندّاف معهم؟

«حنا جارنا، بيته حد بيتنا ولم يرجع اليوم. زوجته بالها مشغول عليه.»

«لم أرَه اليوم.»

وقفوا بلا حراك ومنصور مراد تذكر فجأة بينما الشمعة تقطر وتحرق يده: «بلى، رأيته على وجه الفجر، صبّح عليّ وصبّحت عليه، كان نازلاً صوب الخان الجديد، لكن لم أرَه في النهار.»

«كان وحده؟»

«وحده.»

«ولم يقل لك أي شيء؟»

«كان مستعجلاً وذاهباً كالعادة الى الميناء كي يبيع البيض.»

من الباب الموارب تسربت رائحة حبوب بنّ محمصة لم تُطحن بعد.

(عالم الحدود - 5)

«كيف صارت ركبتك؟»

«أحسن بكثير.»

«لكنك ما زلت تعرج عليها!»

«لا. فقط آخر النهار. تنخز من المشي.»

للمرة الأولى منذ بدأوا العمل في البساتين وجد حنا نفسه مربوطاً بحبل واحد مع قاسم. لم يكن يعرف الستة الآخرين في المجموعة لكن قبل أن ينتهوا من قطف شجرة التفاح كان حنا قد حفظ أسماءهم. تحت شجرة أخرى دلّه قاسم الى أخيه بشير ثم الى أخيه نعمان. لم يعرف شكل الأكبر بينهم حتى جلسوا للراحة والأكل: «عند الحافة هناك، جنب القصب، محمود.»

«المقطوع الأصابع؟»

«لا تقل هذا!»

سكت حنا وقضم قطعة الخبز. قبل أيام كان مربوطاً اليه بحبل ولم يعرف أنه أحد أخوته: يده اليسرى ناقصة الأصابع. انتبه لأنهما كانا يلقيان الثمر في السل ذاته.

«في الحرب؟»

«لا، ونحن صغار، علقت يده تحت حجر الطاحونة.»

(عالم الحدود - 6)

استمر خروج المحابيس اليومي الى البساتين حتى اقترح شراوالي بيك الإستفادة منهم هنا، في ترميم الأسوار المتداعية على جهة نهر السافا. جودت باشا سحب نفساً مديداً من أرجيلته ثم نفخ كالتنين غيمة رمادية- صفراء غطّت أبراج الكنائس المتكاثرة فوق بيوت سملين وراء النهر. من شرفة القلعة البيضاء بانت القوارب صغيرة في الأسفل وهي تعبر من نهر السافا الى مصبّه في نهر الدانوب فتزيد سرعتها بغتة وتندفع متأرجحة كأن يداً عملاقة غير مرئية لطمتها للتو.

«أنت تقرأ أفكاري يا شراوالي إبني!»

عند ملتقى النهرين، حيث يرتفع تل بلغراد كبيت سلحفاة بحرية تتوّجه القلعة البيضاء، يلتف ضباب خردلي صامت أول المساء ويغمر السفح الغربي حيث يسكن الصرب في بيوت عمّروها

او إبتاعوها بثمن التراب من بوسنيين وأتراك ومقدونيين نزحوا أثناء السنوات الأخيرة الى السفح الشرقي للمدينة أو الى أماكن أبعد داخل السلطنة.

«نرمم هذه الأسوار أو نحمل بلغراد على مراكب الدانوب من هنا الى البحر الأسود. . . الى أسطنبول.»

«لا سمح الله سعادتكم، لا سمح الله!»

«من يعلم يا شراوالي، من يعلم، أنا أعرف زواريب سملين كما أعرف الخطوط في كفي هذه، أحفظ بيوتها بيتاً بيتاً، أبي الله يرحمه بنى محراب جامعها بيديه، أنا ساعدته في نشر ألواح الخشب، والآن انظرْ إلينا، نرميها بالحجارة لكن لا نقدر أن ندعس فيها بلا ورقة إذن من الجمرك النمساوي!»

طارت عصافير الدوري مسقسقة فوق الشرفة وعبرت المياه وتلاشت في سماء سملين.

(القبو)

استيقظوا في الوقت المعتاد وانتظروا. لكن القفل لم يقرقع والباب لم يتحرك.

«لعلها تمطر!»

أصاخوا السمع لعلهم يسمعون وشيش المطر مع أن هذا مستحيل وهم يعرفون ذلك: القبو عميق جداً. أحدهم - هذا محمد حسن أبو مطر صاحب سهل السمقانية - أحصى في اليوم الأول لخروجهم الى البساتين عدد الدرجات من فم الدهليز الى

باحة القلعة وأخبرهم أنها 64 درجة. في اليوم الثاني أحصاها مرة اخرى كي يتأكد ووجد أنها 68 درجة.

«زادت أربع درجات في ليلة واحدة؟»

في الظلام الكامل سمعوا نبضات الدم في رقابهم وظلوا ينتظرون قدوم الحارس الكلسي الرائحة حتى فقدوا الأمل.

«الشمس تغرب الآن.»

عرفوا الوقت من قرقرة معدهم الفارغة. لم يجلبوا لهم طعاماً اليوم. بدأ أحدهم يقرع رأسه على الحائط وقبل أن يُنهر توقف وحده.

«الخطأ منا. لو اشتغلنا أبطأ كان القطاف استغرق وقتاً أطول.»

«الجلول التحتانية على النهر كلها ما زالت غير مقطوفة.»

« عندك سبعة جلول غير الجلول في الجهة الثانية، والجلول وراء القصبات أطول، كل جل فيه على الأقل 42 شجرة.»

ضحكوا في الظلام لأنهم عرفوا أن هذا محمد حسن أبو مطر. عادة متأصلة فيه: يحصي كل شيء. حين يعبر سرب البجع أول الخريف في سماء الجبل تناديه زوجته ضاحكة كي يعدّ البجعات. قيل عنه في بلاد الشوف انه يحصي حبّات الفاصوليا في صحن الطبيخ ثم يأكل.

«رأيت في المنام أنني رجعت الى البيت في الليل. قبل أن أصل الى العتبة رأيت المرحوم والدي في الداخل. عرفته من بياض ذقنه. كان وحده. وضوء أصفر خفيف يتحرك على الأرض. قدام بيتنا شجرة توت، وقفت وراء الشجرة.»

أصغى حنا يعقوب الى الصوت ولم يعرف من يكون صاحبه. لم يتمكن من ربطه بوجه محدد. استعرض في خياله الوجوه التي حفظ قسماً منها بين الكروم وتحت الشجر وحاول أن يضع الكلام في احد الأفواه الكثيرة. وجد ذلك صعباً. نادراً ما يتكلمون معه. يسمع النهر وهو يقطف الخوخ لكنه لا يسمعهم. بدا الرجل مبحوحاً كأن سعالاً مزمناً أذى حباله الصوتية. لكنهم جميعاً يسعلون في هذا القبو وحنا يبصق دماً في أحيان كثيرة. الصوت منخفض لكن القبو ساكن كقبر، وحنا عرف أن الجميع مثله: يصغون كي يعرفوا ماذا حدث.

«كنت أخفي نفسي وراء الشجرة ولا أعرف هل أتقدم وأطرق الباب أم أدخل هكذا من دون أن أقرع. بقيت متردداً. في هذا الوقت تحرك ضوء القنديل ورأيت أبي واقفاً في لباس النوم يخرج الى الباب وينظر الى العتمة: «من هناك في الخارج؟» سمعته يسأل ولم أرد عليه. كان وجهه صوبي يمسح البرّية بنظرته. انحنيت حتى صرت على التراب كي لا يراني. «من هناك؟» رأيته يرفع ذقنه ويميل بخده كما يفعل الأعمى ولم أفتح فمي.»

حنا سمع الأنفاس شبه محبوسة. انتظر لكن أحداً لم يسأل الرجل ماذا حدث بعد ذلك. فتح فمه لكنه عجز عن الحكي. في الظلام الدامس حدس أن غيره ايضاً يفتح فمه الآن ويعجز عن الحكي. اذا كانت الشمس تغرب فهذا يعني أنه أول المساء وهيلانة تركض وراء الدجاجات كي تبيّتها في القن.

(القبو - 2)

ناموا جائعين. ظلّ يسمع الأصوات في الليل وعندما شعر بحركة فوق رأسه فتح عينيه.

«أنت نائم؟»

«لا.»

«النوم صعب.»

« تظن أنهم يخرجوننا غداً؟»

قاسم لم يرد.

«تظن يجلبون لنا الأكل غداً؟»

طقطق قاسم مفاصل أصابعه. من الجهة البعيدة سمعوا شخيراً. انطفأت الأصوات وهجع القبو لكن قاسم بقي جالساً. عرف من أنفاسه أنه يفكر في أشخاص ليسوا هنا. ظلّ ساكتاً حتى حرّك قاسم ساقه. الأطراف تخدر وتنام وحدها.

«أنتم خمسة أخوة؟»

«صرنا خمسة، كنّا سبعة.»

«وعائلتك كبيرة؟»

«صبي وبنت.»

«وأخوتك كلهم عندهم أولاد؟»

قاسم لم يرد. حنا لم يعرف هل سمع سؤاله. كانا يهمسان في الظلام المخنوق الرطب وحنا شعر بحزن فظيع يكبسه نزولاً. أوشك أن يبكي وهو قاعد جنب الجثة الكبيرة للدرزي الذي يُدعى قاسم.

استمرت الأنفاس تُسمع في هدأة القبو ثم تحرك قاسم من جديد وابتعد في الظلام.

*

سمعوا القفل وقاموا واقفين. لكن الحارس سدّ الطريق بالسطلين القديمين وخرج. جلسوا بلا صوت. نزعوا مداساتهم. لم يمد أحد يده الى الأكل الا بعد زمن. عندما امتلأت «الجورة» ولم يأتِ الولدان العبدان لإفراغها حاولوا أن يتكلموا مع الحرس. لكن الحرس هنا بلا آذان. والحكي بالإشارة مستحيل في الظلام. باتت الرائحة قاتلة ثم شعروا بالأرض تترطب. الحارس عرف وحده وجلب مع سطلي الأكل سطلين آخرين أكبر حجماً. رمى على الأرض شيئاً معدنياً واختفى: في الظلام الخانق حدقوا الى النقطة حيث استقر الرفش.

«ربنا يحرقهم بنار جهنم ويبدل جلودهم مرة أخرى ويحرقهم من جديد.»

«هذا الرفش قصير!»

«من يبدأ؟»

حنا يعقوب تراجع في الظلمة وجرب أن يدخل في شقوق الحائط.

«من يبدأ؟»

«أنت الذي سألت يا شيخ حمزة!»

ضحك الرجل الذي قالوا انه الشيخ حمزة.

«صحيح، أنا سألت ولهذا أنا في نهاية الدور.»

«الأصغر في السن أولاً.»

«اذبحوني ولا ألمس الرفش!»

«من هذا؟»
«أنا حمد السعدي من بتلون.»
«أنت إبن الشيخ السعدي؟»
حنا أدرك من سكوتهم أنهم يتكلمون عن شيخ مشهور في بلادهم.
«كم عمرك يا حمد؟»
«15 سنة يا شيخ مهران.»
«أنت لن تلمس الرفش يا ابني. حفيدي أكبر منك. أنا أُنظف عنك عندما يصل الدور اليك.»
«لا يا شيخ مهران. أنا لا أقبل.»
«ماذا نفعل اذاً يا إبني حين يصل الدور إليك؟»
«هاتوا الرفش!»

(هيلانة - 5)

أطلّت أم سمعان من النافذة عند الفجر وعرفت أنه لم يرجع أثناء الليل: رأت هيلانة واقفة في الباب المفضي الى السوق وجسمها يميل في العتمة الخفيفة الى أمام ثم يرجع الى خلف. لبست وخرجت. وجدت هيلانة حافية القدمين تكاد لا تبصر من شدّة احتقان عينيها. خافت أن ينقطع حليب صدرها. جرّتها من يدها وأقعدتها على العتبة. شعرت بالطفلة النائمة. هيلانة تناولت من جارتها ابريق الماء لكنها لم ترفعه ولم تشرب. كان الضوء يطلع. أم سمعان نهضت وجلبت فردة نعل من أمام القن ووقفت

حائرة تبحث بنظرتها عن الفردة الأخرى. مرّت الثواني طويلة كساعات وفي النهاية قامت هيلانة ودخلت البيت.

«تعالي معي!»

وقفت هيلانة بين الحيطان المظلمة تضم الطفلة النائمة الى صدرها. ساعدتها جارتها ومسحت وجهها وأجبرتها أن تجرع شربة ماء. «تعالي!» سحبتها من يدها حتى باب الخوري على الحائط الآخر للكنيسة. قرعت وانتظرت.

«بسم الآب والإبن والروح القدس من يدق الباب في هذه الساعة؟»

«أنا جارتك أم سمعان مخول ومعي جارتك أم بربارة.»

«الباب مفتوح.»

دفعت ام سمعان الباب. اهتز وأفلت من إطاره وانفتح عن رجل يقوم من فراشه وهو يرسم اشارة الصليب. بدا أبونا بطرس طاعناً في السن وهي تراه للمرة الأولى بلا الجبّة الكهنوتية. في الوقت نفسه بدا يافعاً جداً، مضطرب الحركة، لا يعرف كيف يتصرف وماذا يسأل الآن.

«حنا زوج هيلانة لم يرجع أمس الى البيت. ولا نعرف أين هو. أبو سمعان والأولاد فتشوا عليه الأسواق في الليل. آخر واحد رآه بائع القهوة منصور مراد. رآه نازلاً صوب المينا ومعه البيض ولم يره يرجع.»

«لعله رجع من طريق أخرى.»

«ألم تسمع يا بونا ماذا قلت لك؟ حنا حتى الآن لم يرجع الى البيت!»

*

أبونا بطرس ساعدها. لبس الجبّة وربط الزنار. بلّ منديله بقطرة ماء لأنه حدس من جفاف أنفه أن الصباح سيكون مغبراً. التقط الشمسية البيضاء التي أهداه إياها الخواجة اسكندر سرسق وخرج ودار في المدينة مع المرأة المسكينة المحمرة العينين. هيلانة لم تنتبه الى الرداء الكهنوتي يتبقع بالعرق لأن العتمة غزت عينيها. قال الخوري «اصبري الآن نجده»، وسار أمامها الى «الزندان».

لم تفزع من الجنود المصفوفين أمام القشلاق لأنها لم ترَهم. حتى الأصوات لم تسمعها. عبروا وسط جماعة من الرجال الصغار وأحدهم استدار وتأملها. أرسل خلفها صفارة ولفظ كلمات وقعت كالجمر في أذني الخوري. «الربّ يرحم الخطاة وينقذنا من مصير سدوم وعمورة.» سمعت كلام الخوري لكنها لم تفهم. «لماذا تركته يخرج؟» هذا السؤال يدور كالطاحونة في رأسها. طوال الليل لم يرحمها السؤال نفسه: «كيف تركته يخرج؟» كانت ترى حنا في خيالها خارجاً من البيت وترى البيض يقع على الأرض ويتكسر بينما شعر حنا يشيب ويصير أبيض. «لماذا تركته يخرج؟» الخوري قال «اصبري» لكنه لم يجد حنا. دخل الى الحبس وألقى سلامه المسيحي على الجميع وأخذ اعترافات سجناء بالجملة خاتماً كل اعتراف بالسلام عليك يا مريم وبشارة الصليب يرسمها في الهواء العطن مقاوماً هجمة الحساسية. نبّهه أحد الحراس: «بسرعة يا سيدنا.» وهو يلقط قملاً عن صوف الجبّة. انتظرته هيلانة حتى دار على المحابيس جميعاً وخرج. «ليس هنا!»، قال أبونا بطرس متضايقاً. يعرف حنا، يكنّ له مودة خالصة، ولا ينسى أنه طالما تناول من أصابعه الرشيقة بيضاً مقشراً. وقف حائراً ثم فتح الشمسية كي يتقي أشعة تقدح قبة

الرأس. «الى الخان»، قال ثم أسرع وهي تتبعه كظلّه. لم تشعر بخدر ذراعها: ظلّت تهدهد بربارة. ابتعد من درب حمير محملة بالبضائع ومرّ أمام دكاكين باب إدريس كالسهم مخترقاً الزحمة. ردّ التحيات من دون أن يتوقف وحزن لرؤية مهجرين من الجبل قاعدين كالشحاذين في أسمال عند أحواض الدواب غير بعيد من المرفأ. صلّى طالباً الرحمة وأحنى رأسه داخلاً تحت قناطر. أوشك أن يزلق ويسقط على بلاط الزقاق بينما يقفل الشمسية. سمع أنيناً في أحد البيوت ولعن الشيطان وهو يفرك وراء أذنه. الخواجة نعيم طراد استقبله بالترحاب أمام باب الوكالة. طلب له وللمرأة المنكوبة ماء وقهوة وأجلسهما على الكراسي. أصغى وحين سكت أبونا لمعت شرارة في عينيه الخضراوين: «أمس عند الفجر تقول، كان هنا! أمس طوال الصباح كان المينا مقلوباً رأساً على عقب!»

«لماذا؟»

«ترحيل الدروز. أمس أخذوهم من هنا.»

(حيطان جودت باشا)

حين قنطوا من رؤية الشمس وظنوا أنهم طُمروا أحياء أخرجوهم. «مكتوب لنا في اللوح المحفوظ ألا نلحق المرحوم غانم أبو غنام بهذه السرعة!» حنا سمع كلامهم وهم يرتقون الدرج الذي لا ينتهي. انتبه الى طنين أذنيه. منذ فترة لا يتكلمون في القبو. مرّت الأيام عليهم ثقيلة وطحنت عظامهم. حتى الأكل بات

مهمة صعبة. بين اليقظة والنوم أدرك أنهم سيقضون واحداً تلو الآخر ممددين بلا صوت هكذا، وهو معهم. يختنق كما اختنق أبوه؟ بدا له هذا مقرراً سلفاً منذ تلقى الضربة الأولى في ميناء بيروت. وربما تقرّر كل شيء قبل ذلك: بينما يقطع الزقاق المسقوف المظلم تحت الخان الجديد، أو بينما يودع هيلانة في ذلك الفجر جاهلاً أنه لن يعود.

عندما تراصفوا في الباحة وجدوا العالم متبدلاً. مطر خفيف تساقط منتظماً على رؤوس نبت عليها الشعر من جديد. كانت الأرض مرصوصة مبتلة لا ترتفع منها ذرة غبار. القلعة كّلها بانت مغسولة شبه رمادية مكسورة الرهبة لا تنذر بشرٌ. الغريب أنها بدت مهجورة أيضاً. الحامية التركية في بلغراد ينوف عددها على خمسة آلاف جندي. يعجّون عادة بين هذه الحيطان كسرب دبابير تسلّط على قفير نحل مملوء عسلاً. أين ذهبوا؟ هل ثار الصرب مرة أخرى؟ من الأسوار أطلت عليهم بواريد قليلة. بينما ينتظرون الحبل الذي سيقيدهم في صف طويل انشغلوا بمساعدة بعضهم بعضاً على قطف القمل.

*

أطلّ جودت باشا من شرفته ورأى المحابيس يرفعون حجارة ويرممون قسماً من الأسوار القريبة من النهر. في جهة أخرى رأى جنوداً يقودون بغالاً تجرّ صخوراً. لا يستطيع أن يرى المقالع من هنا لكنه يستطيع رؤية المقبرة والشواهد والمنحدر الكلسي القاحل والخوازيق الباقية حيث عُلقت رؤوس العصاة سنة بعد أخرى. عبرت طيور السمّاني وطوى الهواء صفحة المطر. ابتلّ وجهه بالرذاذ البارد. تراجع الى خلف مرتعشاً وحدس بدنو آلام ظهره

وكتفيه. كالعادة قرر جودت باشا أن يهاجم المرض بدلاً من الاستسلام له: نادى على خادمه وطلب التحضير بسرعة لرحلة صيد.

«في أي وقت؟»

«الآن الآن.»

أراد أن يقضي فترة بعد الظهر بعيداً من هنا. بينما يكمن وراء أشجار البتولا ساعة الغروب سأله شراوالي عن ظهره. رمقه بنظرة شرسة من تحت حاجبين بلون الثلج وأسكته. انتصبت أذيال كلاب الصيد. مرّت عصافير صغيرة لكنه تركها. كانت المشكاة مثقلة بالسماني والهداهد الآن والطيور لم تعد مرئية في العتمة. غيّر مكمنه وهو يشرب جرعة ماء. شراوالي بيك أدرك أن الصيد لم ينتهِ وأن الباشا ينتظر الحجال ودجاج الأرض: فقط في هذا الوقت، عند دغشة المساء، تخرج. بعيداً فرقعت بواريد. ثم ساد السكون. لم يكن نقيق الضفادع بدأ بعد. لم يصب الدجاجة البرية الأولى لكنه أصاب الثانية ثم الثالثة. قوّص على الرابعة في الظلام لامحاً حركتها لمحاً والكلب السلوقي الباقي معه منذ الحملة الأخيرة وراء الحدود انطلق كالسهم راكباً الهواء ورجع برمشة عين وطرحها على الجراب الجلد أمامه. ناوله قطعة سكر. لعق اللسان الحار كفّه. شعر أن ألم ظهره اختفى تماماً. في طريق العودة رأى ناراً مشتعلة في سقف قش لأحد الأكواخ. «هذه المداخن الخشب مصيبة!»، قال شراوالي. اختار الباشا أن يهزّ رأسه ساكتاً لئلا يطرد بالحكي سكينة تغمره. أطلّت مصابيح القلعة كأنها تتعلق من السماء. مرة أخرى بدأ الرذاذ يتساقط.

(حيطان جودت باشا - 2)

لكن المنظر ذاته واجه عينيه في الصباح. الحركة البليدة للبغال والبشر. والأسوار التي لا ترتفع أبداً. بدا له من شرفته العالية أنهم لا يرممون السور كما أمرّ: بدا أنهم يبنون حائطاً داخل السور. واذا انتهوا من بناء هذا الحائط هذه السنة قضوا السنة الآتية في بناء حائط ثانٍ داخل الحائط الأول. وفي السنة التي بعدها يبنون حائطاً ثالثاً على قلبه! محكوميتهم عشر سنوات واذا ظلوا أحياء يرى الحيطان تأكل الباحة! سحب نفساً عميقاً من أرجيلة الصباح المخدرة لآلامه. لفّ العباءة الصوف على جسمه. في هذه النقطة: حيث تلتقي الرقبة بالكتف يبدأ الحريق. ثم يلتف ويقبض على كتفه ويعصر أنفاسه. لكن أشنع من ألم المفاصل ما يحدث لقلبه: كأنه يغرق في بركة سوداء، مثل تلك البركة التي رآها وهو صغير وظلّ خائفاً منها حتى بعد أن أخبروه أنها جورة تُلقى فيها بقايا الزيتون السوداء بعد سحقه لاستخراج الزيت في المعصرة. كانت راكدة قاتمة كثيفة. أحد الأولاد ربط جرواً بحبل ورماه والبركة ابتلعت الجرو وظلوا يسمعون نباحه من أعماق الكتلة السوداء ثم سكت. ها هم يتحركون مثل نمال بشرية في الأسفل. مرات يحسدهم! في أبدانهم قوة ولا يفهم كيف يخرجون من الأرض صباحاً بعد صباح!

«أشعر انني أشيخ باكراً يا شراوالي.»

«هذا سببه المطر سعادتكم.»

«لا يا شراوالي، هذا سببه الزمن.»

«تقصد العصر الصعب الذي نعيش فيه سعادتكم؟»

«لا يا شراوالي، أقصد السنوات التي أحملها كالجثث على ظهري.»

بسرعة فظيعة رأى شراوالي بيك الباشا يتهدم. راقبه ينظر طوال أسابيع الى محابيس وجنود يبنون الحيطان تحت المطر الخفيف الأسود. صلّى أن تشتد الرياح وتعصف، طلب البرق والرعد والسقوط الغزير المجنون للمطر، لعل توقف الورشة في الأسفل يبعد عن الباشا كآبته. استمر الرذاذ الرمادي الغريب. صلّى عندئذ أن تزول الغيوم وأن يحلّ الصيف باكراً. ما أقلقه ثم أفزعه كان توقف الباشا عن الخروج. حاول أن يجلب له خبراً يبعث فيه الحماس: «أسراب من الوزّ الشتوي شاهدها الجنود أمس وراء الغابة، حيث يتسع مجرى الدانوب.» أجابه الباشا بهمهمة ثم قلب شفته السفلى وأغمض عينيه. أرسلت نازلي هانم رسولاً يسأل عنه ويعلمه بوصول أفراس جديدة من وراء الجبال. فتح عينيه لحظة، ببطء مثل بزاقة، ثم عاد الى اغفاءته. شراوالي تسللت اليه الكآبة حتى صار يجلس مثله بلا صوت على الشرفة المسقوفة ويتأمل بينما - أرجيلة الباشا تقرقر- المحابيس العمال في الأسفل يربطون الحبال حول الحجارة ويرفعونها بالعجلة الحديد على السقالات الخشب. الباشا لا ينزل الى تحت ولعل النزول يفيده. وصف له شراوالي إقبال الدروز على الشغل. كانوا في حماسة دائمة للخروج من الأقبية ونقل الحجارة وتعمير الحيطان، حتى تحت المطر، مع أن المطر فيه خطر، وقبل أيام انزلقت صخرة وأفلتت من الأيدي الرطبة وسحقت واحداً منهم كأنه حشرة. غاص في الوحل وحين أفلحوا أخيراً في دحرجة الصخرة عنه وجدوا وجهه مبعوجاً الى الداخل وأضلاعه نافرة من جانبَيْ قفصه الصدري

بسبب الضغط. هذه المرة سمحوا لهم بساعتين كاملتين من الراحة وعيّنوا لهم بقعة في المقبرة القديمة المحطمة الشواهد كي يدفنوا صاحبهم القليل الحظ. راقبهم شراوالي بيك يقدمون التعازي بعضهم الى بعض واقفين تحت شجرة تين برّي عارية الأغصان، بينما الورق الأصفر-البنيّ يغوص في الوحل تحت مداساتهم. وجد المنظر رافعاً للمعنويات وأراد ايقاظ الباشا من قيلولته كي يتفرج لكنه خاف وقوع الغضب على رأسه.

«يعملون بلا توقف. نوزّع عليهم الطعام ثلاث مرات الآن. واذا أصلحوا الزرائب القديمة واذا سمح سعادتكم ننقلهم اليها للنوم. في الشتاء القبو يصير مقبرة.»

«السماء ضدنا يا شراوالي. انظرْ كيف تشعّ الشمس على سملين!»

رفع شراوالي بيك وجهه تاركاً المحابيس في الأسفل ورأى أن الشمس اخترقت فعلاً طبقة الغيوم فوق النهر وألقت عموداً عريضاً من الضوء على بيوت سملين.

«كي أرى بعينيّ الإثنتين كل ما خسرته!»

(حيطان جودت باشا - 3)

لم يفهم ماذا يهمّه في سملين! صغيرة وقميئة ورملية الحيطان ولولا قربها من بلغراد لم يسمع بها يوماً أحد! صار يمقت الساعة التي يقضيها مع الباشا على شرفته. شعر أن المرض فيه فتاك وأنه يعدي أيضاً. رآه يميل على الدرابزين الخشب وينظر الى قارب أفلت

من رباطه وطفا بلا صاحب على الدانوب. كان التيار يمضي به شرقاً ويبتعد والباشا ظل يراقبه حتى اختفى. مرة أخرى بذل شراوالي جهداً كي يرفعه من قنوطه الشتوي: «الصرب يشعرون بالقلق والخوف ويقولون جودت باشا يخطط لأمر رهيب.» تكلّم ناظراً الى رقبة الباشا لا الى وجهه. بطرف عينه رأى طيوراً تحلق حائرة فوق الورشة التي لا تتوقف. صلّى كي يسمع صوت الثعلب القديم يردّ: «أنت تقرأ الأفكار يا شراوالي!» لكن الباشا لم يفتح فمه. زحف ضباب المساء على بلغراد وتعالى أذان العشاء من الجامع وراء رأسه. أضيئت المصابيح في نوافذ سملين. لم يتحرك الباشا. أحسّ شراوالي بالجوع. من الأسفل تصاعدت رائحة عظام دسمة تغلي في قدور عملاقة.

«لا أعرف يا شراوالي، لا أعرف!»

انتظره كي يشرح لكن الباشا لفظ مع كلماته الغامضة النفس الأخير. ترك وصية مفصلة البنود ذكّرت أصدقاءه القدامى بميله الى الخطط والخرائط وبدقته في التصويب. وزع أمواله وأملاكه بالتساوي على زوجاته الأربع الشرعيات وعلى أبنائه وبناته وخصّ معارف وأقارب بهدايا رمزية وميّز نازلي هانم بأغلى مقتنياته: مجموعة باهضة الثمن من الخناجر. أوصى أيضاً بكيس نقود لجامع سملين المتداعي على أن يُسلّم باليد الى إمام الجامع الضرير كون المسلم لا يُلدغ من جحر جمرك النمسا مرتين. طلب أن يُدفن في قلعة بلغراد، «رأس حربة الباب العالي». لم يأتِ على ذكر الخزنة الأسطمبولية الخاصة التي رافقته في جميع أسفاره: كانت صندوقاً كبيراً مصنوعاً من خشب الكرز - الذي تُصنع منه الغلايين عادة لأنه يظل بارداً ولا يسخن أثناء التدخين -

وفي جوف الصندوق الرؤوس المقطوعة والمحنطة لأعدائه.

دفنوه في يوم كئيب ماطر وطمروا خزنة الرؤوس معه.

(حيطان جودت باشا - 4)

هالوا التراب على الحفرة العميقة. الرفوش طويلة المسكات والهواء بارد نظيف. لكن الوحل ثقيل.

بعد الدفن اغتسلوا عند البركة وراء الزرائب التي باشروا ترميمها. منذ حادثة الصخرة صاروا يعملون بلا حبل يعيق حركتهم. حلفوا أمام شراوالي بيك حلفاً جماعياً صادقاً أن أحداً منهم لن يجرِّب الهروب فأمرّ بفك قيودهم. بعد فترة قصيرة، في يوم عاصف غير صالح للعمل، أخرجوهم ظهراً من حبسهم الجديد كي ينظروا الى جندي بوسني فلاح قُبض عليه وهو يفرّ من الخدمة. رأوا رجلاً زائغ العينين ضئيلاً مبلولاً كخروف تصطك أسنانه على نحو مسموع. بينما يحرس قبيل الفجر غافل رفاقه الجنود النيام وركض على طول المنحدر وجرّب أن يعبر النهر. يبدو أنه أساء تحديد الاتجاه ذلك أنه عند خروجه من الماء وجد بارودته التي تخلى عنها أمامه على الأرض. كانت القلعة مضعضعة بلا الباشا، وهكذا أفلتت مخيلة رئيس الحرس، البوسني أيضاً، من العقال: بدلاً من العقاب التقليدي أشرف أحمد البوسني الجميل الصوت على بتر قدمي الجندي الفار «لأنه على قدميه ركض من نقطة الحراسة الى النهر»، ثم على بتر يديه «لأنه بيديه سبح عبر النهر الذي ردّه بمشيئة الله الى هنا»، وفي الختام قطعوا رقبته. جرى

الدم أسود غزيراً من الرجل. ضاع صراخه في الرعد والمطر. لكنهم حين عودتهم الى جوف الزرائب ظلوا يسمعون أنينه. هذا مستحيل لأن رأسه تدحرج أمام عيونهم. جلسوا في نقط اعتادوا الجلوس فيها خلال الأيام الأخيرة وحدقوا الى شقوق السقف التي يدلف منها الماء. الأنين لم يتوقف. عندما وقعت الفأس المسنونة على يده الباقية انتفضت اليد المقطوعة على الوحل: كأنها لم تنسَ الجسم الذي فُصلت عنه! كلاب الصيد المقيدة في الجهة البعيدة نبحت كأنها أصيبت بمس وهي تشمّ الدم وتقفز الى أمام وتكاد أن تحزّ رقابها. كفّت عن النباح لكن الأنين لم يتوقف. سلسلة بروق أضاءت وجوههم المقفلة الصامتة. في زاوية تكوَّم حنا يعقوب على نفسه مغطياً رأسه بذراعيه.

خرجوا الى العمل في صباح متباعد الغيوم بارد النسيم. وجدوا الحيطان التي بنوها واقفة تنتظرهم. انهمكوا في رفع الحجارة وبينما العرق يتصبب من أجسامهم انطفأ الأنين. بعد فترة غير طويلة وصل راسم باشا. استبشروا خيراً لأنه صهر الوزير فؤاد باشا المحب للدروز.

(عهد راسم باشا)

بنوا الحيطان طوال عامين. وعدهم راسم باشا اذا أخلصوا في خدمته وخدمة الدولة العلية أن يتوسط لهم في أسطنبول لتقصير مدة النفي الى أربع سنوات. أعطاهم وعده في يوم مشمس أزرق السماء أعقب أسابيع مظلمة من الثلوج والجليد. ثلاثة منهم يتقنون التركية

حضروا أمامه ممثلين للجماعة كما طلب. باغتهم وتكلم بالعربية. بدا فكه السفلي متصلباً كأن أضراسه متضخمة في فمه. سألهم عن طلباتهم. قالوا «الله ينصر السلطان نطلب رضى الله ورضى السلطان ورضاكم». هزّ رأسه الطويل وسألهم هل عندهم غير هذا الطلب؟ «ردّونا الى الجبل!» أدهشته نبرة الرجاء العميقة. نظر الى الرجل الذي تكلم منفرداً وعلى عجل. كان يلتف بعباءة مهلهلة مقلمة بالطول، يحني رقبته كأنه يتألم، ويميل بأحد كتفيه الى أمام كأن اللهب المنبعث من مدفأة الحطب يضايقه. سأله عن اسمه لأنه لم يحفظ الأسماء حين دخلوا ولأنه يحبّ أن يسأل عن الأسماء كأنه يظل ينساها بسبب مشاغله. «أنا محمود غفار عز الدين، خادمكم.» مساعد الباشا انحنى وهو يثبت عدسة فرنجية على عينه اليمنى ويمد ورقة. «عرفناكم شيخ محمود، 37 دعوى ضدك، ومعك أخوتك هنا، خمسة أخوة في حبس بلغراد، أنتم قبيلة كاملة، المفروض أن تشعر أنك في بيتك!» ضحك الباشا وردّ الورقة الى مساعده. الثلاثة تجمدوا ينتظرون كلمته بينما العرق يتشكل في قطرات حارة حول عيونهم. «جناب عمي الوزير فؤاد باشا حفظه الله مسرور من أعيانكم وعامتكم في جبل لبنان لأنهم وعدوا وصدقوا وجمعوا أموال التعويضات وأعطوها للمجلس. لولا الدم الذي ما زال ساخناً كنّا نردّكم الى أهلكم وأرضكم اليوم قبل الغد. لكن هذا غير ممكن. أرجعنا النصارى الى بيوتهم وهؤلاء جيرانكم والحائط على الحائط واذا شاهدوكم في الطريق تشتعل الحرب من جديد. لهذا قررنا ابقاءكم هنا زمناً بانتظار أن تهدأ الخواطر ويبرد الدم في الرؤوس. ثم نردّكم. الله ينصر السلطان.»

*

مع الباشا الجديد جاء البرد. تساقطت الثلوج كثيفة وتجمد وجه الدانوب. توقفت الورشة. أدخل الجنود أحصنة وبعض الماشية الى جزء من الزرائب مفصول عن قسم السجناء بحائط حجري لا يبلغ السقف. المحابيس فرحوا لأن الحيوانات جلبت دفئاً للمكان ولأن مراقبتها وسماع أصواتها وسّعا الحبس: صارت سلواهم، يقفون مصفوفين برؤوس ممدودة فوق الحائط ولا يتركون مراكزهم الا للأكل أو للاستراحة من الوقوف أو للنوم. في هذه الفترة بدأ أخوة قاسم يبادلون حنا الكلام. كان يراهم جالسين عند الجرن الحجري في الزاوية. يراقبهم الى أن ينتبهوا. عندئذ يهزّون رؤوسهم واحداً واحداً. هذه بمثابة دعوة. يقوم إليهم مصطك الأسنان وحين يقعد جنب قاسم يسمع إصطكاك أسنانهم. أوشكوا بلا نار وبلا أصواف خراف وبلا ثياب شتوية أن يموتوا في تلك الثلجة. حين ماتت غنمة من البرد جلب لهم أحد الجنود منقل جمر. تحلقوا متدافعين حول النار المعجزة ولعنوا الحياة على الأرض. أحدهم قال مقلداً شخصاً لا يعرفه حنا: «استغفروا الله!» وجميعهم ضحكوا والدموع تطفر من عيونهم وقالوا «استغفر الله استغفر الله». حنا جلس مكبوساً بين قاسم ونعمان. شدّ يديه تحت ابطيه خائفاً من الورم في رؤوس اصابعه. لون أظافره صار أزرق- أسود وهو نائم وقاسم قال له ان يفرك يديه وقدميه طوال الوقت وأن يقفز في مكانه بدلاً من النوم كي يتحرك الدم في بدنه. في الليلة الخامسة للثلجة قضى الشيخ عارف أبو هرموش. أحدهم نادى عليه كي يقوم ويفطر لكنه لم يرد. لمسوا كتفه ثم رقبته. كان قطعة جليد. قرعوا الباب ورجع الجندي الذي جلب لهم الأكل - أخضر الوجه يزفر بخاراً - وسألهم ماذا يريدون. لم يسمحوا لهم

بالخروج. دخل جندیان ملتفان بجلود غير مدبوغة وحملا الجثة وخرجا. انغلقت البوابة كأنها تتحرك وحدها. وجدوا المكان غريباً بلا الشيخ أبو هرموش. كان أكبرهم سناً، قليل الحكي، في وجهه سماحة أحياناً، لكنه صارم الرأي سريع الغضب اذا رأى شيئاً لا يعجبه. اعتاد أن يلطم فخذه اذا تضايق: حين حمله الجنديان الى الخارج حضرت حركته هذه في أذهانهم وشعروا بضيق. كان الميت الثالث في بلغراد بعد الأول الذي كسر رأسه على حائط والثاني الذي وقع حائط عليه.

*

مقابلة الباشا وضعت حدّاً للموت برداً: سأل الثلاثة بينما يتراجعون خارجين عن أخيهم الذي مات قبل يومين، ماذا كان مرضه؟

«لم يكن مريضاً حضرتكم، لكننا جئنا الى هنا بثياب الصيف. وممنوع إشعال النار في الحبس.»

«يا حرام، مات بسبب الصقيع! هذه العواصف تجيء من وراء الحدود، من أقاصي الشمال النمساوي، من الغابة السوداء. مثل ذئاب الدانوب. نحن نقوّص عليها من السطح، وحين نصيب تنزلق على جليد النهر كأنها تتزلج. هذا وقتها. لماذا لم تطلبوا ثياباً وبطانيات؟»

ظلوا ساكتين والباشا استدار الى مساعده وسأله هل هذا صحيح، هل مات السجين من الصقيع، هل هم بلا بطانيات، هل يُمنع عنهم الحطب في هذا الزمهرير؟ بدا صادقاً في انزعاجه وأمرَ أن يُفتح مخزن القلعة وأن يُوزع عليهم ما يحتاجون اليه. «واسمحوا لهم بقطع الحطب!»

قصف بلغراد (1862)

بنوا الحيطان طوال عامين. اشتغلوا بلا كلل في الحر والبرد. أعطاهم راسم باشا في المقابل ما لم يحصل عليه محابيس في تاريخ السلطنة العثمانية: سمح لهم بتحويل الزرائب التي رمموها الى بيوت أو ما يشبه البيوت. وراء الزرائب كوّموا حطباً. في الزاوية عند البركة زرعوا خمس غرسات توت. فتحوا كوى في حيطان الزرائب كي تدخل أشعة الشمس. أخرجوا القش الذي تعفن وفرشوا الأرض طيناً وحدلوه على مدى أيام ورطّبوه ورصّوه حتى صار كالبلاط. أذابوا كلساً وطرشوا الحيطان. أقاموا الحدود بين بيت وآخر - داخل الزرائب ذات الباب الواحد - بحفر الخطوط المستقيمة في الأرض وصف المداسات وتوزيع الفرشات. بات حبسهم أنظف وأطيب هواء من ثكنات الجنود داخل القلعة البيضاء. أواخر خريف 1861 وصلتهم ملابس وأحذية وأدوات طعام من البلاد البعيدة. حنا نظر اليهم يفكون الحزم ويفرشون الثياب وينفضون العباءات غير مصدِّقين. علت أصواتهم سعيدة ثم خفتت. «هذه خياطة أختي بهية»، قال بشير وهو ينظر الى صديرية صوف ويقلبها على الجهتين. حنا بلع ريقه وجاهد لئلا يبكي أمامهم. كان يسكن معهم، في المستطيل المرسوم على الأرض: خمس فرشات يطوونها فجراً لصق الحائط ثم يخرجون الى حيت تنتظرهم المطارق والأزاميل. قاسم استدار وناوله زناراً عريضاً يُشدّ على البطن تحت الثياب فيقتل البرد. نعمان أعطاه برنيطة جلد مبطنة بصوف خروف. محمود تخلى له عن مداس سميك النعل. وحتى بشير - الذي لا يتكلم معه عموماً

ومرات يرسل صوبه نظرة صفراء تقلق نومه - مدّ يده بلا كلام وأهداه قميصاً غير ملبوس. حنا بلع ريقه ونظر الى الأرض: رأى غيمة رطبة وفي قلب الغيمة هيلانة وبربارة. ماجت الغيمة وشعر أنه سينفجر عندما ربتت يد على كتفه.

ارتفع السور مطلاً على نهر السافا بفتحات مخصصة لفوهات المدافع. في ربيع 1862 مدّوا السور الى داخل الخط الحدودي الغامض المنصوص عليه في معاهدة بوخارست. قضموا أراضي من السفح الغربي لبلغراد واقتحموا مملكة الصرب الخيالية. التمعت الشمس على مطارقهم وهم يتحركون بين الحجارة بهمة أسلاف استصلحوا منحدرات جبل لبنان وعمّروا الحقول المتدرجة. كانوا نهراً في بحرٍ من الجنود ومن شغيلة أجراء وشغيلة سخّرتهم البواريد، لكنهم بالطاقيات البيضاء القطن الواقية من ضربة الشمس بدوا - خصوصاً للناظر من شرفة القلعة - العمود الفقري للورشة المرعبة. القناصل حضروا بين يديه واحتجّوا. الروسي احتجَّ باسم الصرب. النمساوي احتجَّ باسم النمسا. الفرنسي احتجَّ باسم الصرب والنمسا وفرنسا معاً. الانكليزي ابتسم وختم أنه يحتج معهم جميعاً. كان يحمل مشطاً عاجاً صغيراً ويقلبه كأنثى بين أصابع طرية تشبه شرانق الحرير الكورسيكي. راسم باشا نقل نظره بين مشط الشوارب والخريطة المعلقة على الحائط، وبتمهّل ردّ أن المعاهدة تعطي الحامية التركية في بلغراد الحق كل الحق في المحافظة على تحصينات القلعة وترميمها ونحن لا نفعل ما يتعدى ذلك. القنصل الروسي أجاب بلا غضب ان المعاهدة تعني بهذا البند خصوصاً التحصينات القائمة ساعة توقيع المعاهدة ولا تعني التحصينات

التي كانت قائمة قبل ثلاثة قرون ولا الأسوار التي هدمها الجيش النمسوي حين استولى على القلعة طارداً الجيش العثماني من بلغراد سنة 1717. كانت جملة مفصلة ومحضرة سلفاً، هادئة هدوءاً ضاعف جرعة السم فيها. نشبت كهرباء في القاعة الساكتة الى أن تكلّم القنصل الانكليزي: «أقترح اجتماعاً تحضره كافة الأطراف لمناقشة التفاصيل.»

بعد أيام قليلة قوّص الصربيون من أبراجهم على بناة السور. بينما الدم يسيل على الحيطان غير المكتملة أعطى راسم باشا الأمر للمدفعية وقصف السفح الغربي لبلغراد.

(بائع البيض)

بعد أسابيع طويلة من التقصي غير المجدي، وفي صباح خريفي عليل الهواء، شاع في بيروت فجأة خبرٌ لم يتوقعه أبونا بطرس: واحد من المحابيس الدروز الذين نفوهم الى وراء البحر اعترف وهو يركب الشختورة مخفوراً انه قتل بين الذين قتلهم بائع البيض حنا يعقوب المسيحي من بيروت الذي بيته جنب كنيسة مار الياس الكاثوليك. أبونا بطرس جرّب بعد سماع الخبر الغريب أن يعرف أكثر: عبثاً ذهبت محاولاته. لم يعرف أين بدأت الشائعة، بين عنابر المرفأ حيث يستلقي الحمّالون ظهراً كي يأكلوا الزوادة ويأخذوا قيلولة، أم في سوق القطن حيث يطير الحكي خفيفاً من أفواه الندّافين، أم عند قناطر الجامع العمري حيث يحتشدون تارة للصلاة وأخرى لشراء المسك المجلوب من عدن. لم يعرف كيف

بدأت الشائعة لكنه اكتشف مرة أخرى بأي سرعة تنتشر هذه الأخبار في مدينته. في يوم واحد أوقفه في الطريق عشرات من أفراد رعيته بوجوه حزينة مصدومة وسألوه هل سمع الخبر عن بائع البيض المسكين حنا يعقوب الذي قتله الدروز بلا سبب قبل أن يركبوا السفن الى أفريقيا.

لم يعثروا على جثة بائع البيض. نوتية وعساكر وأولاد ومتطوعون فضوليون من هواة الغطس غاصوا في مياه الميناء بحثاً عن بائع البيض القتيل. «يكون عالقاً تحت الصخور أو في هيكل أم الفحم!». صيادو اسفنج من عائلة الكوراني تركوا شوكاتهم في بطن قاربهم وقفزوا في البقعة حيث جنحت وغرقت السفينة اليونانية المحملة بالفحم قبل سنوات. أخرجوا جسماً أسود شبه متحلل لفقمة لم يعلم أحد كيف وصلت الى بيروت. «كان يذهب لشراء البيض مرات من عين المريسة. ربما قتلوه هناك!» في أيام قليلة كفّوا عن البحث عن جثته. لكنهم ظلوا كلما سمعوا عن جثث جديدة متحللة عُثر عليها في البرية الممتدة بين بيروت والقرى المحروقة عند سفح الجبل يكررون الكلمات ذاتها: «لعل بائع البيض بينهم. مسكين حنا يعقوب!»

«كان عنده أولاد؟»

«طفلة صغيرة.»

«وزوجته رجعت عند أهلها؟»

«زوجته مسكينة مثله. ما عندها أهل. تغسل الثياب وتكنس وتمسح عند بيت بسترس.»

(في بطن السور)

السور حائط مزدوج. يُبنى الحائط الخارجي ثم الداخلي الموازي ويُهال التراب في الفراغ الفاصل بين الحائطين. حنا - الذي يصيح «حاضر» اذا نادى ضابط الاحصاء «سليمان غفار عز الدين؟» - رأى الرصاص يتكسر على الحجارة ولم يسمع فرقعة البواريد. كان واقفاً في نقطة عالية يتناول «جرادل» التراب ويفرغها في الهوّة بين قدميه المتباعدتين. ساد الذعر ورآهم يتراكضون. لكن الخوف جمّده حيث هو، بقدم على كل حائط. عدد من المحابيس والجنود هرب صوب أبواب القلعة. آخرون احتموا وراء الحيطان غير المكتملة. رئيس الحرس -الذي يصفر لحناً مفعماً بالحنين اذا هبّ النسيم وأسقط زهور أشجار الكرز بيضاء وزهرية على وجه السافا - وقف غير بعيد من حنا، في نقطة مشرفة على السجناء، وتلقى رصاص الصرب في فمه. كسّر الرصاص أسنانه ومزّق لسانه ولحم وجنته. هوى في بطن السور حيّاً وظلّ يكافح للخروج ساعات طويلة بينما المدافع تدوي فوقه والرصاص يئز. برمت الشمس السماء ولمح القرص القمحي اللون قبل أن يختفي. قبيل المساء انطفأت عينه اليمنى. سمع نداءات جرحى وحاول مرة أخرى أن ينادي فملأ التراب زلعومه. لم يستسلم وتململ كثعبان الى أن تسلّطت حشرات التراب على فتحات وجهه. نعمان غفار عز الدين أسقطه وابل الرصاص مع «جردل» تراب ثقيل في بطن السور. تلمّس ذراعه اليسرى فابتلت أصابعه بالدم. انتزع قميصه المهلهل ورأى أنه سينجو. ربط زنده وأسند ظهره وانتظر سكوت الرصاص. كان بصره غائماً لكنه لمح حنا في الأعلى متسع فتحتي

الأنف يتنفس مثل حصان. «انزلْ!» الصوت خرج مبحوحاً من حنجرته لكن حنا سمعه. مع هذا ظلّ واقفاً كالفزاعة حيث يطقطق الخردق. «انزلْ يا حمار!» بينما ينادي عليه شعر نعمان بشيء غريب: كأنه يحبّ هذا الرجل! كأنه يحزن اذا رآه ميتاً بعد لحظة! تحامل على نفسه ونهض مستنداً على يمناه وتحرك في بطن السور حتى صار تحت حنا. قبض على كاحله وهزّه من صدمته وطلب منه ان ينزل ويقف معه هنا، «هنا أحسن».

هكذا جلسا في بطن السور بانتظار حلول الظلام. سقط شعاع الشمس عمودياً وفحص نعمان جرحه ورأى أنه لا ينزف. «عطشان.» ثم ابتعدت الشمس وأتت سحابة بارود وملأت بطن السور. سعل حنا ثم مال على جنبه. بدا نائماً بعينين مفتوحتين. هدرت المدافع فارتج جسمه مع الحيطان. كان معطل الذهن وبلغته كلمات نعمان من دون أن يفهمها، مختلطة بالانفجارات. «لم يقتلوني في الجبل كي يقتلوني هنا! عجيب!» وقعت حجارة في مكان غير بعيد وسمعا صراخاً. الأنين أتى من الجهات كلها. ضغط نعمان بصفحة يده على حجارة الحائط واستعد للقفز والركض اذا ارتج الحائط مرة أخرى. حنا سمعه يتكلم ثم رأى عصافير أصغر من راحة اليد تتقافز على الحافة. بيضاء وزرقاء ورمادية. زقزقت وهو ينظر اليها غير فاهم لماذا تبقى هنا. ابتعدت سحابة البارود الثقيلة الرائحة وسمع شتائم بالصربية والتركية والبوسنية والعربية. حين طارت العصافير شعر بألم في جنبه. غيّر جلسته ورأى الدم على فخذه. «سأموت هنا. كان أحسن لو قتلوني في الميناء.» نعمان لم يسمع كلمات حنا لأنها دارت في رأسه ولم تخرج من فمه. نظر الى السائل الأسود يلطخ السروال الرمادي.

مزّق القماش فوق الركبة ومسح مكان الجرح برؤوس أصابعه. تأوه حنا كأنه يموت. «خدش. لا تهتم.» التقط حفنة تراب ونظّف يده. بدا فجأة مجهداً كأن دم الرجل البيروتي الصغير سبّب له مرضاً. «هكذا أتعب اذا أصابني البرد.» حنا لم يسمع كلمات نعمان لأنها دارت في رأسه ولم تخرج من فمه. صبغ الضوء البرتقالي السماء. تباعدت الفترات بين الانفجارات. بدا أن مدافع القلعة تعبت. الرصاص أيضاً أخذ يبتعد. «وأنا عطشان!» نعمان ضحك وهو ينظر الى حنا فاتحاً فمه. كان يجيبه على كلمة لفظها قبل ساعات، عند الظهيرة!

(في بطن السور - 2)

«لماذا لا تقولوا لراسم باشا من أكون؟ قولوا له كي أرجع الى بيتي.»

«ماذا يفعل راسم باشا الآن؟ يقصف كنائس الصرب ويدكّ بيوتهم. اشكرْ ربّك انه لا يعرف من تكون. اذا قلنا له هذا مسيحي يقطع رقبتك!»

«أنا مسيحي من بيروت. لست من بلد الصرب!»

«ما الفرق؟ وحتى لو تركك كيف ترجع وحدك؟ تعرف الطريق؟»

«يردوني بالباخرة كما جلبوني.»

لم يضحك نعمان. أراد ذلك لكن الحزن الفظيع في الوجه الراقد قربه أعجزه. التفت وحدق - في عتمة أول المساء الخفيفة - الى كومة تراب تسدّ الممر. كان جرحه يقرصه.

«أخونا الكبير المرحوم علي مات قبل أن تبدأ الحرب بأيام. كان وحده وبعيداً من ضيعتنا ولم نعرف الذين قتلوه. راح الى سوق دير القمر كي يتفق مع تاجر يشتري منه الجلود للدباغة. فرسه رجعت وحدها عند الغروب. الوالدة كانت في جل التوت تقطف الورق الأخضر والفروع الطرية من أجل دود القزّ. ظلت جامدة بلا صوت بلا حركة حتى وقفت الفرس قدام باب البيت. عرفتْ. كان الدم على السرج. محمود الأقرب لعلي. شبهه بالوجه وبالحركات وبالحكي، سبحان الخالق. ناس من كفرنبرخ وبتدين ساعدونا على تفتيش أحراج الصنوبر والبطم في خراج دير القمر. واحد منهم لحق طير القعق وصوت النعيق: وجده بين الصخور وراء دغل شوك. حملناه ونحن نبكي. بهاء الدين الله يرحمه كان أصغرنا. لم يبكِ. الآن صار سليمان أصغرنا. طلب بهاء الدين الفرس وأخذها ولم يغسل سرجها من دم علي. قاتل عليها في جزين وراشيا وزحلة. قاسم كان معه. أنا وبشير كنا نقاتل في الجرد. محمود قوّصوه بمعركة عين دارة. نصف الدعاوى ضده كذب. لم يحارب بعد عين دارة. لم يكن في حاصبيا.»

«ذبحتم الأولاد والنسوان في حاصبيا.»

ارتعش نعمان وخاف أن يخنق الرجل جنبه. لم يضربه لأنه بدا شبه ميت. كان أصفر اللون هاذياً مبلولاً بالعرق. سمع صرير أسنانه. نظر الى أعلى ورأى نجمة المساء، نقطة بيضاء تبرق في القماشة القاتمة. غلى الدم في عينيه وشوّه الأشياء ثم سكن وركد. انتبه أن العرق يبلّله هو أيضاً.

«الله يسامحك، قاسم كان في حاصبيا.»

(دروز بلغراد)

القناصل تدخلوا أثناء الليل. تنقلوا في نور المشاعل بين القلعة البيضاء والمقر الحربي الذي أنشأه الأمير ميخائيل على عجل. راسم باشا قابلهم بوجه الحصان وقال لن أقبل هدنة. القنصل الانكليزي انفرد به عند نافذة تطل على ساحة القلعة المحتشدة بالعائلات التركية والبوسنية والمقدونية النازحة هرباً من النار.

«ماذا ستفعل بهؤلاء يا باشا؟ الجندرمة الصربية تحولت جيشاً واجتاحت السفح الشرقي. كل بيت على سطحه قرميد احترق. نحن محاصرون وأنت تعرف هذا.»

«شهور وأنا أقول انهم يخزنون السلاح والذخائر وأنتم تردون هذا غير صحيح. لم يبقَ فلاح بلا بارودة. هم طلبوا القتل.»

«أنا في صفّك يا باشا. اذا لم نقبل الهدنة نخسر. وصلني تلغراف قبل ساعة ان الجيش النمساوي ينقل مدافع الى سملين.»

«أقصف سملين هذه الليلة.»

«أو نخفف خسائرنا ونرضى بالهدنة. هذه معركة لن نربحها.»

*

جمعوا القتلى في الصباح. القنصل الانكليزي سأل طوران مساعد الباشا عن الخسائر. مثل الباشا حين يتكلم العربية نطق طوران كلماته الانكليزية بلكنة ثقيلة أقرب الى قرقعة الحجارة: «فقدنا 36 جندياً بينهم تسعة على المدفعية و15 سجيناً بينهم سبعة من دروز بلغراد.»

«أنتم أيضاً صرتم تسمّونهم هكذا!»

«اسطنبول تقرأ جرايد لندن سعادتكم.»

«جميل، جميل.»

الباشا لم يحضر الدفن الجماعي. عند العصر خالف عادته شبه الثابتة ولم ينزل الى الجامع. تناول العشاء منفرداً وطلب من مساعده تبليغ القنصل الطلياني الذي حضر من أجل جولة الشطرنج أنه مصاب بالرشح ويخشى أن ينقل له العدوى. أرسل تلغرافات الى اسطنبول ثم اعتكف في سريره يومين. في اليوم الثالث وصله الجواب. نهض وطلب الحلاق وثياباً جديدة. خرج كأنه عائد من نقاهة في القُرِم وفرض سلطته بينما رائحة العنبر تتضوع من أكمامه. نظّم مسلمي السفح الشرقي المهجرين في ثلاث فرق قتالية وسلّحهم. أنزل عائلاتهم في أبنية القلعة وعندما اشتكوا من الزحمة الشديدة أفسح لهم مكاناً في الزرائب المرممة وردّ الدروز الى القبو تحت الأرض. كانت القلعة محاصرة بالصرب الآن لكنه شعر أنه انتصر. «انظرْ دقة مدافعنا يا طوران، لم يبقَ جرس في الكاتدرائية». وقفا على السطح يتأملان بالعين المجردة وبالمنظار الفرنجي آثار القصف. «هذا عجيب يا طوران.» اعتاد الباشا أن يكلّم مساعده كأنه يتكلم مع نفسه. وجد في هذا التقليد دليلاً آخر الى رسوخ سلطته. «ها نحن قد هدمنا أبراجهم وأحرقناها. مقبرتهم امتلأت. لو شئنا نطردهم بالنار الى وراء النهر. مع هذا لا نشعر بالراحة، كأننا خسرنا ولم نربح الحرب. قد تستغرب يا طوران لكنني أفهم الآن ما يقوله جناب عمي عن هؤلاء الدروز. هم أيضاً وقع عليهم النحس. ربحوا الحرب وسحقوا عدوهم لكن أين انتهوا؟ صعب أن تربح وتجد نفسك خسرت. أنا أشفق عليهم يا طوران.»

(القبو المنحوس)

انطرحوا كالعميان في الظلام الذي استردهم ووجدوا أن أصغرهم عَمِيَ حقاً. حمد ابن الشيخ السعدي من بتلون مدّ يد المساعدة أثناء القصف: جرّ ودحرج مع آخرين قنابل كروية ثقيلة الى المدافع الأدرنية المصبوبة في زمن السلطان بيازيد. انفجر مدفع لم يتحمل حشوة البارود المدكوك. رأى وهجاً رائعاً يخلب الأنظار ثم انطفأ العالم الى الأبد. عالجوا حروق وجهه ورقبته بالزيت والمراهم الرومية ولفوا دماغه بالقطن الأبيض. أعطوه عصا وصار الأعمى بين دروز بلغراد. حين حملوه الى القبو شبه نائم لم يعرف أنه ليس في الزرائب المرممة وأخذ يتلمس الأرض بحثاً عن أغراضه. «ردّونا الى القبو المنحوس يا حمد!»، قالوا له عندئذٍ. أمسك العصا ووقف كأنه ذاهب الى مكان آخر وظل منتصباً هكذا بلا صوت. عندما ناموا تمدد ونام مثلهم. ظلوا يسمعون أنينه بسبب الحروق. في وقت الأكل وضعوا قطعة الخبز في يده. بعد أيام رفع أنفه مثل كلب صيد وقال هل تشمّون الرائحة؟ الشيخ مهران القاعد جنبه قال «هذه غرغرينا». أحاطوا بالحارس الكلسي المقطوع الأذنين حين فتح الباب فندم لأنه تركهم بلا قيود. انتظر الخنق ثم فهم أنهم يطلبون مساعدة أو أخذ جثة. في ضوء المشعل تنقل معهم بجسمه المربع البليد يفحص بنظرة العبيط جروحاً ملوثة. لم يكن ذلك ضرورياً. قبل أن يصلوا الى نعمان غفار عز الدين سمعوه يقول: «أنا.» بعد خروجه سمعوا أخاه محمود يبكي. نشيج مكتوم لا يكاد يُسمع لولا أن القبو مخنوق. بشير اقترب من أخيه الكبير وأصدر همهمة. بعد ذلك ساد الصمت. حنا تلمس

جرحه الذي شُفي وختم بسرعة كما قال نعمان. في نومه وجد نفسه في بطن السور يكسر جوزاً أخضر ويُطعم هيلانة. فتح عينيه في الظلام وشهق. منذ دهر لم يرَ ملامحها واضحة هكذا. هذه القلعة تمحو ذكرياته. تحرك وارتطم بشخص آخر يتحرك.

«أنا قاسم.»

«أعرف.»

«النوم صعب.»

«رأيت زوجتي في المنام. كنا نأكل جوزاً، هنا، في بلغراد.»

«لم أعد أراهم. كنت أراهم أول نزولنا هنا، خصوصاً إبني. لا يبتعد عني لحظة. في البيت أو في الحقل أتعثر به كأنه مربوط إليّ. أمه كانت تقول له ابعدْ يا ابراهيم من درب أبيك أو تظل قصيراً. الآن لا أرى أحلاماً اذا نمت. أو أرى أشياء لا أريدها.»

«كم سنبقى هنا؟»

«نعمان عنده أربع بنات.»

نادى صوت من الزاوية البعيدة وسأل شيئاً. سكتا وسمعا أجوبة وأسئلة أخرى. ثم عاد الصمت.

في وقت الأكل سألوا الحارس عن نعمان وهو من دون أن يسمع فهم ماذا يريدون. عرفوا أنه حيّ. تحلقوا حول الخبز وقبل أن يأكلوا مدّ محمود يده وقبض على معصم حنا. سأله حنا ماذا يريد؟ «خذْ خبزتي، لا أشعر بالجوع اليوم». مرّ زمن لا يُحدد ثم رجع نعمان. كانت خطوته غريبة كأنه شخص آخر. بتروا ذراعه من الكتف ونجا من الموت.

(الخروج من بلغراد)

أخرجوهم من القبو في نهاية الصيف. طقطقت ركبهم. ترنحوا كالأشباح في النور الباهر. «الله يرحمك يا شيخ محمد. 72 درجة! أخطأ في العد.» أطرافهم انتفضت في الفضاء المفتوح، مبتهجة. حمد الأعمى رفع وجهه الى الشمس وأحسّ بالحرارة: «أبيض، أرى أبيض وأصفر!» بدا سعيداً كأنه سيشفى في ساعة. نعمان نظر الى الكمّ المعقود شاعراً بذراعه التي لا يعرف أين رموها، وارتجف. حنا مشى وراء قاسم حتى الساحة. تراصفوا في حراسة البواريد وانتظروا. حولهم فارت القلعة بالحركة والضجيج. شاهدوا صفاً من عربات مربوطة الى ثيران وعرفوا أن شيئاً يحدث. من جهة الزرائب التي جعلوها بيوتاً أقبلت مجموعة من النسوة المحملات بالحزم والطناجر. أولاد ركضوا الى العربات وخلفهم يتطاير ريش البط والدجاج الذي أمسكوا به من أقدامه. كانوا يرحلون. الرجال الأتراك والبوسنيون لم يشاركوا في نقل الأغراض. وقفوا ينقلون بصرهم بين المحابيس والثيران والغيوم القليلة المبعثرة كالغنم في السماء. النساء المقدونيات بملابسهن البديعة الألوان لم يظهر لهن أثر. أثناء نزول الدروز في القبو رحلت العائلات المقدونية باتجاه الجبال البعيدة المغطاة بالشجر. أحدهم تحدث مع جندي يعرفه. «هذه القافلة الأخيرة. الى البوسنة.» رائحة فواكه ناضجة ملأت أنوفهم. الضوء والهواء الكثير والفضاء. شعروا بجوع لا يُصدق. رأوا القدور تعلق فوق النار أمام المطبخ. شموا رائحة اللحم والعظم والبصل. «سيردونا الى الزرائب أخيراً.» تحت الحائط البعيد اضطف أولاد ينظرون الى عبيد يذبحون بقرتين. خارت

الثيران المقيدة الى العربات خواراً مخيفاً. الرجال البوسنيون نادوا مرة واحدة باتجاه الأولاد الذين يتجاهلون صياح أخواتهم وأمهاتهم. جاؤوا ضاحكين يتقافزون ويتدافعون وتسلقوا أكوام العربات من دون أن يسكتوا. رموا حصى صوب المحابيس. أحد الأتراك لوح بسوطه ولسع صبياً على كتفه. تجمدوا عندئذٍ وأصغوا الى الصبي يبكي. المحابيس عرفوا أن الزرائب فارغة الآن، تصفر. نظروا الى البخار يتعالى من قدور الهريسة. ترطبت عيونهم. بلعوا ريقهم. أذّن المؤذن وظلوا جامدين في صفوف. كان الهواء نقياً يُشرب كماء. عندما تحركت القافلة خارجة من القنطرة أمرّهم الجنود بالحركة. المحابيس ساروا نحو الزرائب بخطى سريعة. لطمت البواريد أجنابهم عندئذٍ ودلّتهم الى طريق أخرى: لم يقل لهم أحد أنهم يخرجون الى الأبد من بلغراد.

*

شيّعهم راسم باشا بنظرة طيبة واقفاً على شرفة عالية حاملاً طفلاً شديد الشقرة الى صدره. هذا الإبن ولد هنا، في القلعة البيضاء، قبل شهور. سمّاه فؤاد تيمناً بجناب الوزير فؤاد باشا.

هزّه وصفّر له مثل بلبل. رفعه فوق كتفيه وتأمله وهو يضحك. استدار وأومأ برأسه. أتت المرضعة كالبرق وأخذته. كانت رومانية كبيرة الصدر تفوح برائحة اللبن. أوقفها الباشا وهي منصرفة وطلب منها أن ترضع الطفل هنا، في الهواء الطلق. لم يحمر وجهها بينما الباشا ينقل بصره بين دوائر جسمها الملفوف بالأقمشة البيضاء، والقافلة المتجهة الى جبال البوسنة. فتح علبة فضة ثم أغلقها. تحرك وأعطى المرأة ظهره حين انتبه الى تسارع أنفاسه. كان مسروراً بالطقس وودّ لو يستمر الصيف. ابتعدت ضجة القافلة.

لكنها ظلت مرئية. برق الضوء على صفحة الدانوب، تلألأ كحبات ماس. من الحقول التي تُحصد ارتفعت أغنية صربية. أصغى ووجد الصوت شجياً. استدار كي ينظر الى الرومانية. غضت بصرها عندئذٍ. صرفها بإشارة وأغمض عينيه. حين فتحهما رأى طوران أمامه .

«القنصل الطلياني وصل سعادتكم.»

«كم المسافة من هنا الى لندن يا طوران، تعرف؟»

«اذا أعطيتني دقيقة سعادتكم أتأكد من الخريطة.»

«أعني الوقت.»

«مفهوم سعادتكم. لكن كيف تريدون السفر، بالقطار؟»

«غير مهم يا طوران، غير مهم. سنلعب الشطرنج هنا.»

(دروب البوسنة)

ساقوهم كالماشية. كانت الدرب تدنو من نهر السافا ثم تبتعد عنه، وعلى الدوام تتجه عكس تياره. مع مرور الأيام ظنوا أنهم يرون نهراً آخر: كان السافا نفسه لكنه صار دافقاً هادراً مسموعاً من بعيد، بينما الجو يبرد. شاهدوا مراكب شراعية محملة بالبضائع وأخرى بلا أشرعة ومجاذيف. عبروا قرى وبلدات يجهلون أسماءها. شاهدوا مصاطب عريضة مفروشة بالفاكهة للتجفيف وباللحم للتقديد. إمرأة ملفوفة بالكتان الأبيض لا يبين منها غير العينين السوداوين تأملتهم ملياً بينما تخرج حفنات الملح الحجري

من كيس وترشها على شرائح اللحم القاتمة كأنها تنثر قمحاً للدواجن. توقفوا للراحة دقائق في طرف بلدة ترتفع فوق ركام بيوتها مئذنة بيضاء واحدة. أولاد ركضوا المنحدر حاملين قطع سكاكر ملونة ثم وقفوا على مسافة آمنة ولوحوا لهم. بدوا غير حقيقيين، كأنهم خرجوا من منام لا من ركام البيوت المسودة بالشمس والمطر والشمس من جديد. انتظروا الليل كي يتضاءل اللهب في قشرة الرأس. تسلقوا هضاب البوسنة بلا صوت في الليل وفي النهار. في وقت الراحة عند ضفة النهر شربوا ماء حتى امتلأت بطونهم وكبر حجمها. مثل إبل الصحراء خزنوا المياه للسير الطويل. مر وقت والدرب تتلوى وتنأى عن السافا. عبروا جسراً حجراً يعلو جدولاً عميقاً والجنود منعوهم من النزول للشرب. داخوا من سماع الخرير بينما الشمس تلطم رؤوسهم وتبقع عيونهم بالكدمات. احمرت وجوههم حتى ازرقت. احترقت رقابهم. حنا سار مباعداً ما بين ساقيه. الاحتكاك المتواصل شوى الجلد بين فخذيه. في بداية الرحلة التي كُتب عليهم ألا يعرفوا أين أو متى أو كيف تنتهي انتابهم شعور قريب من السعادة. كانت روائح الطبيعة تغمرهم والفضاء الأخضر الصافي الهواء يُنوم رئاتهم وعقولهم حتى خُيّل اليهم أن الحبس انتهى. لا الحبل ولا القيود الخشب ولا قضبان الرمان التي تسوط الأكتاف ولا البواريد أفسدت عليهم هذا الشعور الحلو كالزبيب. حتى السير الحثيث المتواصل لم يفسد بهجتهم الغامضة. ثم بلغوا نقطة تفرعت فيها الطريق وعربات الثيران المحملة بالعائلات افترقت عنهم. شاهدوها تبتعد حتى دخلت الغابات واختفت. أسراب طيور كبيرة الحجم انطلقت من الأشجار كأنها تهرب من النار، وبدلاً من أن

يُسروا برحيل العربات التي أطعمتهم الغبار فتك بهم قنوط مفاجيء. الجنود أيضاً بدوا حزانى. تسلقوا جبلاً أصفر التربة يغطيه الشوك والبطم والوزال اليابس. تعرجت الدرب ثم استقامت وبان سراب الماء. شعروا أنهم يتحركون بلا جهد كأنهم يتدحرجون. عبروا أرضاً تتباعد فيها أشجار بلوط قزمة وهم يكشون الحشرات عن عيونهم فتقتحم آذانهم. صهلت أحصنة الجنود بينما يشرفون على هاوية من صخور حمراء مسننة تتوزعها العظام. كان المنظر مخيفاً. ارتجفت ركبهم. توسطت الشمس السماء في يوم فظيع الحرارة والأحصنة ابتلّت عرقاً. الذبان ملأ عيونها. أوقفوهم للراحة عند بركة حجرية ومنعوهم من الشرب الى أن شبعت الخيول. جفت البركة. رفعوا ماء من بئر وشربوا. هذا الماء البارد أنامهم كالأفيون، بلا أكل، تحت الشجر. فتحوا عيونهم بينما الشمس تغرب والجنود يزعقون. عند هبوط الليل أكلوا عنباً من كروم تجاور الطريق. عناقيد يغطيها غبار شبه رملي، تصرّ بين الأسنان، حبّاتها مضروبة متيبسة شبه ناشفة كأنها جلود بلا عصير، التهموها وقضموا بزورها وبلعوها، وحتى فروع العناقيد مضغوها متلذذين. عندما توقفوا في الصباح كي يخبز الجنود ويفطروا تحملوا رائحة العجين ثم الحطب الذي يخبز العجين. انطرحوا على بطونهم وعرّوا ما استطاعوا من ظهورهم ثم انقلبوا وفعلوا العكس. آخرون فركوا أوراق نباتات شافية على جروح وقروح. ناموا كالموتى وأيقظهم الزعيق وحوافر الخيول. أضاعوا الزمن كما حدث لهم من قبل، أول نزولهم في ظلمة بلغراد. تحركوا طابوراً على طريق عالية ضيقة تطل على قرى حمراء القرميد كأنها قرى جبلهم البعيد. كانت البيوت تظهر في

كتلٍ ثم تختفي وبينما يترنحون ويقعون ثم ينهضون استولت على بعضهم قناعة عجيبة: «لن يلمسنا الموت على هذه الدرب!» كان ذلك وهماً لكنه منحهم قوة ولعله أنقذ عدداً منهم. قطعان أغنام وأبقار قطعت طريقهم مرات لا تحصى. رأوا بقراً غريباً وبقراً أليفاً يشبه بقر بلاد الشام. الرعاة ركضوا مع كلابهم وأبعدوها خوفاً من البواريد. دخلوا قرية تطوقها سنديانات عملاقة كأنها تخفيها عن العيون. نسوة عجائز مكشوفات الوجوه جالسات أمام عتبات البيوت نهضن على مهل واختفين في ظلمة الأبواب. «خافوا منا!» لكن العجائز خرجن يحملن ماء وخبزاً للجنود والمحابيس. عجوز تبدو في المئة من عمرها انحنت على رجال مخشوبين نتأ العظم من جلودهم وتكلمت معهم بالنظرات وشرحت لهم أنها تسقي الجنود فقط كي يسمحوا لها أن تسقيهم. دروز بلغراد شربوا من يدها ماء أذابت فيه سكراً. أخذوا الخبز وأكلوا بسرعة وهم يخفون أفواههم عن عيون الجنود.

(دروب البوسنة - 2)

خرجوا من قرية السنديانات الظليلة ومروا بمحاذاة مقبرة. أبصروا رجالاً عجائز يتحركون كالأشباح بين الشواهد ويحملون أغصان غار. سمعوا جرساً يقرع. مع حلول المساء التفتوا وشاهدوا شموعاً مشتعلة وحدسوا أنها المقبرة التي مروا جنبها عند الغروب. ساروا في الليل يتبعون حمد الأعمى والبغال البيضاء المحملة بطعام الجنود. حمد السعدي تعثر في بداية الرحلة وهشم

ركبتيه وكسر عصاه. ربطه جندي بعد ذلك الى بغلة وصار اذا نال منه الاعياء يسند نفسه الى البغلة ويرتاح. لولا عماه كانوا قتلوه. دخلوا مدينة كثيرة المتاجر قبلها نهر بجسور وبعدها نهر بجسور. لم يروا أحداً لكنهم شعروا بالسكينة تحت النوافذ المضاءة بالمصابيح. في مدينة أخرى عبروها أثناء النهار قطع طريقهم رجال خارجون من صلاة الجمعة: تجادلوا مع الجنود وأجبروهم على إراحة المحابيس. سمعوا لغات كثيرة لكن الكلمات العربية وقعت في آذانهم مثل السحر. المشايخ المسلمون داروا عليهم بالماء والتمر. أعطوهم خبزاً خارجاً من الفرن وأطعموهم طبخاً حُضر للتو. لم يعرفوا لماذا تبكي النساء الواقفات على مسافة وخافوا أن يكونوا ذاهبين الى القتل. تحركوا مثقلين بما أكلوا وشربوا. خلال الليل مُنعوا من التوقف وقضاء حاجتهم حتى قرر الجنود ذلك. حنا تلوى من الألم لأنه أكل «قمر الدين» والمشمش المجفف المُحَلّى أذاب بطنه. قبيل الفجر تساقط عدد منهم وتوقف الطابور. «احملوهم أو نتركهم هنا!» أوقفوهم وأسندوهم وتحركوا من جديد. عبروا سهلاً في ضوء النجوم. مثل النيام نظروا حائرين الى جبال تمتد عن الجهتين. أزكمت أنوفهم رائحة السنابل المحصودة والمكومة. أطلت من فوق الأكوام الضخمة وجوه ناعسة وبواريد تحرس المحصول. توقف الجنود. تكلموا مع الفلاحين. بدا أنهم أضاعوا الطريق. أحد المحابيس ركع على ركبة واحدة ونام: ارتفع شخيره. تحرك الطابور. أسند حنا نفسه على قاسم وحين سمعه يقول «وراء هذا الجبل بلاد الشوف» لم يفهم أنه يمزح ولبرهة وجيزة ظنّ أن هذا صحيح. امتد السهل المغطى بالزرع في الليل كأنه سهل البقاع. حين أطلت مع الفجر مدينة يحضنها نهر

كثير الصفصاف أخضر الضفة قال أحدهم: «هذه زحلة!». لم يضحكوا لأنهم كانوا نائمين. مال نعمان على بشير الذي يصحبه كظله. بدوا شخصاً واحداً نبت له رأسان. تحركت غيوم في الأعالي وغيّرت حرارة الجو. كان سيرهم بليداً الآن وشخر جنود وهم يتهادون. بانت قرية صفراء الحيطان كأنها منحوتة في سفح الجبل. «لم أعد أقدر!» سمعوا الجملة كما سمعوها من قبل كثيراً، لكن هذه المرة ارتطم أحدهم بالأرض مثل جرة ثقيلة. كان هذا الميت الأول في رحلتهم. الجنود أعطوهم وقتاً قصيراً للراحة، ورفشين. حفروا بسرعة ودفنوا بسرعة الشيخ عبد الخالق الدويك.

(دروب البوسنة - 3)

قضى في الرحلة الى حبس الهرسك تسعة بينهم جندي أسقطته ضربة شمس عن حصانه. الباقون قتلهم الاعياء والجفاف. نجا حنا يعقوب لأن قاسم عز الدين حمله كالخروف على كتفه. وقعت عليهم أمطار الخريف في الوادي الذي يسمّونه وادي رامة. الجنود أشعلوا ناراً وأكلوا بينما المحابيس يتلاشون. بعد تلال وأودية أبصروا قرية رأوها من قبل وحدسوا أن الدروب تستدير تبعاً لخطة لا يعرفها إلا الربّ والجنود. أنهكهم العطش والجوع. تحجرت عضلاتهم المجهدة حتى صاحوا ألماً. «هكذا سنموت اذاً، بلا رصاص، على الطريق!» ارتاحوا عند ضفة موحلة. تقافزت الضفادع بينهم جاحظة العيون تتفقدهم. تحرك محمود بين الأجسام كأنه يزحف. حنا نظر عبر ضبابة الى شفتين متشققتين

بلون الملح. «أحمله عنك؟» لم يدرك أنه المقصود بالحديث حتى بعد أن رفعه قاسم من جديد. عند الغروب تطاولت الظلال. سمع بشير يقول لأخوته شيئاً عن النّبي أيوب. حنا أراد أن ينزل ويمشي معهم. فتح فمه لكن قبل أن ينطق سقط في نومٍ عميق. هكذا دخل حنا حبس الهرسك نائماً. الشيخ مهران من قرية الدبّية في بلاد الشوف مات في مدخل حبس الهرسك. كان الميت الدرزي الثامن بعد الخروج من بلغراد. لفظ كلمة واحدة: «أخيراً!» وهوى نازف الأنف على البوابة المرصعة بالمسامير. دفنه شغيلة الحبس في المقبرة المجاورة، تحت أشجار زلزلخت. حمد الأعمى الذي غافل الجنود مرات وركب البغلة تحت ستر الليل ونجا، رمى نفسه أرضاً عند البوابة كي يحمله الباقون. سأل من الذي مات الآن؟ أخبروه انه الشيخ مهران. بكى وظلّ طوال أيام يبكي كلما مرّ الشيخ في ظلام دماغه أو خُيل اليه أنه يسمع ضحكته. ساعده الشيخ مهران على الطريق مرات لا تُعد، وساعده قبل ذلك، قبل أن يخرجوا في هذه الرحلة البوسنية اللعينة التي لن ينساها حمد السعدي حتى يموت عجوزاً في قرية أبيه في جبل لبنان.

(حبس الهرسك)

فرقوهم. طرحوا حنا متورّم القدمين مشقق الفم في قبو مملوء بمحابيس غرباء تظهر وجوههم من الظلام ثم تتراجع وتختفي. سألوه بلغات كثيرة ما اسمه ومن أين يأتي ولماذا حبسوه. كان عاجزاً عن تحريك لسانه كأنهم لطموا أسنانه مرة أخرى. همهم

كحيوان ثم دخل في حائط واختفى من العالم. أيقظوه في الصباح للأكل ووجد كاحله مقيداً بسلسلة حديد الى حلقة مطروقة في الأرض. اكتشف سائلاً أصفر- أسود يتدفق من قروح قدميه. حاول أن ينزع مداسه فخرجت الصيحة كالوطواط من جوفه وخفقت بين المحابيس حتى خبطوا الهواء بأكفهم وشتموه. «نريد أن نأكل!» حدجه أحدهم بنظرة فظيعة. زحفت يد على الأرض وأمسكت مداسه. هذه المرة عضّ على صرخته فخرجت أنيناً. كان عليه تقشير المداس عن قدمه المتورمة كما تقشر حبّة فاكهة. الرجل الذي ساعده كرواتي من الشمال، أهله في زغرب، سرق ماشية خارج سراييفو، وانتهى - بعد عراك مع جنود - هنا. تكلما بمزيج عجيب من أربع أو خمس لغات، كلمات منتوفة كالريش من طيور مهاجرة. ميّز حنا كلمات حفظها في القلعة البيضاء غير متأكد الى أي لغة بالضبط تنتمي. سأل الكرواتي بالحكي والإشارات أين هم الآن. «نحن في الحبس.» ضحكات فرقعت كالبواريد من الزوايا المظلمة. بان وجه محطم الأسنان يلوك خبزاً وشتمه بلغة تشبه التركية. ثم اختفى. الكرواتي أجابه على سؤاله: «الهرسك.» نور النهار تسرب الى القبو من كوة عالية شبه مسدودة. العمود الأبيض الرفيع كقصبة سقط في نقطة تضيء سطل الخبز الفارغ. حين تحركت بقعة الضوء امتدت قدم مقلوعة الأظافر وزاحت السطل فسقط على جنبه. مرات لا يقع السطل وتنير النقطة جنبه. في اليوم الأول في حبس الهرسك لم يكن حنا يعقوب يعلم أن هذه النقطة الشمسية البيضاء على جنب السطل ستصبح تقليداً ثابتاً وجزءاً أساسياً من حياته. قبل الظهيرة تبدد العمود المشع ولم يبق غير خيط النور الشبحي الذي لا يشبه النور لكنه يدلّ الى الوقت في

الخارج. تحامل على نفسه وجرّب الوقوف. بدنه المحطم عوى كذئب. استند الى الحائط ثم تراخى وزحف ودبّ باتجاه نقطة يقصدها الآخرون. أحدهم قبض على سلسلته ومنعه من بلوغ «الجورة». عند الغروب أخرجوهم في «نزهة» الى باحة الحبس. أشفق عليه أحد الشغيلة وأعطاه نصف سطل ماء كي يغسل الوسخ عن فخذيه وإليته. خاف أن يموت وهو يبكي. سالت فتحات وجهه كلها. انتظر «النزهة» في اليوم التالي لكن الباب لم يتحرك. اكتشف أنه كان محظوظاً لأن «النزهة» لا تحل كل يوم. أحياناً يطول الإنتظار عشرين يوماً. في إحدى الفترات ثبتوا «النزهة» في موعد محدد: يوم الجمعة. لكن ذلك لم يطل. مع حلول الشتاء واشتداد البرد أعطوهم جلود حيوانات غير مدبوغة. التفوا بها وفركوها فركاً شديداً على أبدانهم قتلاً للقمل والبراغيت. اصطكت أسنانهم في الظلام وازرقت أظافرهم لكن القمل العجيب لم يتأثر بالصقيع وضاعف تكاثره. قضى أحدهم ولم ينتبهوا الا عندما لاحظوا غياب يده الموشومة: كانت سريعة كمخلب أسد وتنقض على الخبز انقضاضاً. لم يشمّوا الجثة بسبب الجليد. بعد فترة جاء حارس وأخذ الكرواتي الذي ساعده. لم يرجع. لم يعرف حنا هل أطلقوه أم نقلوه أم. . . ذات صباح وزعوا عليهم قطعاً من اللحم المقدد لأنه العيد. لم يفهم حنا أي عيد يعنون ولم يسأل. منذ شهور لم يفتح فمه كي يتكلم. تلمس اللحم الجاف بأصابعه تائهاً في كيس أسود. استند بجبهته الى الكيس الغامض وبحث عن ثقب ينفذ منه الى الخارج. لم يكن متأكداً من وجود ثقب أو حتى كيس. برم رقبته. خاف أن يقع رأسه. كان مفككاً والعفن يسبب له حكاكاً تحت إبطيه وبين فخذيه وفي دبره. سمع في الظلام أنهم

يأكلون. قضم القطعة القاسية ولاكها. بدت أليفة الرائحة كأنها قطعة منه، قطعة من الجلد غير المدبوغ الذي يلفه مثل جلد ثانٍ فوق جلده. أخرجوهم في «نزهة» وشاهد الأشجار عارية الأغصان تطل من فوق السور وتشتبك بالغيم الأسود. كانت الريح قارصة، تعمي العيون، لكنهم تحركوا قافزين في الباحة ولم يبالوا بالجليد. طالت «النزهة» للمرة الأولى وأخرجوا محابيس من أقبية أخرى. ارتعش حنا حين أبصر وجهاً يعرفه. سار في خطٍ مستقيم حتى بلغ الرجل الأصفر اللحية الملتف بجلد مبقع مثل ثعلب مريض. كان يترنح ويبدو عجوزاً بسبب سعاله وانحناء ظهره.

«هذا أنا يا شيخ محمود. أين قاسم؟»

(حبس الهرسك - 2)

أمسك به الشيخ محمود غفار عز الدين من كتفيه وهزّه باشاً كأنه وجد إبناً. شدّه اليه بقوة غير متوقعة. ترنح الهيكلان المتصدعان بلا صوت ثم تباعدا.

«فكرنا أنك مت!»

«قاسم معك؟»

«لم أرَ قاسم منذ فرقونا لكننا نعرف أنه هنا. رأيت بشير ونعمان مرتين. لم يفترقا. في قبوي أربعة غيري من جماعتنا. الباقون أغراب. وأنت؟»

«لا. وحدي.»

بدا الصوت ضعيفاً، مريضاً، يستصعب تسلق الحبال كي يخرج من الفم.

«ضربوك؟»

لم يرد حنا. نظرته تاهت أعلى من الكتف المنحني تمسح الوجوه الجديدة التي أطلّت للتو خارجة من بطن الأرض. كانوا غابة وجوه مشعرة محطمة، سوداء وشقراء وصهباء، والعيون منطفئة تحاول أن تشتعل من جديد ويصفعها البرد. اكتظت الباحة وعلت الاصوات. استدار الشيخ محمود يبحث مكتوف الذراعين عن أخوته. كرّر جملته: «فكرنا أنك مت!»

*

دروز آخرون ظهروا وتجمعوا. سلّموا على حنا وسألوه عن صحته وسألوه هل معه دروز في قبوه. بعضهم كان يتكلم معه للمرة الأولى منذ خرجوا من ميناء بيروت قبل ثلاث أو أربع سنوات. أحدهم - هذا الشيخ عماد الدين محمود من الباروك - تأخر قبل أن يبصر المجموعة المتكتلة في زاوية الباحة هرباً من الريح، وحين أبصرهم جاء راكضاً كأنه ولد منادياً أسماءهم من بعيد قافزاً فوق أغراب متجمدين كالجثث. عانقهم واحداً واحداً وباس أكتافهم وباسوا كتفيه. حين وجد نفسه في مواجهة حنا نقل نظرته بسرعة البرق الى الشيخ محمود غفار عز الدين ثم ضحك وضمّ حنا إليه: «أين كنت يا شيخ سليمان؟ خفنا أن يكونوا فتكوا بك!». أرعدت السماء. انهمر المطر خفيفاً. برقت عيونهم. «أين حمد السعدي؟» سكن الهواء لحظة. بدا المكان مسحوراً بلا صفرة الريح. «حمد في المقبرة.» سمعوا قرع حجارة والتفتوا بينما العصا تنقرهم في أجنابهم والضحكة الطفولية ترتفع. «اذكرْ الذيب!» كان

هذا حمد الذي سمّوه «المحظوظ» لأنه لم ينزل في أقبية الهرسك. أخذه الجنود للعيش مع العميان في مساكنهم على حائط المقبرة. أخرج من جيوبه زبيباً وقضامة محمصة ووزع عليهم: «عيدية!» كان الرسول وجامع الأخبار والمتنقل بين أبنية الحبس كلها بلا اعتراض أو حاجز. سألوه أين الباقون وقال المكان لا يتسع للجميع، هذا أكبر حبس في السلطنة العثمانية. تلمسوا كتفيه بلا انتباه.

«رأيت الشيخ خطار ويُسلم عليكم.»

ضحكوا لأنه يقول «رأيت» من دون أن يضحك.

«وقلت له انتبهْ لصحتك لأن وجهك مصفر!»

السجناء الأغراب التفتوا مبعثرين ونظروا الى المجموعة الضاحكة المتكتلة. كان المطر ستارة شفافة مخرمة. وراء الستارة ضحكوا كأنهم أصيبوا معاً بمرض غير مفهوم.

«من هؤلاء؟»

«دروز بلغراد. يقولون انهم جاؤوا مشياً على الأقدام من بلغراد الى هنا بلا أكل وبلا راحة!»

«وأنت أبله كي تُصدق؟»

(حبس الهرسك - 3)

دارت عليهم السنة - من «العيد» الى «العيد» - وطحنتهم كحبّات قمح تحت حجر الطاحونة. تفريقهم حطّمهم. حين اجتمعوا من جديد، في «نزهة العيد» في باحة الرياح والرذاذ ذاتها،

تعانقوا بلا صوت. عيون رطبة رمشت تقاوم الهواء والصقيع. هذه المرة حضر الأخوة عز الدين جميعاً. بشير ونعمان سلّما على حنا معاً، كأنهما شخص واحد. بتروا ذراع نعمان في بلغراد فانقطع لسانه. لم يسمعه حنا يتكلم منذ جلسا في بطن السور تحت غيمة البارود. حفرت جبهته تجاعيد. وجنتاه غارتا كأنه فقد أسنانه. بدا أخوه بشير يافعاً جنبه مع أنهما متقاربان في السنّ. الشيخ محمود ظهر أحسن صحة من المرة الماضية لسبب واحد فقط: غياب السعال. وقف قريباً من حنا ووضع يده على كتفه. حين أطلّ قاسم آتياً من بعيد عرفوه على الفور: لم يتبدل، كأنه أمس فقط افترق عنهم! ألقى عليهم السلام وكسر السحر: سمعوا صوتاً محطماً خافتاً كأنه يخرج من أعماق سحيقة. طال عناقه لأخيه الكبير محمود. كان يجرب الابتعاد فيحضنه الشيخ محمود من جديد. سلّم على حنا ونظر الى أسفل. سمعوا بعد أيام، متفرقين في أقبيتهم، أنه قضى سنة كاملة في «البئر». زنزانة حجرية ضيقة عميقة في الأرض لا يبلغها ضوء ولا صوت، يُعاقب فيها السجين بأن يُحبس وحده تماماً ولا يرى وجه انسان آخر. الخبز يُلقى اليه في الظلام حتى لا يموت. الماء يتسرب من شقوق الحجر. لعلها بئر غار ماؤها. تبادلوا الأخبار وحين سألوا قاسم عن قبوه والمحابيس معه أجاب وهو يبرم رقبته ناظراً الى الباحة ورؤوس الأغصان فوق السور: «مثلي مثلكم. لكن مرات يؤلمني ظهري لأن المكان ضيق.» أشار الى طير يعبر السماء وجلس على الأرض. وهكذا جلسوا. بدا أصفر اللون، جلده مطفأ أقرب الى بياض الشمع. نقل نظرته بين وجوههم كأنه يسترجعها من النسيان ويحفظها من جديد. أخبرهم أنهم منذ فترة نقلوه الى قبو جديد وهذا أحسن من

الذي قبله وفيه ضوء شمس وبعض المحابيس معه يعرف التركية وقليلاً من العربية وهكذا يتكلمون ويمضي الوقت. اقترب دروز آخرون. نهضوا وسلموا عليهم ثم جلسوا معاً في حلقة. ظلوا يرفعون عيونهم الى السماء ويفتحون أكفهم لالتقاط قطرات المطر. لم يأتِ الشيخ عماد الدين محمود. لكن حمد الأعمى أخبرهم أنه رآه قبل يومين. «عنده حمى. ودود في البطن.» سألوه أين الشيخ حليم أبو خزام؟ أخبرهم أنه مات في الصيف. سألوه لماذا لم يخبرهم؟ «أخبرتكم الآن.» تهدج صوته. «أنت مثل أبيك يا حمد، الله يردك اليه ويسعد بك وتسعد به.» اقتربوا من الأعمى وربتوا على كتفيه. سألوه كيف مات الشيخ حليم الله يرحمه؟ «مات أحسن موتة. وهو نائم.» ترحموا على الميت وسمّوا أولاده وأهله في قريته. سكتوا ولم يكملوا العد ولم يذكروا بقية أقاربه في أنحاء الجبل. تعبوا. «أنا والمشايخ العميان صلينا عليه. دفناه جنب الشيخ مهران.» حنا سمع كلمات حمد الأعمى بينما الجرس يُقرع. حارس أشقر الى حد البرص دار يرن الجرس متنقلاً بين مجموعات المحابيس. أسرعوا واصطفوا. اقترب من الدروز وتوقف لحظة عن هزّ معصمه وأمرّهم بالتركية: «أنتم ابقوا هنا. الباشا سيُشرفكم برؤيته.» ثم مضى قارعاً الجرس.

(اخبار طيبة)

لم يبقَ غيرهم في الباحة. بدت واسعة فجأة. كفّ الرذاذ عن التساقط. الجنود الواقفون على مسافة في صف شبه منتظم نظروا

الى الدروز المتراصفين وابتسموا. كان ذلك غريباً. أمروا حمد الأعمى أن يصطف مع الباقين فوقف في الخلف وصار يطرق الرجل أمامه بالعصا. حين انفتحت البوابة الكبيرة في طرف الباحة ودخل الباشا على فرس سوداء توقفوا عن التنفس. عامر بيك البوشناقي صاحب الهرسك رئيس الحبس يُعرف بالباشا هنا لأن سيادته مطلقة: رجل نحيل لين كثعبان تهادى على فرس تنقاد للرسن الحرير بين أصابعه انقياد جارية. دخل وحده. انغلقت البوابة خلفه واختفت خضرة البرّية الملونة بالأصفر. لمحوا العالم الخارجي لحظة ثم عادوا الى جوف الباحة العالية الأسوار. ضوء الغروب تكاثف الى درجة السيلان، أحمر كالدم، على مداسات ممزقة وأقدام حافية. أومأ الباشا وهو يدنو فتحرَّك الجنود وأفسحوا لشغيلة خرجوا من مكان خفي يحملون سلالاً ثقيلة. وضعوا السلال أمام الدروز: كانت مملوءة تفاحاً.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.»

تكلم عامر بيك البوشناقي من فوق السرج. كان نطقه العربي سليماً بديعاً كاملاً.

«كلوا، تفضلوا، هذا هدية لكم مرسلة من أهلكم في جبل لبنان. أهلكم يعرفون أنكم هنا الآن وفي وقت قريب ان شاء الله نردكم اليهم. أحمل لكم أخباراً طيبة. أخوتكم المنفيون في طرابلس الغرب صدرت الارادة السنية بالافراج عنهم وهم الآن بين أولادهم ونسائهم في منازلهم التي رجعوا اليها في بلدكم. لم يرجعوا كلهم لأن عدداً منهم قضى في الحبس، هناك الطقس شديد الحرارة، أنتم ربما لا تعرفون الصحراء، صحراء افريقيا رهيبة، الرمل والعقارب، لكن رحمة الله واسعة والقسم الأكبر من أخوتكم

عادوا في صحة جيدة ويدعون لكم، أرسلوا الرسل ويسلمون عليكم. قرُب الفرج وأظن أنكم أنتم أيضاً تخرجون في وقت غير بعيد. هم كانوا محكومين فترة أقصر منكم، سبع سنوات فقط، لكن سلطاننا المفخم أحبّ أن يتكرم عليهم وسامحهم بثلاث سنوات، وأنا أسمع أن جناب الوزير فؤاد باشا يسعى من أجلكم ولعلكم تخرجون قبل العيد. كلوا، تفضلوا، لكم أيضاً هدايا أقمشة ودنانير لكننا نحفظها لكم حتى يحين وقت خروجكم من ضيافتنا. أنا لا أجد هذا المكان مكانكم، أنتم جاهدتم من أجل رضى السلطان كما أسمع لكن الاحوال شاءت ان تنتهوا بعيداً من أرضكم. جناب راسم باشا كتب لي وسألني عن أحوالكم. يقول انكم بناة مهرة وعمرتم حيطاناً متينة فترة نزولكم في بلغراد. يقول انكم تحبون الشغل. اذا حلفتم أمامي أنكم لن تحاولوا الهروب أخرجكم للعمل في الحقول. هكذا تصير محكوميتكم أسهل وأخف عليكم بانتظار صدور الارادة السنية. تشاوروا الآن وهاتوا جواباً.»

(بلا سلسلة)

لم يلمس النوم رموشه تلك الليلة. دخل القبو تصحبه رائحة التفاح العجيبة وحتى الذين اعتادوا لطمه أو مدّ الساق أمامه أو شدّ سلسلته خافوا منه. شعر بهم ينكمشون. الحارس الذي أوصله الى باب القبو لم يدخل معه ولم يقيده الى الحلقة. قضم التفاحة الفواحة العطر وأعلمه بتركية صار حنا يفهمها أنه لن يربطه بعد اليوم. انتظره حتى بلغ زاويته ثم تراجع مع المشعل وأقفل الباب.

وجد نفسه قاعداً بلا سلسلة! كان هذا شيئاً عجيباً! لا أحد في القبو أُعطي هذا! حتى الألباني الملقب بالثور والمستبد بالمحابيس حوله كأنه السلطان في أسطنبول، حتى «الثور» مقَيَّد بسلسلة! تقدم الليل وأصغى اليهم يشخرون كما فعل طوال السنتين الماضيتين لكن في هذه الليلة بالذات كان شخيرهم مختلفاً. شعر أنه يطير أعلى فأعلى. كأنه سكران. كأنه ملأ جوفه نبيذاً. تلمس الجلد الميت لكاحله. مدّ يده في الليل ولمس الحلقة الحديد المطروقة في الأرض كأنه يداعب قطعة من جسمه. «هذا حقيقي؟ أنا مفكوك؟ اذا وقفت الآن لا أسمع قرقعة؟ أقدر أن أمشي فوق النيام الى الجهة البعيدة وأرجع؟» لم يتحرك من مكانه. «يُفرجون عنا؟ هذا حقيقي؟ لكن الباشا قال ذلك! أنا سمعت!» لسانه دار في فمه، لمس قشرة تفاح عالقة بين أضراسه. «أرى هيلانة وبربارة؟ أسير في الأسواق؟ أنام على فراشي في بيتي مغسول الجسم شبعان البطن لابساً قميصاً نظيفاً؟ أنهض في الفجر سامعاً الدجاج في القن وراء الحائط؟ معقول؟ أخرج؟ هذا حلم أم حقيقة؟» عضّ على شفته وأدماها ولحس الدم: طعم الكبدة النيئة. «أصل الى بيتي وأحمل بربارة بين يديّ وأشمّ رقبتها؟» أغمض عينيه ثم أسندهما الى قبضتيه كأنه يخشى وقوعهما من المحجرين وقوع الخوخ الناضج عن الشجرة. شدّ حتى رأى خيوطاً بيضاء في قلب الظلمة. سدّ أذنيه مانعاً أصوات القبو وحاول أن يتذكر الطريق أول المساء من المرفأ الى البيت. اعتاد أن يرفع وجهه عند بلوغ سوق الفشخة كي يرى البرج الحجري لكنيسة مار الياس الكاثوليك يطلّ من وراء جامع السراي الذي يسمّونه «جامع عساف»: هذا البرج بجرسه النحاسي امتداد لبيته. يقطع السوق متمهلاً بعد رؤيته لأنه وصل

تقريباً. حاول أن يتذكر صف الدكاكين الصفراء بينما تُقفل والوجوه الودودة التي تردّ تحيته والاسكافي الأبيض الحاجبين الذي يتأخر ويشعل القنديل المعلق قاعداً في باب دكانه الضيق وهو يبدو مهموماً بسبب أشغاله وبسبب الضوء الضعيف. وبعد مصطبة حمادة الخيّاط الذي لم يره مرة بلا خيط يقطعه بأسنانه، سبيل الماء والدرج المبري المسقوف الذي يسبق حارة اليهود بالأبواب الخشب الخضراء القديمة وأحواض الحبق والمردكوش عند القنطرة، والمرأة السمينة التي لا يعرف اسمها والتي تخرج في تلك الساعة مكشوفة الكتف وترمي مياه الغسيل في القناة ثم تختفي مرة أخرى. كم سنة مرّت؟ أراد أن يقيس الوقت واكتشف أنه لا يعلم كيف بالضبط وقرر أن يسأل الآخرين حين يراهم. «نخرج للعمل في البساتين كما فعلنا في بلغراد؟ متى؟ الشتاء لم ينتهِ بعد. في الصيف؟» سمع هديراً بعيداً. كأنه رعد. من الكوة العالية تسرب هواء بارد. «تشتو في بيروت الآن؟ يدلف سقف بيتنا؟ هل حدلت هيلانة السقف وحدها في غيابي؟ أهملت حدله بعد الشتوة الأولى وتشقق التراب والطين؟ هل هيلانة في البيت، بيتنا؟» ضايقه حكاك كاحله، كأن اللحم افتقد السلسلة. قبض على منطقة الحكاك وأصغى الى سجين يتكلم في نومه. كان معتاداً على هذا. فهم عدداً من كلماته البوسنية وأدرك أنه يحكي مع أمه عن حمار أو بقرة وعن سياج مكسور. بعد الحكي أخذ يصيح ويلعن كأنه تعارك مع أمه التي لا تسمع أبداً ما يقوله. ثم لطم نفسه - أو لطمه أحدهم - وهمد. «هيلانة في البيت مع بربارة؟» انتابه خوفٌ شديد. ارتجف وحضن ركبتيه وظلّ هكذا.

(زيارة)

تساقط المطر أياماً لا تنتهي وتحول القبو الى مستنقع. ذات ظهيرة مظلمة سمع المفتاح في القفل وظنّ أنهم جلبوا سجيناً. كان شبه نائم لكنه رأى اللهب. تحرك المشعل فوق رأسه فقام مذعوراً.

«جئت كي أرى وجهك يا شيخ سليمان.»

لم يفهم ماذا يحدث بسبب قوّة الضوء المنصب في عينيه. تحرك المشعل متراجعاً وعندئذٍ فقط ميّز الوجه المشوه بحروق البارود. كان هذا حمد الأعمى. وجد أخيراً الطريق الى قبو حنا. أتى رطب الثياب يحمل اليه سلام أخوته وحفنة ورقات تشبه ورق البلوط هدية.

«ما هذه؟»

«دواء لوجع البطن والاسهال. مرّة كالقصعين لكن نبتتها قصيرة كجبّ الفرفحين تلتصق بالتراب تقريباً. لا تنمو الا في البوسنة والهرسك. وراء المقبرة تتقاتل النساء على قطفها.»

وقفا في الدهليز المبلول خارج الباب المردود والمتروك بلا قفل. على بعد خطوات جلس الحارس يمضغ تبغاً ويبتسم. بدا مخبولاً أو على حافة الخبل.

«متى نخرج يا شيخ حمد؟»

«من يعرف يا شيخ سليمان؟»

«سكنك أحسن من هنا يا شيخ حمد؟»

«أين؟ حدّ المقبرة أم في قريتنا في الجبل؟»

نظر الى الوجه المحروق يضحك واستغرب كم صار هو -بائع البيض- عاجزاً عن الضحك.

«لم أعد أقدر يا شيخ حمد.»

«اصبرْ يا شيخ سليمان، اقترب الفرج. اشكرْ ربك أنك مفكوك ولست وحدك في القبو. هذه نعمة من ربنا. أخوك الشيخ قاسم تركوه في البئر سنة بأكملها لا يرى وجه مخلوق ولا يسمع الا نفسه. أنا وأنت في نعمة. لو تركوه تحت أطول كان فقع قلبه. الآن مرتاح وسألني عن صحتك. هو قال لي بعظمة لسانه: كيف تتحمل بلا نور يا حمد؟ هكذا سألني. قلت له يا شيخ قاسم أنا أرى، أسمع أصوات أخواني وأشعر بهم يتحركون أمامي وأشمّ جلودهم. أمدّ يدي وألمسهم. أحفظ وجوههم من قبل وأعرف كيف تنظر عيونهم اليّ وأصير أراهم كأن المدفع لم ينفجر قدامي.»

«أنا لست مثلكم يا شيخ حمد. أنا حتى لا أعرف كيف صمدت حتى الآن.»

«ما هذا الصوت؟ ماذا يفعل الحارس؟»

«ينقر الأرض بسكين. ويصفر.»

«كم عمرك يا شيخ حنا؟»

«أكبر منك يا شيخ حمد. لكني لا أعرف عمري. ولدت قبل سنة القصف الانكليزي. أظن عندما أخذونا من بيروت كان عمري 23 أو 24 سنة.»

«وعندك بنت صغيرة؟»

هزّ حنا رأسه.

«لماذا لا ترد؟»

«عندي بنت صغيرة.»

«ماذا أسميتها؟»

«بربارة.»

«أنا عندي أبي. أخذوني من الجبل قبل أن أتزوج. كنا نعدّ العدة وعمتي تتحضر مع أبي لزيارة أهل البنت عندما بدأت الحرب، وأبي زوّجني البارودة. أنا طلبتها. لا أعرف كم مسيحياً من ملتك قتلت يا شيخ حنا لكنني لم أقتل ولداً ولا إمرأة. حتى الآن يدي لم تمس بنتاً. أمي وقعت وماتت في حقل الزيتون وأنا طفل. أبي ربّاني وحده. حين حبسونا في دار المختارة قبل أن ننزل الى بيروت أخرجوني كي أقابله دقيقة. قال لي «توكل على الله» وأراد أن يكمل لكنه لم يقدر.»

مدّ حمد الأعمى يده ولمس حجارة الحائط. عثر على فاصل بين حجرين. حرّك رؤوس أصابعه كأنه يُقلد عنكبوتاً. الحارس تابع نقره بالسكين بلا اهتمام. جلسا على الأرض. من مكان بعيد جاء هدير رعد.

«أردت أن أموت عندما راح بصري. لا أقدر أن أخبرك ماذا شعرت. كنت أسمعكم في القبو وأفكر: اذا أخرجونا لن أخرج معهم لأنني أعمى الآن. عذاب الحرق ينتهي لكن العمى كيف ينتهي؟ أبي ينسخ «رسائل الحكمة»، هذه عندنا مثل الإنجيل عندكم، ننسخها باليد لأن طبعها حرام. مع أن أبي عجوز جاوز السبعين، يده لا ترجف أبداً. خطه أجمل من سمك النهر. علّمني الكتابة وأنا صغير. خطك مع السنوات سيصير أجمل من خطي، هكذا يظلّ يقول لي. عندما عميت فكرت أنني لن أرى وجهه مرة أخرى.»

تنفس حنا كأنه يختنق ولم ينطق.

«أردت أن أطير الى البيت كي يراني ويقول لي كلامه. لا أعرف كيف تحملت تلك الأيام. لولا الشيخ مهران كان قلبي فقع.

سمعني أبكي وسألني لماذ أبكي. اشتقت للبيت، قلت له، وخائف على أبي. قال لي كل ليلة قبل أن تنام تكلم مع أبيك كأنه هنا وأخبره ماذا فعلنا في النهار. هكذا يسمعك في الجبل وهو قاعد ينتظرك.»

(حكاية مصطفى مراد وبناته الثلاث)

منعهم هذيان الألباني من النوم لكنه سكت مع أذان الفجر وناموا. أيقظتهم جلبة الحارس وبينما يضع سطل الخبز أعلموه أن «الثور» قضى.

«عظيم. أراح البقرات هنا وفي الخارج.»

ضحك وتوارى مقفلاً الباب. ظلت الجثة بينهم حتى الغروب وعند المساء أتوا وأخرجوها. حنا نظر الى ثلاثة أولاد حبشيين يتصارعون مع الجثة الثقيلة وهم يجرونها. الموت ضاعف ثقلها مع أنها كيس عظام وحسب. الحارس حَدَّقَ الى الميت باسِمَ الوجه. لهب المشعل تراقص حوله. حين أُقفل الباب من جديد مسح حنا العرق عن وجهه وحاول أن ينام. لكن سجيناً آخر بدأ يهذي. ابتعدوا عن المحموم والتصقوا بالحيطان. هجعوا كالدجاج في موجة حر. بعد نصف الليل تسرب الى القبو ضوء حليبي عجيب. حنا الساهر تحرك من مكانه ورأى قطعة من القمر. سمع شخصاً نائماً في أعماقه يئن. القطعة البيضاء بياض الجبنة سدّت الكوة العالية. أصغى وعرف أنه أنين المريض: كفّ عن هذيانه لكنه يبكي الآن. حين جلبوا حنا الى هنا قبل سنوات رأى هذا الرجل

في الزاوية الأبعد من «الجورة» ينقر برأس اصبعه الحائط. كان في العقد الخامس أو السادس، مطفأ الجلد، مترهل الرقبة، يشبه خواجات بيروت أصحاب الوكالات والمخازن على المرفأ. عمامة خضراء لفّت قبة رأسه في ذلك الوقت لكن زمن الحبس رقّقها ثم بدّدها. لم يسمعه يتكلم الا نادراً. عمّق الحفرة في الحائط حتى صار اصبعه يختفي فيها. في تلك الليلة المقمرة التي أعقبت موت الألباني سمع الرجل المحموم ينادي عليه بالعربية. قبل ذلك لم يسمعه ينطق الا بالتركية.

«يا شيخ سليمان، يا شيخ!»

نظر الى وجه مستدير يرتعش مغموراً بالعرق ويراقبه بعينين أصغر من حبّتَيْ عدس.

«ماء. نقطة ماء.»

لم يتحرك. رأى لحية شقراء ترتجف بينما الرجل يحاول أن يرفع جذعه.

«لا تخف. أنا لستُ مريضاً مثله. لن تمرض.»

جلب للرجل كوز ماء.

*

في خان أكمكجي زادة في مدينة أدرنة امتلك الحاج مصطفى مراد متاجر ومستودعات. جد عائلته الكبير حسين رستم كان طباخاً في بلاط السلطان مراد الثاني ومن بعده صارت كنية العائلة مراد.

أصابوا ثروة مع الفتوحات العثمانية في بلاد المجر وهكذا نشأ مصطفى مراد طفلاً محاطاً بالحرير والعبيد في قصر أبيه المطل على جامع السليمية، أجمل جامع في العالم. قبل أن يتزوج حجّ مع عمه الى مكة المكرمة وطاف الكعبة وزار قبر الرسول الأكرم.

أعطوه بنتاً أسطمبولية من عليَّة القوم. رُزق منها ثلاث بنات. قضت زوجته بعد وقت قصير من هجوم الروس على أدرنة. حين خرجوا وزال الخطر عن عاصمة السلطنة اكتشف أنه لم يفقد زوجته أم بناته وحسب بل تجارته أيضاً: احترقت في القصف مخازن أكمكجي زادة. لم يتحطم واستدان مالاً وبنى تجارته من الصفر وصار يرسل قوافل الى أقصى الغرب، الى تخوم السلطنة، ويستقدم قوافل. كان يكفيه النظر الى أقماره الثلاثة كل مساء عند رجوعه الى البيت كي يجدد شبابه. تزوج خالتهن لا حباً بها بل من أجلهن. حين بلغت الكبرى سن الزواج صدع الطالبون القرب رأسه. أعطاها لتاجر مؤمن كريم يجاوره في خان أكمكجي زادة. بعدها بسنة زوّج الوسطى لتاجر صاحب سفن أصله من طرابزون على البحر الأسود لكنه مقيم بين أسطنبول وأدرنة. حين أتى الخاطبون في طلب الصغرى التي سمّاها هند رفض تزويجها. كان متعلقاً بها الى حد الوله والخالة التي صارت زوجة لم تقل شيئاً. هي أيضاً أرادت بقاء هند في البيت. تاجر يسافر ثلاث مرات في السنة بين أدرنة وسراييفو محملاً بالأقمشة وأنابيق عطر الورد وأقفاص الطيور المغردة تناول طعام العشاء مرة واحدة في ضيافة الحاج مصطفى مراد ورآها. كانت تعبر الممر ولاحت منها نظرة فأصابته في قلبه. التاجر اسمه سيد خيري. في سراييفو ينادونه سيد الأدرني. حاصر الحاج مصطفى مراد حتى استسلم لرغبته. لم يقنعه الذهب الذي بذله سيد خيري مهراً بلا تردد. أقنعته هند. أرادت أن تتزوج.

«لكن سراييفو بعيدة يا ابنتي. هذه وراء بلاد البلغار، في جبال البوسنة.»

«أعرف أين هي يا أبي. أنت قلت لي. تشتري منها ومن مدينة موستار وتبيع فيها.»

«أريدك قريبة مني يا هند. انتظري وأجد لك زوجاً في أدرنة.»

«أنا دائماً قريبة منك يا أبي. حتى في سراييفو.»

كسرت البنت ارادته. أعطاها لسيد خيري. كان رجلاً وسيم الملامح عسلي العينين نظيف الثوب لا يُظهر الا الودّ والصدق ولا يتأخر يوماً في تسديد ديونه. اذا وعد بتسليم حمولة تصل مهما هبت عواصف أو ثارت فتن. واذا حمل بضاعة بالأمانة حرص عليها فلا تتلف في الدرب ولا تصيبك خسارة. ذهبت هند معه الى سراييفو مثقلة بهدايا تزيد عن المهر الذي دفعه. رآها الحاج مصطفى تنظر اليه من فوق الهودج وأراد أن يمد يده ويلقط رسن الجمل. لكن القافلة تحركت وهند كما يعرفها ضاعت الى الأبد.

(حكاية مصطفى مراد وبناته الثلاث - 2)

الصوت الذي يحكي همساً في القبو النائم ملأ حنا بذكريات لا يدري كيف فقدها. زمن طويل مرّ لكن ماذا حدث في هذا الزمن؟ لا عامر بيك البوشناقي أخرجهم الى الحقول كما وعد ولا حمد الأعمى رجع كي يزوره. روى الحاج مصطفى قصته فرأى حنا خان أنطون بيك في بيروت بدلاً من خانات أدرنة وشاهد القوافل الداخلة من باب الدباغة يقودها شوام بدلاً من القوافل البوسنية الخارجة من أكمكجي زادة. كلما قال الحاج «هند» غصّ. جوزة رقبته بدت متورمة. تتحرك كأنها تنبض.

«سنتان ولم أرَها وكلما أتى الى المدينة يخترع حكايات كي لا أذهب الى سراييفو لرؤيتها. في السنة الثالثة لم يأتِ. كنت قاعداً في المتجر بين أكوام القماش، أطلس ثمين وحرائر رومية، ورأيت أنني خسرت كل شيء. كنت فعلاً بدأت أخسر في تجارتي: من دون بناتي لم أعد أحب ما أفعله. حزمت أغراضي وذهبت الى أسطنبول ونزلت يومين عند ابنتي وزوجها وفرحت بأحفادي. لكن هذا لم يزدني الا شوقاً لصغرى بناتي. وهكذا سافرت الى سراييفو. سألت عن بيت سيد خيري في الأسواق حتى دلوني اليه. شربت ماء من سبيل بقنطرة أمام تكية يكثر في مدخلها الحمام لأنهم يرمون له الحب ثم قرأت الفاتحة. أنا تعلمت القرآن على والدتي الله يرحمها. كانت حلبية من بلادكم وأخوالي كانوا يأتون لزيارتها بعد عيد الفطر وينزلون عندنا، وفي الأضحى يجلبون معهم الخراف وأنا أساعدهم في ذبحها. بينما أقرع باب بيت سيد خيري فكرت في أمي التي سميت ابنتي هند على اسمها. انفتح الباب ورأيت امرأة تتراجع خائفة. هند. إبنتي. لا أعرف كيف تحمّل جسمي الصدمة. بدت أكبر من عمرها بعشرين سنة. لكن ما قتلني كان نظرتها: حطّمها سيد خيري تحطيماً. حتى مني أنا بدت خائفة مع أنني لم أرفع كفي في وجهها مرة كل حياتي! حضنتها. بكت حتى ابتلّ قميصي. خرجتُ وهي تتعلق بي وتقول «لن يقبل». سرت حتى الخان الذي دلوني اليه ووجدت سيد خيري هو هو، لم يتبدل شعرة. ركض صوبي ضاحك الأسارير وباس كتفي وعانقني. أجلسني بين سلال القصب وجلس قبالتي وهو يلعب بقصبة. أرسل عبداً كي يجلب قهوة وماء وكعكاً وسألني عن الطريق ومتى وصلت وكم يوماً وليلة استغرقت الرحلة. ظننت أنه سيقبل اقتراحي عندما

فتحت فمي. قلت له سأعطيك المهر وأزيد عليه لكن هند تذهب معي الى أدرنة. من دون كلمة أخرى عرف أنني رأيتها. كان فكي يرتجف وخفت أن أموت هناك بسبب قلبي.

«اهدأ يا حاج، وجهك أحمر مثل الشمندر، السفر أهلكك.»

برمشة عين بدّل وجهه ونبرة صوته وصار شخصاً لم ألتقه من قبل. ابتسم والتقط سكيناً عن الطاولة وأخذ يسنّ القصبة بينما يتكلم. رأيته كأنني راكب على فرس سريعة. وبيننا غبار أحمر. قطع القصبة طولياً ورمى نصفها.

«ابنتك يا حاج لا أردّها لك ولو بوزنها ذهباً. أنت لا تعرف قيمتها. لكنها قصبة خضراء مثل هذه وعليك أن تطويها وبعد ذلك تتركها في الشمس كي تنشف من الماء وهكذا تبقى مطوية. أتيت من دون أن تعلمني. لماذا فعلت هذا؟ ثم تقول لي هذا الكلام الذي لا يقبله رجل. ما علاقتك أنت؟ هذه زوجتي وليست زوجتك.»

دخل العبد حاملاً الصينية.

«اسمع يا حاج، أنا لا أريدك أن ترجع الى بيتك متضايقاً. نذهب ونأكل لقمة وترتاح حتى الصباح ثم تذهب. وزوجتي تحضر لك شيئاً تأكله على الطريق. الطقس في سراييفو هذه الأيام لا يُطاق. ربما نذهب ونزورك في الصيف. اذا سمح الوقت.»

وضع القصبة والسكين جنب الصينية.

«خذ شربة ماء يا حاج. تبدو مريضاً.»

«اسمعني يا سيد خيري، أنت تاجر ذكي وتعرف مصلحتك. قلْ لي ماذا تطلب كي آخذ هند معي. أعرف أنها لم تنجب لك وأعرف ما تفعله بها. أموت هنا ولا أذهب وأتركها في بيتك.»

تراجع على مقعده. رأيت يديه تلمسان زناره العريض الأحمر.

«أقول لك شيئاً يا حاج. أنت تعرفني. كلمتي لا تصير كلمتين. ولا أتاجر معك هنا ببقر أو صوف أو كنارات. هند ملك يدي. لو نزلت السماء على الأرض لن أردها. باقية في فراشي وتخدمني. وأنت ترضى أو تذهب من وجهي.»

شرب فنجان القهوة وردّه.

«اشربْ فنجانك يا حاج. أم تريد أن تسافر الآن؟ هذا وقت جيد للركوب.»

رأيته يمدّ يده ويجذب من الكومة سلة خيزران مفككة. كان يشدّ مسكتها صوبه وحين التفت كي يرى ماذا أفعل غرزت السكين في رقبته وذبحته.»

(اشغال الطرق)

أخرجوهم لتصليح طرق أفسدتها السيول. وجدوا أقدامهم تغوص في سهول الوحل. ومداساتهم تعلق ولا تخرج. نهار رمادي من الغيوم. وعصافير تتقافز على أغصان رطبة عارية. كانت بهجتهم لا تُصدق. لا الهواء لسعهم ولا السياط. شربوا الهواء النقي الكثير وسكروا. لو سمحوا لهم كانوا غنوا ودبكوا. عامر بيك البوشناقي مرّ من بعيد على فرس زرقاء. رفع يمناه فانفصل عنها صقر من ذهب. انطلق كسهم ملتهب. اختفى كأنه غاص في الوحل حيث تهوي الأرض صوب نهر يُسمع ولا يُرى، ثم خرج أكبر حجماً ومن مخالبه يتدلى أرنب فضي يبرق مثل سمكة. طرح

الطريدة أمام سيده فصهلت الفرس. هبّ الهواء محملاً برائحة تشبه الزعتر. جرفوا وحلاً. جمعوا حجارة ورصفوها حيث تخدّدت الطريق. جرّوا محادل حجرية. قفزوا فوق المحادل وبعضهم جرّ الآخر. أكياس عظم ولا يعرف أحدهم من أين ترجع اليه القوّة. أراحوهم ظهراً عند بلاطة صخرية شاسعة بلون الثلج. أطعموهم خبزاً وحبوباً مطبوخة ساخنة. ناموا دقيقتين في الهواء الجامد ثم قاموا وحملوا المعاول والرفوش. تحركوا بلا حبل. سرعتهم بعد الظهر تضاعفت. بعيداً بان جاموس يجرّ سكة المحراث وفلاح ضئيل أحمر القميص يقف على السكة كي يغرزها عميقاً، ويجلد الحيوان البليد. طائر الذهب زعق فوق رؤوسهم. بلغوا هضبة وأطلّوا على بساتين تخرج منها نسوة محملات بالحزم في جماعات. كان النهار ينتهي وصلّوا ألا يحلّ الليل أبداً.

*

راقبهم من بعيد في حركتهم البطيئة. لم يسمع مفاصلهم تطرطق وعظامهم تتراطم. سمعهم ينادون أسماء ويتبادلون تحيات. بسرعة، بينما يتعرفون الى وجوه التهمها الشعر والمرض، تحولوا الى شغيلة، الى عمال حقيقيين. تأكد من هذا بعد الظهر. صفر رافعاً عينيه فعاد اليه الصقر. انتبه كيف يتحايلون على الجنود وهم ينقلون الحجارة أو الأتربة: لاحظ الأقواس المحنية المتطاولة التي ترسمها حركة أجسامهم بينما أحدهم يسعى للاقتراب من مجموعة بعيدة. رأى حماستهم تتضاعف بعد انضمام الفرد الجديد اليهم. حدس أنه يمتّ اليهم بصلة دم. أطعم صقره قمحاً من راحته واستغرب كيف مرّ الوقت. تأملهم يدحرجون صخراً ويهتفون. تذكر زمناً قديماً ووجوهاً لم يرَها منذ دهر. تنهدّ. همز الفرس عائداً.

وقف في بابه العالي ينظر اليهم عائدين أول المساء. رأى سقوط وجوههم بينما أحدهم يودع الباقين. لفظ جملته في لحظة غامضة استعصى عليه فكّ لغزها الغريب:

«دبروا لهم قبواً واحداً واجمعوهم فيه.»

(البرج)

في طرف السجن الذي كان من قبل حصناً ينتصب برج حجري ضيق استخدم على التوالي وعبر أربعة قرون منارة للمراقبة والحراسة، ومخزناً للذخيرة، وزريبة للماشية التي تنتظر الذبح، وقبواً يلجأ اليه أحط الجنود لممارسة الفحشاء مع البهائم، وقنّاً للدواجن، وخربة للتبوّل وقضاء الحاجة، وقفصاً لنمر آسيوي عجوز، ثم مستودعاً للذرة والثوم والبصل. عندما جمعوا الدروز فيه كان خالياً يفوح برائحة التبن الرطب والبصل المعطوب. البرج طبقتان مع درج حجر داخل في الحائط وكوى عميقة للبواريد والقنص تطلّ على سلسلة تلال يغطيها القندول والوزال والصخور البيضاء الصقيلة. نقلوهم الى هنا في فصل الربيع. عند هبوب النسيم اجتاحت رائحة الزهور البرّية البرج فشعروا أنهم في الجبل. حمد الأعمى هجر بيوت الطين والقش الواطئة حد المقبرة وانضم اليهم. أحصوا عددهم - ما بقي منهم - واكتشفوا أنهم 44 ومع حنا يعقوب الذي سمّوه سليمان غفار عز الدين عددهم 45. بعد ثلاث سنوات تقريباً من التفرق أدركوا - بينما أحدهم ينظر الى وجهه منعكساً في وجوه أخرى - كم تبدلوا. لم يستغربوا كم كبروا

في الحبس لأن هذا ما تفعله الوحدة. لكنهم استغربوا مرور الوقت: كيف صمدوا هذه السنوات كلها بعيداً من الأهل والزوجات والأولاد والبيوت، بعيداً من الأحصنة والبغال والحقول وأشجار التوت؟ اغتسلوا ذات مساء بعد نهار صيفي منهك طويل قضوه في بناء حائط دعم أسفل طريق جبلية ذابت الأتربة تحتها وانهارت، وبينما يجلسون في الطبقة التحتانية الأبرد جواً كي يأكلوا لقمة ويشربوا فنجان زهورات مغلية سمعوا واحداً منهم يبكي ثم يشهق ويكتم نفسه لئلا يسمعه الباقون. لكنهم سمعوا. شربوا الزهورات وسألوا الشيخ حمد من أين يجلبها. أرادوا أن يسمعوا أصواتهم ومع جواب الشيخ حمد تفرع الحديث. وقت النوم انفصلت المجموعة المقيمة في الأعلى عنهم. بينما حنا يرتقي الدرج وراء قاسم شعر لبرهة وجيزة أنه سيرجع الى بلده، شعر أنه لن يموت في الحبس ويُدفن تحت أشجار الزلزلخت مثل كثرٍ سبقوه. ضوء النجوم تسرَّب من الكوى مثل وعدٍ غامض. نعمان استند الى الحائط المستدير ينظر الى التلال بصخورها الظاهرة في الليل. أحياناً يسهر وحيداً ويمدّ ذراعه الباقية كأنها قسطل بارودة في الكوة العميقة الى أن تبلغ أصابعه فضاء الخارج حيث يتحرك الهواء. حين يفعل هذا يبدو داخلاً في حجارة البرج كأنه قطعة منه. لم يعد يتكلم. الجنود منعوه من الخروج مع أخوته الى الأشغال لأنه بذراع واحدة. بشير ظل يلتصق به في المساء، حين يرجعون، ويحاول جرّه الى حديث الجماعة. قاسم قال له: «اتركه يا بشير، أنت لا تساعده حين تصرّ عليه.» حنا رأى الشيخ محمود يمنع دمعته. قاسم أيضاً بات نادر الكلام. سأله حنا ماذا فعل حتى حبسوه سنة في البئر؟ نظر اليه كأنه يفحص وجهه، كأنه يجهل من

يكون. بدا تائهاً في مكان آخر. انتظره حنا وبعد زمن، حين ظنّ أنه لن يجيب، أخبره.

«ضربت واحداً.»

«واحداً من الجنود؟»

«لا، من المحابيس.»

قضوا سبعة أيام بعيداً من البرج يُبلطون بالحجارة قسماً خطراً من طريق وعرة تُسمى «طريق دوبرفنيك» مع أن مدينة دوبرفنيك وراء الحدود، بعيدة على الساحل ولا تظهر من هنا. حين بلغوا قمة هضبة ورأوا البحر للمرة الأولى منذ سبع سنوات وقفوا مشدوهين. «البحر!» كانت الكلمة المنطوقة همساً معجزة. «البحر!» صارت الهمسة مفتاحاً سحرياً يدلّ الذي لم ينتبه بعد، لا الى البحر البعيد الذي بان أزرق متموجاً بالفضة من بين جبلين، ولكن أيضاً الى العالم اللامرئي القابع في انتظارهم وراء البحر: بلادهم. «لو أن نعمان معنا!» ندم بشير على جملته حين سمعها. بدا أخوه نعمان ميتاً لا قاعداً وحده في البرج يحصي أصابعه الخمسة وينتظر زيارة من حمد الأعمى الذي يخرج صباحاً في جولاته ولا يرجع حتى الغروب.

(البرج - 2)

أيقظته حركة نعمان قبيل الفجر. في البدء لم يفهم ماذا يفعل ثم اكتشف أنه ينتزع من الشقوق بين الحجارة أعشاباً نابتة. حاول

أن ينام من جديد لكن ذهنه أخذه الى بيت بعيد. رأى بربارة وقد كبرت تحمل مكنسة وتساعد أمها. تتعثر بالعتبة أو تضحك ناظرة الى الدجاج الخارج من القن. حاول أن يتخيل وجهها فامتلأ زلعومه بالدموع. كان عاجزاً عن تخيل الوجه. الشيخ محمود أخبره عن أصغر أبنائه الذي سمّاه كنعان مثل جده لأمه. تركه إبن سنتين وحين يراه في المنام ينتابه خوف شديد. يستيقظ مرتجفاً ويقضي النهار ملبد المزاج معتكر النظرة. سمعه يتكلم مع قاسم وعرف أنه يخاف على ولده من الحيّات. وراء بيوتهم في الجبل أحراج سنديان وكثيراً ما قتلوا حيّات سامة على العتبة وعند مسكبة النعناع. شمس الهرسك قشّرت آذانهم. استراحوا ذات ظهيرة خارج قرية متكتلة البيوت هاجعة في ثغرة بين تلتين متشابهتين مثل طربوشين. شربوا وأكلوا بينما ينظرون الى عمود دخان يرتفع فوق البيوت المحاطة بالشجر. شمّوا رائحة مربى يُعقد للتو على النار. رائحة الفاكهة الناضجة والقطر والحطب. رسم الشيخ محمود بعود يابس علامات في التراب ودلّ حنا الى مواقع بيوتهم بالنسبة الى بيت أبيه الشيخ غفار عز الدين. العرق برد على جلده وهو ينظر ويسمع.

«هنا بيت المرحوم علي، على الحائط الغربي لبيت أبينا. أرادني أن أبني جنبه لكنني أحبّ الشمس وبنيت هنا، حيث الأرض ترتفع، والجهة الشرقية مفتوحة على جبل صنين. بشير بنى جنب بيت علي وخلفه عند صخرة البيدر بنى نعمان. جلبنا الحجارة على ظهورنا والعتبات الكبيرة على البغال. بيت أبي عقوده أعلى وحيطانه أسمك، العتبة فوق بابه جلبوها من عينبال. جرّها جمل. قاسم بنى أبعد، على كتف الوادي. قدام بيته شجرة

جوز معمرة يُقال إنها أقدم شجرة جوز في الجبل، نسمّيها جوزة السلطان سليم، ونتموّن منها جميعاً. كل حبّة مثل بيضة النسر. بهاء الدين الله يرحمه كان يريد أن يبني جنب بيت قاسم. الله كبير. أنا أردته أن يبني جنبي لأنني كنت أحبّ أن أرى وجهه أمامي طوال الوقت. وجهه يضحك لك كأن النور يضوي منه. في هذه الجهة حد بيت أبي بئر الماء. وبعد البئر خربة كانت بيتاً عاش فيه أحد أجدادنا. يقولون كان صاحب كرامات والطيور تأتي من آخر الأرض وتجلب حبّ قمح الى بابه. وراء بيت نعمان مرج القمح وبعد البيدر كروم العنب والتين تغطي الجلول التي ترتفع حتى تصل الى الخلوات. هذا المكان الذي نسهر فيه لقراءة الحكمة وللصلاة ليلة الجمعة. بُنيت في زمن بناء خلوات الزنبقية في كفرنبرخ. من بعيد تشبه بحجرها وقناطرها خلوات البيّاضة في حاصبيا. بيت قاسم يطلّ على النهر والجلول الممتدة من النهر الى بيوت الضيعة مزروعة توتاً وتفاحاً ونملكها بالتساوي. أبي قسمها بيننا منعاً للخلاف، والحدود بينها أقنية سقاية وشجيرات سماق لكننا لا نهتم بها لأننا نشتغل في الأرض كما لو أنها ملكنا معاً. هنا، وراء بيت أبي، شجرة صبّار ثمرها أحلى من العسل في آخر الصيف، أحبّ كثيراً أن أقطف وآكل منها وهي باردة بالندى في الصباح وأقشر للأولاد وزوجتي. اذا ربّنا سبحانه تعالى ردّنا الى الجبل أحياء ستأتي وتأكل منها معنا يا حنا.»

«وأخوكم سليمان، أين بيته؟»

«سليمان لم يترك بيت أبي. تزوج وظلّ في البيت.»

بشير نظر اليه بعينيّ البوم الصفراوين وهو يراقب نعمان. أذان الفجر أيقظ أهل البرج. لبسوا بسرعة ولحظة انفتحت البوابة خرجوا منتظمين واصطفوا بلا صوت. حنا رأى شرراً يتطاير من تلك النظرة. لم يفهم السبب. أثناء النهار نقلوا تراباً وحجارة. قبيل الغروب استراحوا في ظلال البطم. انطرحوا على ظهورهم ناظرين الى غيوم الصيف تسبح خفيفة كالقطن وتمرّ. حنا انتبه الى النظرة الصفراء المسلطة عليه. مدّ يده وأمسك مرفق قاسم. طارت حساسين مزقزقة واختفت وراء أشواك أيبستها الشمس. أخبره قاسم أن بشير هكذا، غضوب. كان بعيداً عنهم وأزاح نظرته.

«وماذا فعلت له أنا كي يغضب عليّ؟»

«لا تهتم. لم تفعل شيئاً.»

«لأنني مسيحي؟»

«لا. لأنك هنا.»

«لا أفهم.»

«أنت مثل الخروف الذي أنزله الله من السماء الى النبيّ إبراهيم كي لا يُضحّي بإبنه. أنت هنا لأن أبي أخذ أخانا الى البيت.»

«أنا مثل الخروف؟»

«بشير يظنّ أن كل ما يصيبنا يحدث لهذا السبب. أننا نُعاقب لأننا جلبناك الى هنا.»

«يظن أن نعمان فقد يده بسببي؟»

«بشير طيب القلب. لا تهتم.»

«يظن أنهم وضعوك في البئر بسببي؟»

«البئر مثل الحبس. من دونك أيضاً كنا سنأتي الى هنا. ابعدْ من طريق بشير وهو لن يقترب منك.»

*

وقعت أمطار الخريف الأولى بينما يرممون جسراً على نهر درينا. تحركوا محاذرين وسط الورشة المكتظة بشغيلة أجراء وشغيلة سخّرتهم البواريد. أخطر الحوادث تقع في هذه الظروف. «لا تنقل التراب الى هناك، تعال معي!» مضى حنا خلف قاسم. ظهر الشيخ عارف عبد الباقي حاملاً مطرقته محتقن الوجه مبلولاً. كان يشتم همساً ويعضّ اللحم الحيّ في بطن فمه. هزّ قاسم رأسه. بادله التحية. بدا أهدأ الآن بسبب هذا القرب الجسماني. حذّرهما من القرويين وقبل أن ينهي كلامه سمعوا صرخة في الجهة البعيدة ورأوا صخرة تغطس في النهر. اجتمعوا حول بوسني سحقت الصخرة المتدحرجة قدمه. بكى الرجل زاعقاً وهو يُحمل الى عربة ثيران. مضت العربة بليدة تتسلق تلاً مخضرّاً تسيل منه السواقي بيضاء كاللبن. سمعوا عندئذٍ للمرة الأولى الخبر الغريب: باشا بلغراد السابق يسكن في قرية وراء تلك التلة.

«عزله السلطان؟»

«أنتم من أين؟»

«من جبل لبنان.»

«وماذا تفعلون هنا؟»

«نصلح هذه القنطرة.»

«لكن ماذا جلبكم الى البوسنة؟»

«نفانا السلطان.»

«أنتم دروز بلغراد؟ المحابيس في الهرسك؟»

«لم تخبرنا لماذا يسكن باشا بلغراد في قريتكم؟»

«عنده زوجة وبساتين هنا. بلغراد أهداها السلطان في العيد الى أمير الصرب.»

«أهداه بلغراد؟ بنينا الحيطان لراسم باشا في بلغراد.»

«هذا الباشا اسمه واصف باشا. راسم باشا قطعوا رقبته قبل زمن بعيد.»

*

«أين يذهب هذا النهر؟»

«الى الشمال.»

«أين يصب؟ في البحر؟»

«لا. في السافا. أو ربما في الدانوب.»

«كيف تذهبون الى البحر من هنا؟»

«لا نذهب.»

(البرج - 4)

من الكوّة رأى حنا البرق يضيء التلال. كان الجذر الأزرق ينفجر فوق الصخور البيضاء كأنه سيشقها نصفين. الرعد منعه من النوم. شعر بالبرج يميل على السور وخشي أن ينهار السقف على

رأسه. وقت طويل وهو ينظر الى الخارج ولا يسمع غير الرعد والشخير والمطر. نعس قاعداً هكذا والهواء الرطب يبلّ وجهه الذي يسدّ الكوة. منذ أيام لم يخرجوا.

«النوم صعب.»

«متى سنخرج يا قاسم؟»

نادى صوت من الأسفل. استيقظ البرج. حمد الأعمى كان الأعلى صوتاً وسألهم ماذا يحدث، لماذا أيقظوه؟

«الشيخ عماد الدين مريض.»

تحركوا في الليل المضاء بالتماعات البرق وتجمعوا قريباً من الشيخ عماد الدين محمود. حنا نزل مع الآخرين على الدرج ويده على الحائط. كان الشيخ يئن والعرق يسيل كالماء من بدنه. أبعدوا الغطاء عنه وانتظروا ثم غطوه من جديد. جلسوا ونظروا اليه يحاول أن يقول لهم شيئاً. أعجزته الحمى عن النطق. فتح عينيه نصف فتحة وبدا أنه لا يراهم.

«ماذا يفعل الآن؟»

«يريد أن يتكلم يا شيخ حمد.»

«قبل أن ننام قال لي انه تعبان لكنه لم يكن مريضاً.»

رطّبوا فمه بقماشة مبلولة.

«المسْ يده يا شيخ حمد. أصابعه تحرق كالجمر.»

«لماذا ألمسه؟ أنا أصدقك.»

لم يضحكوا لكنهم ابتسموا.

«الله يلعن الحبس وساعته.»

أبعدوا الغطاء من جديد وانتظروا وقتاً أطول ثم غطوه.

مسحوا العرق عن وجهه ورأسه ورقبته. بينما يمسحون كتفه بانت ندبة بنّية عميقة.

«هذه من وقعة جزين.»

«لا. هذه من عين دارة. اسألوا الشيخ عثمان.»

«من عين دارة. كان وراء الشيخ سلام بيك العماد.»

حمد الأعمى تركهم وتحرك مطرطقاً بعصاه حتى بلغ كوّة. سدّها بوجهه.

«ماذا ترى يا شيخ حمد؟»

قاسم أيضاً نهض وابتعد الى كوّة يضيئها البرق. حنا ظلّ حيث هو، يسند خده الى كفّه. مرة أخرى أبعدوا الغطاء عن المحموم وانتظروا. قلبوه على جنبه ورفعوا قميصه ومسحوا العرق عن ظهره. قبل انطفاء البرق بانت ندبة أخرى، طويلة وتمتد مستقيمة كأنها رُسمت بمسطرة، من رفش الكتف حتى الخاصرة.

«هذه من جزين.»

أصواتهم بدت غريبة، شبه مطفأة، هامسة. سكنوا فجأة وغطوا الشيخ من جديد. ما حدث لغيرهم قبل لحظة أصابهم الآن. واحداً تلو آخر تحركوا صوب الكوى كي ينظروا الى الخارج. حنا نظر الى الوجوه القليلة الباقية في جوار المريض. كانوا يمسحون لحاهم ويدعون أدعية خافتة. أحدهم رفع وجهه على مهل. حنا حدّق اليه كأنه يريد أن يسأله شيئاً. لم يتكلما لكن الوجه ابتسم له.

(الخروج من الهرسك)

فتح الشيخ عماد الدين محمود عينيه. رأى نور الصباح يملأ البرج. ناولوه ماء. شربه كأنه قطع الصحراء للتو. نظر الى الكوز المنقور من خشبة سنديان وقال «هذا شغل الشيخ نعمان!» تلقى التهاني بالشفاء وهو يرفع جذعه ويسند نفسه الى الحائط. «عذبتكم معي يا جماعة.» أعطوه ابريق الفخار. شرب حتى أفرغه. برقت عيناه الخارجتان من الحمى وهو ينظر الى الوجوه ويلفظ الأسماء. حمد الأعمى سأله عندئذٍ ماذا رأى وهو محموم؟

«رأيتنا يا شيخ حمد في الجبل. كلّنا. ورأيت أولادي يذبحون لنا غنماً ويشوون اللحم.»

«رأيتنا كلّنا؟»

«كلّكم. ورأيت عشيرة المرحوم عرفان أبو كروم معنا وسألوني عنه وأخبرتهم أنه مات في الطريق من بلغراد الى الهرسك وأننا دفناه وصلينا عليه.»

«أخبرتهم أين؟»

«لا، قلت دفناه في مقبرة.»

«وسألوك كيف مات؟»

«الواحد يموت اذا أتت ساعته.»

«ورأيت عائلتك وأولادك جميعاً بخير؟»

«رأيتهم.»

«هذه بشارة.»

«يا رحمان يا رحيم.»

«ادعوا وربّنا يسمع ويُجيب.»

أبعد الغطاء عن ساقيه وقام واقفاً. ترنح ونقل قدمه وتوازن.

«على مهلك.»

مشى حافي القدمين حتى بلغ الكوّة الأقرب الى فرشته. ظلّ وقتاً طويلاً واقفاً على رؤوس أصابعه ينظر الى الخارج. كأنه نسيّهم. حين استدار شاهدوا وجهه صافياً شبه شفاف. «سبحان الخالق!» بدا صوته آتياً من الخارج، من سلسلة التلال المغسولة التي تأملها للتو.

*

قضوا يوماً بارداً بلا مطر يشقون بالمعاول والفؤوس طريقاً فوق غابة عفص. رأوا عدداً لا يحصى من النسوة والأولاد يتحركون كالنمل في الأسفل ويجمعون البلوط عن الأرض.

«ماذا يفعلون به؟»

«يبيعونه.»

«للأكل؟»

«لدباغة الجلود وصبغ القماش.»

عند الظهيرة رأوا جامعي البلوط يتحلقون في مجموعات متباعدة حول نيران أشعلوها لتدفئة أصابعهم. كانت الأرض رطبة، باردة، مع أن الصقيع لم يحلّ بعد. عند الغروب تبدّل الهواء وبانت الشمس. كانت تختفي لكن شعاعها الأخير بعث دفئاً في أوصالهم. بلغوا الحبس بعد هبوط الليل ووجدوا منظراً عجيباً بانتظارهم: أمام باب البرج الذي صار بيتهم جلس عامر بيك البوشناقي على مقعد من الخيزران المجدول يُدخن الغليون التركي الطويل ويتكلم مع رجلَيْن جالسَيْن على مقعدَيْ قش صغيرين.

مصابيح معلقة أضاءت المكان بنور أصفر خيالي. تراصفوا في حراسة البواريد. رأوا الرجلين يأكلان تيناً أخضر وتيناً أحمر كبير الحبّة من سلّة قش على الأرض.

«نعمان وحمد!»

لم يفهموا ماذا يحدث. الثلاثة يتكلمون كأنهم أصدقاء التقوا بعد فراقٍ طويل. عامر بيك أومأ من غيمة الدخان. سمعوا ضحكة الأعمى. وللمرة الأولى منذ سنوات سمعوا ضحكة نعمان أيضاً. خفقت معدهم وشعروا أنهم على حافة. نهض عامر بيك وسار محفوفاً بحراسه وتجاوزهم. توقف كأنه رآهم بعد مروره والتفت.

«السلام عليكم.»

تراقصت المصابيح حوله وهو يبتعد.

«والله معكم.»

ذهب، وبدأ الاحصاء المعتاد في باحة السجن قبل دخول البرج. مدهوشين أجابوا «حاضر» واحداً بعد آخر بأصوات غريبة لا يدرون من يملكها. نعمان وحمد وقفا أمام باب البرج، في الخارج، كأنهما يتنزهان. انتهى الاحصاء وتحركوا في طابور صوب الباب.

«ماذا يا شيخ حمد؟»

«انطقْ يا شيخ نعمان!»

كان الأول يطرق عصاه على أجنابهم ضاحكاً والآخر يعانق أخاه الكبير محمود ويرتج بالبكاء.

«أطلقونا. أطلقنا السلطان!»

(نقولا بسترس)

قاومته هيلانة قسطنطين يعقوب سبع سنوات. ساعدها في التهرب تنقله الكثير واقاماته الوجيزة في بيروت. ساعدها أيضاً أنه تأخر كي ينتبه لها. احتشدت قصور حي السراسقة في ذلك الوقت بعاملات فقيرات منكوبات تهجّرن مع أولادهن من دمشق ووادي التيم وجبل لبنان. الكنيسة ساعدتهن ودبرت لهن مأوى وأعمالاً موقتة. نقولا بسترس لم ينتبه أنها بيروتية إلا بعد رحيلهن. كنّ كثيرات كفراشات الربيع وعندما بدأ رجوع المسيحيين الى قراهم افتقدهن. مع أنه في البدء قال لجارته الست الكونتيسة إميليا سرسق انهن كسّرن سيقان البنفسج في حديقته. كان كثير الثرثرة طريفاً أنيقاً، خواجة، يعجّ بطاقة لم يركزها يوماً في مسار واحد لأنه وجد العالم واسعاً مملوءاً بالتجارب وشاء التماهي معه بأن يبعثر نفسه على أمكنة وبشر وأمزجة. لم يقبل أن يكون الذراع اليمنى لعمّه المقيم ليلاً نهاراً في مكتب معتم فخم كأنه تمثال آخر تحت الخرائط البحرية الجامدة وثعبان الذهب المجدول الذي يؤطر براءة ملك فرنسا لويس الثامن عشر يمنح بها شرف لقب فارس من فرسان قبر الخلاص لالياس بسترس. بدا له عمّه مالك البواخر اسماً في ورقة معلقة على جدار مبطن بالخشب! لم يستوعب كيف يدوخ عمّه اذا ركب البحر! تقرّب أكثر من عمّه الآخر ميخائيل، صرّاف الأسرة الخديوية المصرية وماسك دفاترها. لا حبّاً بالبورصة والحسابات الذهنية لكن رغبة في السفر، السياحة والجَوَلان. كلّفه عمه بمهمات أوروبية تتعلق بالبنوك التي تقرض الخزينة المصرية ذهباً. كانت مهمات بسيطة تُجنب عمّه التعامل مع

البريد. وهكذا اكتشف باريس وفيينا وروما من جديد: وجد مدناً ليلية بهيجة لا تشبه المدن المشمسة التي زارها طفلاً مع أهله في عطل الصيف. حين قرّر جارهم الفيسكونت أنطوان فرعون شراء قصر في نابولي اختلى نقولا بأبيه الكونت نسيب ده بسترس وجرّب أن يقنعه بشراء قصر في فيينا. «عندنا قصر هنا!» لم يفهم يوماً سرّ تعلق أبيه بحيّ السراسقة. كان مكاناً حديثاً نشأ في العقدين الأخيرين فقط على هذه الهضبة شرق سور بيروت العتيق. المسافة التي تفصل الحيّ عن بيوت المدينة القديمة طيّبت هواءه. لكنه ساكن، رخامي بارد ممل! جلبوا مصمم حدائق من توسكانة سوّر القصور بأشجار سرو وصنوبر وشربين وفق تخطيط بارع يمنع عن الشمعدانات والفضّيات والنوافذ نسيم البحر المشبع بالملح المفسد للمعادن من دون أن يحجب منظر السفن والموج والبواخر وغروب الشمس. استنبت التوسكاني زهوراً للزينة لم تُزرع من قبل في هذه البلاد: عجيبة الألوان والشكل والرائحة لكن نقولا بسترس وجدها أدنى قيمة من الورد الجوري الذي طالما زيّن أحواض أمه في بيت العائلة القديم الصيفي في الجبل. «أنت لا تثبت على رأي!» لم يتضايق يوماً من انتقاد الآخرين لآرائه. تلقى ذلك بابتسامة فلسفية جعلته قريباً من القلوب. عمّه ميخائيل اشترى القصر النمسوي المطلّ على نهر الدانوب بأعمدته البديعة والرصيف المخصص للقوارب والغابة الـ16 فدّاناً في الخلف يصيدون فيها الوعل والغزال والطيور المقيمة. في موسم البط يستقلون مركب شركة لويد البخاري الى بودابست. ميخائيل بسترس اعتاد في نهاية النهار أن يسير وذراعه تلفّ كتف ابن أخيه: «ماذا يفعل أخي نسيب الآن يا نقولا؟» الضحكة تؤخر الجواب قليلاً بينما المساء يحلّ على

صفحة الدانوب. «أبي ينظر الى البحر ويسبح بحبّات المسبحة.» ميخائيل بسترس المقوّس الرقبة يشعر في تلك الساعة أنه لم يحرم نفسه لذّات الحياة. «وماذا يفعل أخي الياس الآن يا نقولا؟» الضحكة ذاتها بينما المصابيح تضاء للتو والبط الدافىء المشكوك مثل عنقود يهتز ويرتطم بأغصان خفية. «عمّي الياس ينظر الى الخريطة ويقيس بالخيط المسافة من مرفأ بيروت الى مرفأ الاسكندرية.» بينما يتلقى الربتة على الظهر سمع ضحكات نساء واندفع ذهنه شارداً: رآها هناك، في بيت أبيه في حيّ السراسقة، هيلانة الممتنعة التي مرة تلو أخرى تملصت من شبكته ولم يضمّها فراشه.

(الخروج من الهرسك - 2)

أعطوهم ثياباً وزنانير وأحذية. وزعوا عليهم قروشاً يصرفون منها اذا احتاجوا شيئاً. أطلقوهم من حبس الهرسك وضمّوهم الى فرقة الهندسة في الجيش العثماني كي يخدموا - قبل الانصراف الى بيوتهم - سنة واحدة إلزامية في صيانة الطريق الرومانية المستقيمة التي تربط صوفيا باسطنبول. هذه الطريق شكلّت طوال قرون الشريان الحيوي للقسم الأوروبي من الامبراطورية العثمانية، خط الجيوش والقوافل الذي يتشعب بعد صوفيا، باتجاه صربيا حتى بلغراد وباتجاه البوسنة حتى زغرب. غادروا حبس الهرسك متحركين بلا انتباه في طابور. كانوا بلا حراسة والمطلوب منهم الالتحاق بالقافلة الآتية من موستار والمتجهة الى صوفيا. حين

جاوزوا المقبرة وأشجار الزلزخت انتبهوا: «لسنا محابيس!» مشوا بعد ذلك في مجموعات صغيرة مبتهجة وخطوتهم خفيفة كأن جاذبية الأرض تعطّلت هذا الصباح. أطلّوا من رأس التلّ على البرك الصخرية حيث تتجمع الأمطار. رأوا السوق والميدان والإبل الباركة تشرب. عدد كبير من الأولاد تجمع حيث تُذبح العجول. بخار حار ارتفع من قناة الدم. الخيم المضروبة خفقت مرسلة صوتاً حلواً امتزج بزعيق الأطفال ونداءات النساء. فتيات صغيرات تجمعن في حلقة يلعبن بالخرز ويجمعن الحبّات في عقود. ماجت الألوان والأقمشة. لكن العربات التي تجرّها ثيران متسخة بالوحل والمحملة بأثقال الصناديق والسلال والطناجر والقدور والثياب والبطانيات وأدوات الفلاحة والدواجن المربوطة، العربات الخشب التي بدت على وشك التحطم، زرعت كآبة مستترة في المشهد الصباحي الفوّار بالنشاط. كانوا يشهدون الهجرة المعاكسة شرقاً للترك والبلغار والمقدونيين بعد تسليم القلاع العثمانية في بلاد الصرب وتكاثر الفتن على امتداد جبال البلقان. بين المسافرين التقوا عائلات انتقلت أولاً من بلغراد الى سراييفو ثم حزمت أمرها أخيراً للرجوع الى الأناضول. كانوا يتكلمون التركية على نحو مكسّر غريب حتى أن السامع لا يصدق - لولا السحنة - أنهم أتراك. الدروز عرفوا المقدونيات من مناديلهن الباهرة وعيونهن الواسعة. الحرية المفاجئة بعد السجن الطويل رفعت وجوههم: كان العالم موجوداً كي ينظروا اليه. حدقوا مرتبكين الى جمال النسوة ولو أبصرهم صامويل وكيل نازلي هانم في ذلك النهار لم يعرفهم. تعلموا أن يميّزوا البلغار سريعاً: رجال يتحركون ببلادة، قاماتهم قصيرة، بوجه بيضاوي

وأنف مستقيم وفك ثقيل. البلغاريات مشين وراء العربات يحملن أطفالهن لكن الرجال ركبوا الحمير! في مؤخرة القافلة تجمعت العائلات الألبانية. الأولاد الألبان ضجّوا كأنهم أصيبوا بمسّ. في المقابل استقر البلغار الصغار ساكتين على قبب الأحمال التي تجرّها الثيران. بدوا مخدّرين. الجنود المولجون حراسة القوافل انقسموا مجموعتين والدروز التحقوا بالمجموعة الأمامية. أثناء الأيام الأولى للرحلة استكشفوا طرقات أليفة، ومواقع انخسفت وأصلحوها في الشهور الماضية. قفزوا على حواف الحيطان وتأكدوا من متانة البنيان. الجنود راقبوهم مستغربين. ارتاحوا عند سفح جبل تغطيه الغابات. رائحة الرماد فاحت من الوادي. لولا الطريق الفاصلة كانت النار بلغت هذه الغابات أيضاً. احتموا بصخور سقفت جانباً من الفسحة. تأملوا أمطار الغروب يطويها الهواء باتجاه تبن تلتهمه بهائم تتضور جوعاً. شربوا وأكلوا من مطبخ الجيش المتنقل. وجدوا الحصة المعينة لهم مشبعة، والطعام شهياً. أحد الضباط الألبان اقترب وجلس معهم وكلّمهم بمزيج تركية وعربية. أخبرهم أنه خدم سنوات في بلاد الشام ويعرفها جيداً وعنده عائلة في حمص وعائلة أخرى في صيدا. كان أزرق العينين مثل نعمان، تلك الزرقة الشديدة التي تربك الناظر أحياناً. ولسبب ما ظلّ يحدق باتجاه الأخوة عز الدين وهو يتكلم. سألهم أين خدموا من قبل؟ انتبه الى ترددهم فأطلق ضحكة. «أعرف أنكم خرجتم من الحبس.» التفت الى الأعمى الذي يغمس خبزته في يخنة الحبوب ويأكل متمهلاً وسأله كيف يستطيع أن يصلح الطريق بلا عينيه؟ حمد ردّ عليه باللهجة المتهكمة ذاتها كأنه يكلّم صديقاً عزيزاً: «أنا أوزّع الأشغال.» ضحكوا والضابط شرح لهم أن

الطريق من هنا قد تصير خطرة وعليهم ان ينتبهوا بسبب العصاة وقطاع الطرق واللصوص.

«من يقطع الطريق على العسكر؟»

التفت الضابط ومدّ رقبته ورفع حاجبيه.

«بعد تلك البحيرة، هل ترون التلة التي تشبه قرن التيس، هناك حدود جديدة: يغيرون علينا ليلاً من الجبل الأسود ويهربون. يسرقون ويحرقون. وندفن قتلانا وهم ينظرون الينا من بين الشجر. انتبهوا! اذا رأيتم أي حركة غريبة أخبرونا! أنتم عيون القافلة الآن.»

حمد الأعمى ضحك والضابط صار يضحك معه كأنهما اتفقا على الحكي من قبل.

«والطريق الى صوفيا طويلة؟»

«ليست قصيرة. المهم أن نصل قبل الثلوج.»

«الثلج ما زال بعيداً. لم يبرد الطقس كفاية بعد.»

«انتظروا حتى نبلغ الجبال.»

«صوفيا في الجبال؟»

«هذه البلاد كلها جبال. لهذا نسمّيها البلقان: الجبال المغطاة بالشجر.»

«ومن صوفيا الى أسطنبول الطريق طويلة؟»

ابتسم الضابط وهو يُخرج كيس تبغه الصغير:

«مثل مسافة الطريق من أسطنبول الى جبل لبنان.»

(خارج الحبس)

خافوا من غياب الحيطان. من المدى الفسيح ونقاء الهواء. سنوات طويلة من العيش في أقبية موصدة بسلاسل حديد أفضت بهم الى هذه الهاوية الغريبة. لم يتخيلوا ذلك: في الليلة الاولى من حياتهم الجديدة عجزوا عن النوم. استلقوا غير بعيد من الجنود وتأملوا الليل والنجوم والأشجار. كان العالم ساكناً والقافلة هاجعة. حتى البوم كفّ عن النعيق. لم يبقَ غير نقيق الضفادع الذي يستمر الى الفجر. على مرتفع مجاور بانت نقط حمراء، توجّ وتتحرك. دورية حراسة ولفافات تبغ مشتعلة. في الأعالي انطلق مذنّب مشع وهوى شرقاً، وراء سلسلة الجبال.

«ماذا تظنّ وضعوا في البرج؟ محابيس غيرنا؟»

«كنت أفكر قبل دقيقة في غرسات التوت التي زرعناها جنب البركة في القلعة البيضاء.»

«ماذا ذكّرك بها؟ يكون الماعز أكلها الآن!»

«خفت أن أموت في الحبس. أمس أيضاً لم أنمْ ساعة. خفت أن أموت وأنا نائم.»

«لا أصدق حتى الآن أننا خرجنا. أخشى أن أستيقظ بعد لحظة وأجد نفسي ما زلت في البرج.»

*

هطل المطر غزيراً مباغتاً بينما يعبرون قرية مقفلة البيوت. من أكوام الحطب الذي لم يُقطع صغيراً ويُرصف مرتباً بعد، تتساقط قطرات ماء. ظهرت عجوز بيضاء الجدائل من باب موارب ثم

اختفت. لم يروا دخاناً يرتفع من المداخن. نبحت عليهم كلاب ثم فرّت خائفة. رياح باردة هبّت من الشمال. تسلقوا تلاً، والعربات الثقيلة أخّرتهم. صرّت العجلات كأنها تتكسر. بلغوا خاناً بعد وقت. تجمعوا حيث لا يصل المطر. فكّوا الثيران عن العربات وجرّوا المعالف. بدت الثيران مريضة، غير قادرة على الأكل. الجنود تبعثروا واختفوا داخل الخان. الدروز اختاروا زاوية قريبة من الزرائب وأشعلوا ناراً في موقد حجري. صبي يمرّ راكضاً حاملاً صينية واسعة ثقيلة على رأسه هتف بالتركية ودلّهم الى البئر والى مطبخ الخان. كان البخار يرتفع من الأطباق وحين عبر الصبي مساحة غير مسقوفة اختفى البخار لحظة. لم يزلق على الوحل. والصينية ظلّت ثابتة على رأسه. القافلة ملأت الخان بباحته واسطبلاته وأبنيته. استمر سقوط المطر ووصلت قافلة أخرى، صغيرة، والدروز راقبوا الجدد من بعيد. الجنود المكلفون بمطبخ الجيش تراكضوا يحملون بصلاً وطحيناً. لم تُعلق القدور بعد والأكل سيتأخر. أرعدت السماء وهوت الأمطار قُرباً. امتلأت الأقنية. بانت جلود الحمير مبقّعة. أولاد قفزوا وصاحوا بينما صبية الاسطبل يطرحون شعيراً أمام البهائم. الدروز تخلصوا من مداساتهم ومدّوا أقدامهم صوب اللهب. عيونهم تعلقت بالأحصنة. حيوانات كبيرة الحجم ساخنة يغلفها البخار نابضة العضلات يبرق شعرها. نفضوا ثيابهم المبلولة ودفأوا أيديهم حول الموقد. حنا مال ناعساً تعباً. سمع الضجة وشعر بالنوم يثقل أطرافه. رويداً رويداً ابتعدت الأصوات لكنه ظلّ يسمع فرقعة الحطب وأكواز الصنوبر. أسند ظهره الى ظهر قاسم ونام قاعداً. حين أيقظوه رأى جملاً عالياً توشك حدبته أن تعلق في قنطرة الخان. المطر لم

يسكن لحظة. شرب ماء واقترب أكثر من الموقد. قاسم وقف ينظر الى السماء. الشيخ محمود وقف جنبه. مرة تلو أخرى لمع البرق وتفرع كأغصان شجرة. فاحت رائحة شواء. أولاد ألبان اقتربوا ونظروا الى الدروز المتجمعين حفاة، يشربون زهوراتهم المغلية الآن ويأكلون خبزاً ولبناً. سألوهم لماذا لا يحملون بواريد مثل بقية الجنود؟ تكلموا بالاشارات ولفظوا الكلمات التركية القليلة التي حفظوها في مواضع غير مناسبة وأضحكوهم. رؤوس الصغار المبلولة ضاعفت الشقاوة في ملامحهم. فركوا شعراً أسود رطباً. نقّلوا أقدامهم على الأرض كأنهم يرقصون. كانوا محتارين لأن الجنود يحملون المعاول أحياناً لإصلاح الطريق لكنهم بعد ذلك يردونها الى العربة ويستعيدون بنادقهم.

«لماذا أنتم بلا بواريد؟»

«نحن لسنا جنوداً.»

«لكنكم تأكلون من مطبخ الجنود!»

كسروا خبزاً وغمسّوه باللبن وناولوا الأولاد كي يأكلوا.

(وعول كوسوفو)

قضوا تلك الليلة في الخان. ناموا نوماً عميقاً. قبيل الفجر قاموا عن الأرض الصلبة كأنهم ولدوا من جديد. خرجوا واغتسلوا. السماء صافية والهواء قارص. أفطروا على عجل في نور المصابيح. بينما القافلة تخرج الى الطريق بانت أسراب بجع.

ثلاثة أسراب بيضاء كالثلج عبرت السماء الزرقاء: السرب الأخير بدا الأسرع بينها كأنه يكافح للحاق بالسربين الآخرين. في ثلاثة أيام قطعوا خمسين ميلاً. حنا تصلّب جسمه من الضرب بالمعول. قبل أن يصلوا الى الهضاب المطلة على بريشتينا سقطت زخّة حبّات البرد. تركوا الطريق المكشوفة ودخلوا غابة للاحتماء. خافوا أن تصاب البهائم بالذعر ويهدّها الاسهال. من بين الأشجار البعيدة ظهرت أربعة وعول حمراء اللون قصيرة القرون رشيقة الخطوة مدورة العيون. الجنود سددوا البنادق اليها. الضابط الألباني الذي يأتي ويتكلم مع الدروز أحياناً نظر من فوق صهوة حصانه. فرقعت البواريد. تردد صداها بين الجذوع وطغى على طقطقة البرد. حين تبدّدت غيمة البارود شتم الضابط الجنديين الأقرب اليه. الوعول اختفت بلا أثر. الضابط همز حصانه وهو يحني رأسه متجنباً الأغصان. تمايل هادئاً الى أن وصل الى الأخوة الخمسة.

«من الصيّاد بينكم؟»

الدروز تجمعوا وراقبوا ما يحدث.

«شيخكم الاعمى يقول ان أحدكم مشهور في جبل لبنان ويصيب المسمار في القاطع المقابل!»

التفتوا الى قاسم. بدا محاصراً منزعجاً. لم يرَه حنا هكذا من قبل.

«هذه نسمّيها وعول كوسوفو، أسرع من الباشق، هنا يتجنبون صيدها لكن في الأقاليم المجاورة طاردوها حتى أبادوها. لا يصيدها أهالي المنطقة لأنهم أصحاب خرافات. في زمن لالا شاهين باشا قائد جيوش السلطان التي فتحت بلاد المجر لم تكن هذه الوعول موجودة هنا. لالا شاهين باشا نقل فقراء الأتراك معه

من الأناضول وأسكنهم أرض الصرب والمجر كي يحرثوها ويزرعوها حبوباً والآن نحن نردّ أحفاد أحفادهم الى الوطن الذي خرجوا منه. جلب أيضاً قبائل مسلمة من حدود الهند وهؤلاء سكنوا هذه البقاع وتزاوجوا مع سكان المنطقة. أصابهم طاعون وبعد أن طمروا موتاهم اكتشفوا هذه الوعول. مع أنهم يصلّون في الجامع ويصومون رمضان اعتقدوا ان أرواح موتاهم سكنت في هذه الحيوانات. لذلك يطعمونها من أكلهم. نحن نقتلها ونشويها لأن لحمها أطيب من لحم الغزال. خذْ، هذه بارودتي، انكليزية، امسكْ يا شيخ قاسم!»

رفع الشيخ قاسم غفار عز الدين أصبعاً وأشار الى عينه اليمنى:

«بصري لم يعد كما كان.»

«لست عجوزاً بعد. امسكْ! الحبس لا يُعمي.»

الشيخ محمود غفار عز الدين فتح فمه وتكلّم. ظلّ البرد يطقطق بينما الجميع يصغي.

«أخي لم يعد يصيد يا سيدي. نذر نذراً للنبيّ أيوب أنه لا يقوّص بارودة أو غدّارة في حياته.»

«نذر؟»

«هذا عهد نقطعه أمام ربّنا ولا نحيد عنه. مثل الحلف.»

«أعرف. لماذا حلف ألا يُقوص بارودة؟»

«أخونا الأصغر يا سيدي، بهاء الدين الله يرحمه، مات نازفاً بين يدي أخي قاسم. أصابوه بالخردق في بطنه ورقبته ووجهه وساقه، لكنه نزف وقتاً طويلاً لأنه لم يكن يريد أن يموت.»

(أصوات الجبل)

بعد عشرين يوماً بلغوا جبلاً مكتظاً بغابات كثيفة. هذا غير مألوف لأن بلاد البلغار باردة وقطع الأشجار للحطب لم يترك غابات، متكتلة هكذا. سمعوا أنه جبل منحوس والماء في الأخاديد المحيطة به فظيع الرائحة. في لغة الاقليم يُسمّى جبل الموت. يُقال ان أحداً لم يدخل اليه ويخرج منه. القوافل تتجنبه، تدور حوله، والعجيب ان فيه طريق قدم لم يسدّها الشوك ولا الشجر! اشتد البرد حتى صاروا يزلقون على الدرب المتجلدة. لكن الثلوج لم تتساقط. خيّموا عند سفوح تلال صخرية فيها كهوف غير عميقة تضيء من ظلمتها عيون صفراء. أشعلوا ناراً فاختفت العيون. أصوات الجبل منعتهم من النوم. كأن أشجاره تحكي. الهواء ساكن حيث استلقوا والسماء شاهقة مزروعة نجوماً. قبل قدوم الغيوم لن تنكسر موجة الجليد. اصطكت أسنانهم وهم يلقمون النار حطباً. في ضوء النجوم شاهدوا غابات الجبل تميل. كأن الرياح تطويها. مع أن الجو جامد واذا سقطت ورقة من شجرة قريبة تهوي في خط عمودي مستقيم وتلتصق بالأرض.

*

عاتبوا الشيخ حمد لأنه أخبر الأرناؤوطي (الألباني) عن قاسم. جاء وحده تقوده عصاه وجلس أمام الأخوة عز الدين. طأطأ رأسه وانتظرهم كي يعاتبوه. استعد للموقف. لكن صوته تهدج وهو يعتذر.

«أطلب سماحكم يا شيخ محمود. زلّة لسان لن أغفرها لنفسي. أخذني الحكي ونحن نتبادل السوالف في آخر الليل. أنتم

معزتكم عندي مثل معزة أبي. لا أتحمل زعلكم أبداً.»

«نسينا يا شيخ حمد. أنت عزيز ولم نزعل. لكن استغربنا.»

«حقكم عليّ. زعلت مني يا شيخ قاسم؟ لماذا لا تقول شيئاً؟ أسمع أخوتك لكن لا أسمعك.»

«لم أزعل. أنت أخونا يا حمد.»

حنا يعقوب أوشك أن يبكي وهو يصغي الى الأصوات المحطمة. في هذه الساعة الغريبة كان واحداً منهم، كأنه حقاً يُدعى سليمان غفار عز الدين، مع أنه حنا يعقوب، بائع البيض.

«أنا لن أنسى يوماً كرمكم معي وأنتم تعرفون. في هذا العمى لا أجد القوّة الا في أصواتكم. من دونكم لا أقوم وأسير. اسألوا نعمان. أنا لا أقدر أن أخبركم لكن هو يقدر.»

«يخبرنا ماذا يا نعمان؟»

كانت النار تشرقط وحنا رأى نعمان يرفع ذراعه الواحدة كأنه يتخبّأ خلفها. لعل الدخان من الغصن الأخضر دخل عينيه. سعل الشيخ محمود وهو ينتظر. بشير سدّد عينين متوهجتين الى أخيه الذي لا يفارقه. قاسم لم يرفع وجهه. ظلّ يحدق الى عيدان تجلّد قلبها حتى صارت تفرقع كالذرة في جوف النار. حنا انتظر محدقاً الى فم نعمان.

«لماذا يا حمد؟ حين كلّمنا عامر بيك اتفقنا على رأي واحد. واتفقنا ألا نقول. لماذا تفعل هذا الآن؟»

وجّه نعمان كلامه الى الأعمى شاعراً بعيون أخوته تحرق خدّه. بشير سبق الأعمى الى الحكي: «معقول؟» كان يرجف غيظاً وبدا على حافة البكاء. حنا لم يفهم ماذا يحدث الا بعد أن نطق الشيخ حمد.

«بلى، معقول يا شيخ بشير. غير المعقول أن نفعل غير ذلك. كيف تريدنا أن نرجع وحدنا من دونكم؟ لا أنا ولا نعمان نقدر أن نترككم ونذهب. عامر بيك البوشناقي لم يصدقنا في البداية. قال أعمى عبيط وأكتع عبيط، أنا أقول لكما اذهبا الى بيتكما وأنتما تردانْ لا نذهب ونترك الباقين. قلنا له جئنا معاً ونخدم سنة مثلهم ونرجع معاً. قال لم يمرّ تحت يدي محابيس أغراب مثلكم. قلت له بصوته ذاته: أعمى عبيط وأكتع عبيط. صار يضحك. لم نخبركم أنا ونعمان لأننا عرفنا أنكم لن تقبلوا قرارنا.»

وقفوا بلا اتفاق. كأن القعود لم يعد ممكناً. وجوه راجفة في الليل تحت نجوم باردة. كانوا ستة، وخمسة منهم حدسوا أن أحدهم - مع أنه بلا عينين - سوف يسبقهم الى البيت.

(عراك ودفن)

الشيخان وهبي أبو ضرغم وعارف عبد الباقي تعاركا مع جنود. سحابة غبار طوّقت المتقاتلين. حين انتبهوا الى دنو أحصنة تفرقوا بسرعة واختفوا في زحمة القافلة. الا الشيخ وهبي أبو ضرغم والجندي البوسني الذي كان عالقاً بين ذراعيه. ضابط شركسي متجهم الوجه ضخم الأسنان بصق تبغاً ممضوغاً على الاثنين معاً وأمرهما بالنهوض عن التراب. نساء مقدونيات تجمعن ودافعن عن الدرزي. شتّتهن الضابط بنظرة شرسة مفردة. بصق مرة أخرى وأمر بجلد النفرين عشرين جلدة. كان ثابتاً كجلمود صخر على حصانه الرمادي وعندما بصق للمرة الثالثة امتلأت عينا الشيخ

وهبي بالدم. قبل أن يتحرك لطموه وأسقطوه أرضاً. ربطوه مع الجندي الرفيع كقصبة وجهاً لوجه الى شجرة صنوبر. اجتاحت رائحة الصمغ أنفه والتصقت رقبته بلحاء الشجرة. الجندي الرفيع لم يبكِ. لكن وجهه اختلج كأنثى. راقبه الشيخ وهبي بينما الغضب يعمي بصره. سال الدم على ظهره. لم يلتفت مرة واحدة الى الحشد لئلا تلتقي نظرته بأحد أخوانه. شعر بسكوتهم. عرف أن السياط تلهب ظهورهم أيضاً وهم ينظرون اليه. كان العار مضاعفاً 45 مرة، على عدد المجموعة التي خرجت حيّة من الهرسك. شعر بالعار لأنه لم يعد سجيناً. حين انتهى الجلد رموا على الاثنين ماء مملحاً ثم فكوا الحبل. لبس قميصه ومشى مقفل الوجه. كانت الشمس تغرب. ساعة العشاء جلبوا له طبقاً ساخناً. لم يلمسه. ناموا وهم يلتفتون اليه بين حين وآخر. مكث جامداً عابساً يحدق الى الطبق البارد حتى أخلدوا الى النوم. في الفجر أيقظهم مؤذن القافلة. كان رجلاً لطيفاً من ريف سراييفو أصهب اللحية مثل الشيخ بشير عز الدين ويساعد في تقشير البصل في مطبخ العسكر. حين وصل الى البقعة حيث ينام الدروز توقف ينظر حزيناً الى الرجل الذي جلدوه وقضى الليل ساهراً. في العتمة الخفيفة عرف أنه ميت. ظلّ عابس الوجه عاقد الحاجبين حتى بعد أن غسلوه وحفروا قبره. كان الميت الدرزي الأول والأخير على الطريق من الهرسك الى صوفيا.

*

«تحمّل سنوات الحبس كلّها.»

«هذا أصعب.»

«لو عرفنا كنّا سهرنا معه.»

«الله يرحمك يا شيخ وهبي.»
«لو قال قمْ معي كنت ذهبت.»
«ماذا ينفع؟»
«معك حق. لكن منظره حرق قلبي.»
«ماذا سنقول لأولاده؟»
«في معركة زحلة وقعت عن الفرس وأخرجني من بين الحوافر. كلّما تذكرت أريد أن...»
«نحن ندفع يا شيخ عثمان. نحن ندفع.»

(ثكنات صوفيا)

عدد كبير من عائلات التوماك البلغار الذين يشبهون الترك شكلاً، انفصل عن القافلة قبل بلوغ صوفيا. تساقطت الثلوج على عرباتهم المبتعدة في طرقات جبلية متعرجة تنعطف وتختفي وتكمل فجأة على ارتفاع مختلف. كانوا ذاهبين الى قرى أسلافهم. الطلوع والهبوط أهلكا البهائم. حتى في السهل ارتفع لهاثها. تقطّعت القافلة. شاهدوا صفّاً من شجر التنوب تتدلى من أغصانه مسلات جليد ومشانق. جثث متجمدة في الهواء النقي، بأعناق ملوية وألسنة مخضرّة، تأملت مرورهم البطيء. كانت عمودية مستقيمة كأن أثقالاً غير مرئية تتعلق من أقدامها.

«من هؤلاء؟»

على رأسٍ كئيبٍ نسج الثلج قلنسوة بيضاء.

«عصاة بلغار تكويهم جهنم. نصارى حمقى أغواهم قيصر

روسيا بالفرو والذهب والذخيرة حتى هاجوا في وجه السلطان.»

الأولاد غامت أبصارهم في البرد. الأمهات سترن عيونهم لئلا تبقى جثث المشنوقين عالقة في رؤوسهم. اختفى اللون الخريفي الأصفر وتغطى العالم بالبياض. بانت أكواخ متفحِّمة يتجمع الثلج على بقاياها. عجائز لم يتحملوا مشقة الرحلة لفظوا غيمة البخار الأخيرة وسقطوا من العربات. الفرقة الدرزية المولجة بالطريق حفرت قبوراً على عجل. تكسّر الوحل تحت أسنان المعاول قطعاً زجاجاً. بينما يتحركون من جديد للحاق بالقافلة عرجوا على أقدام متورِّمة. ثقل الرفوش تضاعف. تقرّحت راحاتهم. وجدوا البرد البلغاري فظيعاً صاعقاً يُجمد النخاع في بطن العظم. رغم أنهم أبناء جبل. وقعت حمير ميتة. مثقلة وتجرّ أثقالاً. جرّوها الى جنب الطريق ودفعوها الى الهوّة. تدحرجت مثيرة غباراً ثلجياً ثم علقت بجذور وصخور. خرجت دوامة سوداء خافقة من القعر. طيور زرعت الفضاء نعيقاً. ارتفع نواح الأطفال. شاهدوا ثعابين مغلفة بالجليد لا تتحرك. الصقيع قشّر أنوف الأولاد. بدت الرحلة بلا نهاية.

«هل ترون تلك القمم البيضاء؟»

«صوفيا على رأس الجبل؟»

«لا، وراء الجبل. صوفيا محاطة بالقمم كأنها في فم بركان. السهل حولها بديع في فصل الربيع.»

لم يتوقفوا للراحة تلك الليلة. «اذا ذابت هذه الثلوج سنغرق في بحر وحل.» الأتراك ساطوا الثيران مع أنهم عادة لا يفعلون هذا. ساعدهم الطقس لأن الضباب ظلّ قليلاً ولم يحجب الرؤية. لم يبصروا قرى جنب الطريق. بين حين وآخر شاهدوا دخاناً بعيداً

وبيوتاً شبه مخفية عند سفح جبل أو في قعر وادٍ مستحيل الوصول اليه.

«يخافون من الطريق. من الجنود.»

«ما هذه الأرض؟»

انتهى الجحيم على أبواب صوفيا. لم تنبح عليهم الكلاب. امتدت البيوت عن الجهتين بدخان يرتفع من مداخنها. أخرجتهم نوافذ مضاءة من القنوط. تقدموا على درب مبلطة، ساكنة وشبه جافة. الهواء البارد مرّ في الأعلى صافراً فوق السقوف. توقفوا أمام فرنٍ يفتح ليلاً نهاراً وأكلوا خبزاً ساخناً مع الثوم.

«هذه بلاد الخبز والثوم. لا يأكل أهلها شيئاً غير هذا.»

تدفأوا واقفين في مدخل الفرن العميق الغائر بين جامع معتم وعمارة مضاءة بالقناديل عرفوا لاحقاً أنها المستشفى العسكري. هنا انفصلوا مع فرقة جنود عن القافلة. كان الوقت متأخراً. الأولاد ينامون على الأحمال. والأطفال يختفون ملفوفين في كنزات أمهاتهن. شيّعوا العربات التي لم تنتهِ رحلتها بنظرة حزينة. بنت دون الخامسة رفعت وجهاً محمّراً بالصقيع وابتسمت لهم. حنا يعقوب تابعها ناعساً حتى ابتلعها الظلام. غاص في كومة قش دافئة عثر عليها قاسم وأكل خبزته نصف نائم. رقاقات ثلج تهادت معلقة أمام عينيه. أصابع قدميه ظلّت تؤلمه بسبب الجليد. نخزته ركبته التي عُطبت قبل سنين. بينما يمضغ الخبز تضاءل الألم. بعد فترة انفتحت بوابة الثكنة من أجلهم ودخلوا. كانوا مدهوشين. «مثل قشلاق بيروت!» السراي العثماني نفسه. الشرفة ذاتها والقناطر والنوافذ ذاتها وكذلك القرميد والبرج المجاور. حتى الشجرة في قلب الساحة! تراصفوا مع الجنود في ضوء المشاعل. ترنحوا

تعباً. أحصوهم وشطبوا اسم وهبي أبو ضرغم لأنه لم يصرخ «حاضر». وشطبوا اسم جندي مقدوني وقع وقضى منبطحاً بين حوافر الثيران قبل ليلتين. وزعوا عليهم أصوافاً وجلوداً. عيّنوا لهم مكاناً للنوم ودلّوهم الى بئر الماء والى بيت الخلاء. تساقطوا أرضاً. ناموا كالقتلى.

(ثكنات صوفيا - 2)

أفطروا في الصباح خبزاً وثوماً مع مئتي شخص في فرقتهم الجديدة المسؤولة عن صيانة الطريق وحفر الأقنية جنبها على امتداد ستين ميلاً ما بين خانين مشهورين شرق صوفيا. لم تذهب الرجفة عن حنا. طوال ذلك اليوم الجليدي عانى إسهالاً فظيعاً. كان يترك معوله في بطن القناة ويركض الى وراء صخرة ثم يرجع عرقان الوجه. عند المساء، عائدين الى الثكنات، سمعه قاسم يبكي. مشى جنبه وحمل عنه رفشه.

«سامحنا يا حنا.»

الأرض والسماء اصطبغتا بالأحمر ذاته، كأن الأفق يشتعل.

*

أقاموا في الثكنات شهراً ثم عيّنوا لهم سكناً في قرية غير بعيدة من الطريق. الدروز انقسموا على أربعة بيوت مهجورة. أصلحوا سقوفها القش بينما المطر يسوط وجوههم. ساعدهم فلاحون بلغار خبراء في البناء بالطين والقش والخشب. في يوم صافٍ نقلوا من

الثكنات في عربة يجرها ثوران أدوات عملهم وما حصلوا عليه من المستودع - ثياب وطناجر وسكاكين - ومن المطبخ: طحين وثوم وجرّة سمن. أمين سرّ المستودع أعلمهم أن عليهم تدبير أمرهم مع الأهالي والا جاعوا.

«لا تتسولوا ولا تنهبوا. لكن اذا منعوا عنكم البيض والسمك كوّموا الثلج والوحل أمام أبوابهم. ولا ترجعوا الى هنا. احرثوا وازرعوا. تعرفون كيف تزرعون؟»

«نعرف.»

«عفارم عليكم. اذهبوا اذاً!»

«وأين نزرع؟»

رفع أمين السرّ حاجبيه كأنه يتكلم مع مجانين.

«في أي مكان قريب من بيوتكم. هذه كلّها أرض السلطان.»

«نحن خدمتنا سنة واحدة فقط.»

«اسمعوا من عقلي وازرعوا. سنة العسكر تطول.»

كان حلبي الأصل يعرف العربية والتركية ونتفاً من الأرمنية لأنه عاش زمناً وسط أرمن أسطنبول ولأنه تزوج أرمنية ثم طلقها بسبب لسانها الطويل. صادقه حمد الأعمى كما يصادق الجميع وسمع أخباره وعرف أن زوجاته مبعثرات على طول الدرب من هنا الى أدرنة، وعنده أيضاً عائلة صغيرة في جبال طوروس. «مثل السلاطين. لكنه أمين مخزن في قشلة صوفيا.» الشيخ خطار عبد الملك سأل الشيخ عماد الدين محمود بينما يتساعدان على حمل الطحين لماذا يلهث هكذا، هل رجعت الحمى؟ «كبرنا يا شيخ خطار. لكن اذا حملني ربّنا الى نهر الباروك الآن أركض مثل ولد

ولا أتعب.» حمد الأعمى مشى أمامهما وهما يصيحان به «ابعدْ من الدرب!» وهو يضحك. لكنه استدار فجأة وبدا مشغول الفكر مكتئباً بينما يواجه الشيخ عماد الدين كأنه يراه.

«أخبرني يا شيخ عماد، هل كان الشيخ وهبي الله يرحمه معنا عندما رأيتنا في حلمك وأنت مريض، هل كان معنا في الجبل؟»

كيس الطحين أخرج غباراً أبيض وهو يستلقي في مطرحه.

«لا أذكر يا شيخ حمد، لكنني كنت أشعر بكم جميعاً معي.»

«وأولادك ذبحوا لنا الغنم؟»

«صحيح. وعشيرة عرفان أبو كروم الله يرحمه جاءت وسألت عنه. عزّيناهم. وأكلوا معنا.»

«وأنا كنت؟»

«كنت أشعر بكم جميعاً حولي يا شيخ حمد. وأنت بالذات كنت أسمع صوتك وأنت تحكي مع حسين إبني. كنتما تتكلمان عن موسم القزّ. سنرجع يا حمد. توكل على الله، سنرجع.»

(نعمان والبلغارية)

أخفى عنهم خبرها. أضناهم ذوبان الثلوج والسيول التي انحدرت وسدّت الأقنية بالوحل. عذاب فتح الطريق لا ينتهي. كانوا يخرجون فجراً ولا يرجعون قبل حلول الليل. تولى نعمان مسألة الطعام يعاونه الشيخ حمد المواظب على زيارة قشلة صوفيا. قال ضاحكاً أمام أخوته انه تحوَّل إمرأة بفقدان يده. كانوا متحلقين ليلاً حول طبخ حضّره في غيابهم. ضحكوا معه. لكن كآبة نبرته

نزلت مرّة مع الشوفان المطبوخ: بلعوا ريقهم ونظروا الى النار في الموقد. حين رأى البلغارية راعية الغنم كان واقفاً في جدول بارد اكتشفه وراء حقل بندق في الجهة الأخرى من التلال. الرمح الذي صنعه لصيد الترويت بدا لها طريفاً. لم تخف منه ومدّت اليه كوزاً مملوءاً بالحليب من دون أن يطلب. شرب الحليب الساخن الخارج من ضرع المعزاة للتو وحاول أن يتكلم معها. لم تفتح فمها ولم تفهم كلامه. استردت الكوز ومضت مع الكلب الأسود الذي يبرم حول القطيع بلا نباح. في المرة الثانية أفلح في صيد سمكتين قبل ظهورها. سمع الثغاء وانتظر حتى بانت. كانت تلتف بالفروة ذاتها لكنها عقدت منديلاً آخر على شعرها. ابتسمت وهي تحلب المعزاة وتنظر الى السمكتين في يده. لم تأخذهما وظلّت يده ممدودة. حين طفح الكوز وسال الحليب على الوحل نهضت واقتربت منه ورفعت الكوز الى فمه. أوشك أن يقع في الماء. توازن وشرب الحليب واستسلم ليدها. السمكتان خفقتا على الوحل.

(كعك الفصح)

أبونا بطرس يسمن بمحبة الرعية في عيد الفصح. ملأ سلاً بالمعمول والكعك وانتظر صياح الديك ثم خرج وقرع باب أم بربارة. القادرات يتبارين في تسقية العجين بالسمن. يُطَرَّى وعند قضمه يذوب في الفم. في كل فصح يتذكر طفولة شبه خيالية بسبب المسافة البعيدة: يتذكر والدته تعد الكعك نهار السبت استعداداً

لنهاية الصيام الطويل. مساء الجمعة الحزينة يراها تكيل سكراً وطحيناً خائفة ألا يكفيها الموجود. بينما تحشو الأقراص تمراً صباح السبت يسمع الجارات عابرات في طريقهن الى فرن الدركاه يحملن الصواني. شرشف أبيض مفروش على الأرض في بيت يجاور بيتهم. يراه من النافذة. وهو يركض في الزقاق يشمّ روائح ماء الزهر والحليب والسكر الناعم المنثور على المعمول بالجوز والمعمول بالفستق. ما تصنعه أمه يتوزع هدايا في أحد الفصح على أقارب وجيران. السلة القصب المخصوصة للخوري بالكعك المغطى بالسمسم في الأسفل وأقراص التمر في طبقة مزدوجة فوق الكعكات المدوّرة كالأساور وفي الأعلى حبّات المعمول البيضاء الرطبة محشوة بالجوز والفستق الحلبي، السلة الثقيلة الهشّة المحتويات تغطيها الوالدة بقماشة تفتا بيضاء وتنثر على القماشة رشة ماء ورد وتقول «باسم الصليب»، تلك السلة وضعته على هذه الدرب، وها هو يسكن في الغرفة القديمة. ورث رعية الخوري القديم وسكن مكانه على حائط مار الياس الكاثوليك وبعد سنوات قليلة أو كثيرة ينتقل مرة أخرى ويلحق الخوري العجوز الى قبره. لم ينتبه أنه تقدم في العمر الا أثناء السنوات الأخيرة: اختفى جاره حنا يعقوب بائع البيض وأتت زوجته هيلانة قسطنطين تطلب العونِ. منذ قرعت بابه في ذلك الصباح البعيد لم تعد حياته هي نفسها. أحبّ المرأة واتخذ طفلتها حفيدة. اذا مرّ عليه اليوم من دون أن يرى الصغيرة يشعر بنقصان في جسمه كأنه تناول طبخاً يرغبه لكنه وجده كثير الملح أو متروكاً وقتاً زائداً على النار. رآها تنمو أمام عينيه وحين وقفت وركضت وراء الدجاج للمرة الأولى كان حاضراً. دبّر عملاً لزوجة حنا واعتنى بها مثل إبنة ولم يندم. الناس لم يتكلموا

عنها الا بالخير وهذا نادر الحدوث لكنه أحسّ أن الفقراء حقاً ملح الأرض. عذّبه اللغز وطوال السنوات الماضية لم ينقطع عن السؤال. صلّى أن يعود بائع البيض. لم يصدق شائعة مقتله. لسبب مجهول ظلّ واثقاً أنه حيّ يرزق. في البدء انتظر رجوعه في أي ساعة. تعاقبت الفصول وكفّ عن الانتظار. لكنه ظلّ يذكره كل فصح بسبب البيض. الأولاد يكسرون البيض المسلوق الملوَّن أمامه وهو يصلّي أن يرجع جاره. لاحظ أن صلاته فاترة وقال لنفسه ان أوجاع كتفيه وظهره أفسدت مناجاته الربّ. بات يصلّي لراحة بدنه أكثر مما يصلّي لخلاص أرواح الرعية. كانت الوالدة تمزق قطعة من الطربوش القديم الأحمر وتغليها في الركوة وحين ترفع البيض يراه مصبوغاً بالأحمر كأنه مغمس في دم سيدنا المسيح. حين أخبره الخواجة نعيم طراد عن ترحيل الدروز نقز قلبه. هل أخذوه خطأ من الميناء؟ لعل العسكر أرادوا واحداً يكنس الباخرة ويمسحها! فكر في هذا بعد سنتين أو ثلاث سنوات من اختفائه واقتنع به حتى صار يرى حنا في حلمه ماشياً على ظهر باخرة تبرم البحر حاملاً مكنسة في يده. أتت اليه الصورة مثل إلهام ربّاني وهو يسير مع الستّ سارة بسترس في جنائن القصر. حانت منه التفاتة ورأى هيلانة داخل النافذة تمسح الدرجات الرخام محنية الظهر. «مسكينة. لا نسمع لها صوتاً.» الستّ سارة تكلّمت من دون أن تلتفت كأنها تبصر بلا عينيها. انحنت ولمست وردة صفراء مخملية البتلات وقالت «هذه يسمّونها وردة بيزا. مثل المدينة في إيطاليا.» شعر أنه ثقيل الجسم أخرق الحركة ضيق الأنفاس كما يحدث له كلّما أتى الى حيّ السراسقة. حرّك نسيمٌ الأغصان. شمّ رائحة عطنة تفوح من ثوبه الكهنوتي. ابتعد قليلاً عن الستّ بسترس وبينما يستدير كي يسمع

سؤالها رأى من فوق كتفها هيلانة في الداخل جامدة الى الأبد على الدرج الرخام.

(بيت في بلغاريا)

أطلّت شمس الصيف على أطلال رمّموها وصارت بيتاً في بلاد البلغار كما فعلوا من قبل مع زرائب بلغراد وبرج الهرسك. بيت الأخوة الخمسة كان الأجمل لأن نعمان كرّس له الليل والنهار واعتنى بمنظره عناية أم برضيعها. الأربعة عادوا ذات مساء يجرّون المجارف خلفهم مهدودين تعباً. لم يعثروا على بيتهم في مكانه. وجدوا بيتاً آخر شبيهاً ببيوت القرية المجاورة تطوقه حديقة مسوّرة بالخشب الأحمر وبشتلات خضراء تشبه نبات العطر الذي ينمو في جبل لبنان. صنع نعمان معجزته في نهارٍ واحدٍ. نشر الأخشاب بلا معونة وحصل على الشتلات من الجارات ونقب الأرض وجلب تراباً خصباً طوال أيام من دون أن يشعروا. كانوا يعودون بعد حلول الليل ويأكلون اللقمة التي حضّرها ويهجعون بلا صوت في نصف جملته: «صرت ستّ بيت!» ويعلو شخيرهم. رتّب لهم فرشات قشّ وطوى عليها أغطية مغسولة. دبّر حليباً وروّب لبناً ثم قطع جبناً. شاهدوا الكيس الكتان يقطر معلقاً من الشجرة وفغروا الأفواه عجباً. بنى بالطين فرناً تنوراً للخبز. نظروا اليه يعجن بيد واحدة كأنه وُلد هكذا! سمعوه يصفر كرعاة الماعز بينما يشعل وقداً عند الفجر. استغربوا التحسن الذي طرأ على مزاجه وعلّلوا ذلك بقُرب الفرج وأمل السفر الى الجبل قريباً. لكن

هذا التعليل قادهم الى حيرة جديدة: كل يوم يضيف تحسينات على البيت كأنه ينوي البقاء هنا سنوات طويلة! الشيخ محمود أربكه هذا الانشراح ولم يعرف كيف يتعامل معه. لم تنبت لنعمان ذراع مكان المقطوعة لكن حدوث ذلك أقرب الى العقل والمنطق من الضحكة البشوشة التي تستقبلهم كل ليلة! كأنه أصيب بالحُمق! كأن عذاب النفي خبل الرجل! ناقشوا المسألة وهم يغذّون الخطى الى ورشة الجسر على نهر إيشكار. حرث قطعة الأرض وراء البيت وحده وبذرها قمحاً وشعيراً. أخبرهم عن شجر ينبت هنا ثمره كالتفاح لكنه حامض المذاق وأصغر حبّة. «لا يتأخر كي ينمو ويُطعم!» شرح لهم خطة لجرّ الماء من ساقية غير بعيدة. أخرجهم الى أمام البيت في الليل ودلّهم الى كواكب تبرق في السماء وقال عندما يغيب ذلك النجم نبذر الشوفان. لم يعرفوا كيف يتكلم مع البلغاريات لأن كلماته التركية قليلة. فاجأهم بسمك مشوي ولم يصدقوا كيف قدر أن يصيده وحده. الدروز الآخرون أتوا من بيوتهم يتبعون الرائحة. ضحكوا بينما يتقاسمون الوليمة ويمصمصون الحسكات ونخاع الرؤوس. «سمكة نعمان مثل سمكة المسيح!» بعد أيام شاهدوه ينظف ترويتاً من الأحشاء ويملأه ملحاً. كان يقدّده للشتاء! بينما يرتاحون على ضفة نهر إيشكار سألوا جندياً حموياً صادقوه في الفترة التي قضوها في قشلة صوفيا، هل يعرف أين يصب هذا النهر؟ «في الدانوب.» تعجبوا من جوابه وبدا لهم أن جميع أنهار هذا العالم تصبّ في الدانوب بدلاً من البحر. «أنتم تفكرون في بيوتكم!» ابتسم وجلس على التراب جنبهم. كسروا خبزاً وناولوه. بلّوا الخبز بالماء وراقبوه وهو يرسم لهم برأس خنجره طريقاً من حيث يجلسون الى مدينة

دمشق. «ومن هناك فشخة الى جبلكم.» الشيخ محمود هزّ رأسه. بشير كفّ عن مضغ اللقمة ناظراً الى الخريطة. حنا يعقوب لم يصدق عينيه ولا أذنيه. لم يعلم قبل هذه الساعة أنهم يخططون للهرب! حدّق الى قاسم لكن وجهه بقي موصداً لا يتكلم. رجعوا الى البيت عند المساء ووجدوا وزّة بيضاء تنتظرهم في الحديقة. «هذه للبيض.» نظروا الى الرجل العجيب المقطوع الذراع. ثم حدّقوا الى الوزّة تبادلهم النظرة وتزعق.

(في حقل القمح)

شعر في الليل بحركة. خشيَ أن يهربوا من دونه. فتح عينيه ورأى قاسم غارقاً في النوم. ضوء أبيض غريب تعلّق كشرانق الحرير من ثقوب السقف. القمر كامل لكن نوره لا يتسرب من النوافذ بسبب السقف البلغاري الذي ينحدر ممتداً أبعد من الحيطان كي يحجب ريح الشتاء وشمس الصيف. جلس على الفرشة شاعراً بعضلات جسمه. ميّز الشيخ محمود من شخيره والشيخ بشير من لحيته الحمراء. لم يجد نعمان. القطة الهاجعة في الزاوية أخرجت صوتاً عميقاً ثم سكنت من جديد. الجرذان والفئران شمّت رائحة بيت مسكون وأغارت على كيس شعير قبل أسابيع، ونعمان جلب قطتين من القرية. قطة شقراء أقامت والأخرى اختفت. وقف حنا وخرج من البيت. سمع بكاء يأتي من حقل القمح. وجد نعمان قاعداً بين السنابل الخضر اليانعة. رآه يتلمس سيقانها باحثاً عن الحبّات بيد ترتجف. القمر خفّف الأشياء حتى بدا الحقل طافياً

على ماء، يموج كوجه بحيرة في النسيم. لم ينتبه نعمان الى وجوده الا بعد وقت. مسح وجهه وقال ماذا أيقظك؟ خرج صوته واهناً كأنه مريض ويخفي مرضه. «لا أعرف. القمر بدر.» تحرّك نعمان وأفسح له مكاناً جنبه فلا يدوس على السنابل. فاحت رائحة القمح الأخضر. سمعا اللقالق في أعشاشها: أحياناً يوقظها القمر. أخبره حنا أنهم أسقطوا عش لقالق بينما يقطعون شجراً في جبل فيتوش قبل أيام. «كبير مثل طبق القش. وفيه ريش طويل وقشور بيوض قديمة.» نعمان أشار الى جبل أبعد من سلسلة التلال وأخبره أن اللقالق تتكاثر في أديرة مهجورة هناك ووراء الجبل دير مشهور قبالته منحدرات مخيفة تجري فيها السواقي الشتوية مثل الشلالات حتى منتصف الصيف ومرات الى نهايته. «والرهبان عندهم بقر وأرانب ودواجن. ويربون الخنازير أيضاً.»

«ويسمحون لهم؟»

«يربون الخنازير حيث لا يرى الجنود.»

«ذهبت الى هناك؟»

قال نعمان انه يتجول أثناء النهار حين ينتهي من شغل البيت.

«الصيف هنا يشبه بلدنا.»

«اشتقت الى بيتك يا حنا؟»

«وأنت؟»

«أكثر مما أقدر. في الليل اذا رأيت بناتي في المنام أبكي ولا أعرف حتى يسيل أنفي وأقوم. لا تقل لأخوتي انني قلت لك. بالهم مشغول عليّ، أعرف. وأنت أيضاً. أخاف أن نرجع ويحدث ما أراه.»

«ما تراه؟»

«بناتي لا يتكلمن معي حين نصل. أنا أقف جنب أخي بشير وهم حوله ويتعرفون اليه لكن أنا لا. بسبب يدي المقطوعة. وأسناني المكسورة.»

«وزوجتك تعرفك؟»

«لم تكن في البيت.»

«أنا أرى ابنتي، بربارة. دائماً تكون طفلة كما أحفظ شكلها.»

«كم عمرها الآن؟»

«سبع سنوات.»

«وزوجتك؟»

«أراها أيضاً. وتعرفني. لكنها تبدو مريضة. ونظرتها غريبة، كأنها لا تريد رؤيتي.»

«وتحكي معها؟»

«لا. أحاول أن أحكي. لكن أستيقظ قبل ذلك.»

«أنا مرات أسمعك تبكي وأنت نائم.»

«لماذا فعلوا هذا يا شيخ نعمان؟ ماذا فعلت أنا كي يضربوني ويجروني الى حبس بلغراد؟»

(الهواء الأصفر)

قلّت القوافل على الطريق. سمعوا ان الهواء الأصفر انتشر في أسطنبول وأدرنة. حين ظهرت حالات حمى في القرية المجاورة كفّ نعمان عن جلب البيض من هناك. كان يبادله بفطر برّي يجمعه

من التلال. صباح الجمعة ذهبوا الى قشلة صوفيا من أجل الاحصاء الأسبوعي. نادى الضابط اسم حمد السعدي ولم يردّ أحد.

«حمد السعدي؟»

انتظروا صرخة «حاضر» اعتادوا نبرتها شبه الساخرة، كأنه يقول أنا هنا لكنني أعمى ولست هنا تماماً أيضاً.

«حمد السعدي؟»

عرفوا عندئذٍ أنه ذهب.

*

اشتروا سكراً من الدكان تحت الجامع. وقفوا أمام الفرن حتى داخوا من رائحة الخبز. نظروا الى نسوة صوفيا في الطريق ونظروا الى نوافذ السراي. «مثل قشلاق بيروت!» ثلاثة غزلان حمراء مربوطة بحبل واحد كما يُربط المحابيس مرّت أمامهم. مشوا الى سبيل الماء وانتظروا دورهم واقفين بين الجرار وشربوا. كان الماء بارداً طيباً. دمعت عيونهم وهم يسيرون على مهل، متنقلين في الطرقات المزدانة بالحدائق، بين بيوت بقرميد وأخرى خشبية السقوف. سمعوا هديراً بعيداً لم يعرفوا سرّه. لم يهتموا. كانوا سعداء بهذا السير البطيء بلا هدف، في هذا اليوم المفعم برائحة الحقول. على القمم البعيدة التي تُرى من أي شارع لم تسدّه العمارات شاهدوا بياض الثلج، ثابتاً مثل صخور الملح، يرسل في النفس شعوراً حلواً. جلسوا على قارعة الطريق وعندما اقترب البائع الجوّال يطقطق بفناجينه التركية اشتروا منه قهوة وشربوا. داعبت الشمس إبريقه النحاس. تفرجوا على زحمة السوق تتضاعف بانتهاء خطبة الجمعة وخروج المصلين جماعات جماعات من الجامع. من شرفة حجرية أطلّت امرأة مكشوفة الوجه في ثوب

أخضر كثير الكشاكش. كانت تحمل مروحة صينية وتحرّك معصمها متمهلة وهي تميل على الدرابزين وتنظر الى تحت. امرأتان غيرها ظهرتا بعدها في ثوبين مشابهين. ثم خرج رجل في بذلة فرنجية زرقاء معتمراً قبعة فرنجية. كان يدخن غليوناً ويضحك وهو يصغي الى النساء وينظر الى أشياء تشير اليها الأجمل بينهن بمروحتها المطوية. ظهر بعده رجل آخر، أكبر سناً، وحين نزع قبعته ونظر اليهم شعروا برهبة مباغتة. «كأنه جودت باشا!» ضحكوا والرجل على الشرفة ضحك أيضاً.

«نحن نضحك لأنه يشبه باشا ميتاً لكن هو ماذا يضحكه؟»

مشوا بين البضائع وقطعوا السوق القديم الى السوق الجديد ونظروا الى متاجر بواجهات زجاج وأبواب لا تتراصف الأكياس في مدخلها. وجدوا الشمس قاسية هنا ورجعوا الى السوق المسقوف واشتروا كعكاً وأكلوا. لم تنهكهم دوامة الألوان والأصوات والعطور. بائع الجلاب ملأ أقداحهم بالسائل القاني الذي أذاب فيه ثلجاً يُخزّن في مغاور الجبال. رفعوا الأقداح وشربوا وهم يرون الشيخ حمد السعدي ماشياً مع عصاه عبر هضبة الأناضول الى أبيه الذي ينتظره في الجبل.

(الهواء الأصفر - 2)

عمّقوا أقنية التصريف خارج مدينة بلوفدف وقضوا ثلاثة أيام بين فلاحين كرماء جلبوا لهم فاكهة صيفية ضيافة ولم يقبلوا قرشاً في المقابل. شاهدوا مراعي الماشية تترامى بلا حدود فاصلة جنباً

الى جنب الحقول المحروثة والبساتين العارمة الخضرة. تعجبوا لأن الماعز لا يتعدى على الشجر والقمح. كان هذا سابع المستحيلات بالنسبة اليهم وشرحوا لِحَنّا أن ماعز الجبل طالما أهرق دماً وتسبب بمعارك. قافلة آتية من الشرق نقلت اليهم خبر تراجع الهواء الأصفر الذي يسمّونه هنا كوليرا. استبشروا خيراً وقالوا من الآن الى الشتاء يكون الوباء تبدّد.

«وفي الشتاء نرجع الى البيت.»

تكلموا مع أهل القافلة في يوم أحد. تذكروا اليوم بسبب قرع الأجراس في بلوفدف. قبل أن يدور الأسبوع عليهم قضى منهم تسعة كأنهم أُعدموا بلا إنذار. القرية أيضاً خرجت منها مواكب دفن. الحمى والاسهال والغثيان الذي يُخرج الأحشاء مزقاً من الفم، مخلب الهواء الأصفر أشد بطشاً من الرصاص. سحقتهم الضربة. في الأسبوع الثاني قضى خمسة. القرية دفنت ثلاثين ميتاً في عشرين يوماً. ضُرب الحجر الصحي على صوفيا لكن الهواء الأصفر تسلل مع الخضر والفواكه والحلويات المخبوزة في الريف. لم يُعرف لماذا تراجعت الكوليرا بسرعة كما أتت لكن في هذه الأثناء لمس الموت النفوس برأس أصبعه وغيّرها. الدروز دفنوا في مساحة من المقبرة خُصصت لهم 16 رجلاً. الشيخ عماد الدين محمود أوشك أن يكون السابع عشر لكن الرجفة عبرت وجسمه استرد حرارته الطبيعية. مرض مع صاحبه الشيخ خطار عبد الملك في النهار ذاته وواحد فقط منهما لم يُطمر في المقبرة البلغارية. الميت الأخير في نهاية الاسبوع الثالث دفنوه على عجل وهم يلفّون وجوههم بالقماش. لم يتبادلوا التعازي ولا الشدّ على الأيدي ولا حتى النظرات. طمروا الشيخ عثمان أبو غنّام وتبعثروا

خائفين من حشرات سابحة في الهواء. كان عزيزاً عليهم لكنها الكوليرا. في نفوسهم ترحموا عليه طويلاً وتذكروا قريبه إبن عائلته الشيخ غانم أبو غنّام ميتهم الأول الذي كسر رأسه على حائط في قلعة بلغراد.

*

الشيخ بشير غفار عز الدين رجع بلا أخوته من دفن القتيل الدرزي السادس الشيخ يوسف حلاوي. وجد حنا قاعداً على الأرض يقشر ثوماً. كانت النار مشتعلة والمكان يختنق بالدخان.

«ربّك يحميك يا حنا. لا تحرق البيت على رؤوسنا.»

«أين قاسم؟»

«مع محمود ونعمان. في الدفن.»

«لماذا تذهبون؟»

«من يدفنهم اذا بقينا هنا نقشر ثوماً؟»

«زوجتي مات أهلها بالهواء الأصفر. وكان عندها أخوة وماتوا أيضاً.»

«ونحن يا حنا سوف نموت هنا. ألم يخبرك أحد؟ لكن حمد نجا بجلده. المبصر الوحيد بيننا.»

«في الليل كانوا يبكون في القرية.»

أخذ الشيخ بشير كسرة خبز وأكلها. كشح الدخان وخرج. التفت وقال لحنا انه سيرجع قبل الليل.

بدا متردداً لحظة ثم سأله لماذا لا يترك الثوم ويأتي ويتمشى معه في البرّية، هناك الهواء أحسن.

«أم أنك تخاف مني يا حنا؟»

«لماذا أخاف منك؟ هل أنت تكرهني؟»

«لا أكرهك يا حنا. أنت مثل أخي الآن. لكنني ألعن الساعة التي رأينا فيها وجهك. انظرْ ماذا أصابنا. والليلة خرج محمود أربع مرات من باب البيت. معه إسهال. واذا مات ماذا نفعل؟»

(الهواء الأصفر - 3)

لم تدخل الكوليرا بيتهم. سقوا الشيخ محمود زهورات مغلية. أكل خبزاً ولبناً وشُفي من الإسهال.

كلما سمعوا نعياً خرجوا وحفروا ودفنوا. في اليوم الرابع عشر من النكبة خرج حنا معهم. أراد أن يلقي نظرة أخيرة على الشيخ عارف عبد الباقي. حفظ له الودّ لأنه طالما بادره الى القاء التحية. مع أن الشيخ عبد الباقي كان ميّالاً الى التجهم، قليل الضحك. دفنوا مع الشيخ مطرقته التي لم تكن تفارق جنبه. صلّوا عليه بسرعة وانكفأوا حزانى من حيث أتوا. حين رُفعت الكرنتينا عن صوفيا اصطفوا في القشلة وأحصوهم. اكتشفوا ان الهواء الأصفر عصف بالعسكر أيضاً. طالت فترات الصمت بعد عَدّ الأسماء التي لم يحضر أصحابها. خرجوا من الثكنات يتصبّبون عرقاً تحت سماء غائمة. كان العالم ساكتاً كأنه في حداد. لم يبقَ منهم الا 26 ومع حنا يعقوب الذي يُسمّونه سليمان عز الدين يكون العدد 27. ركضت أحصنة على الدرب. ابتعدوا لئلا تدوسهم الحوافر. غطاهم غبار. عبر السماء سرب لقالق. ماجت الحقول ذهبية مثقلة السنابل.

*

حصدوا القمح الذي زرعه نعمان وقلبوا التراب وزرعوا ملفوفاً وقرنبيطاً. القرويون البلغار تقربوا منهم بعد الكوليرا. دفنوا موتاهم في مقبرة واحدة. أثناء الوباء ساعدوهم على حفر القبور كما ساعدوهم وقت الشتاء وجرفوا ثلجاً من أمام أبوابهم. لم يأخذوا من الأخوة عز الدين شيئاً في مقابل الشتلات الصغيرة. الشيخ محمود علّم حنا كيف يحملها برقةٍ بين أصابعه، وكيف يُوسع لها حفرة ويزرعها ثم يردّ التراب ويسقيها، وكيف يُميز الملفوف من القرنبيط وهو ما زال جذراً وورقة. طحنوا القمح وخبزوا منه. قسموا الرغيف الأول خمس قطع وأكلوا.

«ان شاء الله نحصد ونخبز في الجبل في الصيف الآتي.»

«وتأتي الى بيتنا يا حنا وتأكل معنا.»

اشتدّ الحرّ يومين. تكاثر البعوض والذبان. تشققت أرض البيت. رشوا ماء ورصّوا الطين. «بيتي في بيروت أرضه هكذا، كل صيف أمرحها وأرصّها بالحجر أو يخرج النمل.» أتت بلغارية وشربت عندهم زهورات وعزّتهم بالدروز الموتى. جلسوا معها خارج الباب، في ظلّ السقف، وتأملوا الحرارة تنسج غلالة فوق الحقل. أخرجت من ثوبها صرّة مملوءة بحبّات الفاصوليا وقالت هذه لكم. كلّمتهم بالاشارات وحين رسمت علامة الصليب التفتوا صوب حنا كأن الاشارة الأخيرة تكفي كي يفهم أقوالها ويشرح لهم. كان وجهها مشوهاً بتجاعيد الشمس وعظمها ملوياً. مثل جميع الفلاحات البلغاريات في هذه الأرض القاسية بدت عجوزاً مع أنها لم تتجاوز الخامسة والعشرين. جاءت القطة الشقراء وتمسحت بقدميها. نعمان أخبرهم لاحقاً أن زوجها قتلوه خطأً بينما يطاردون لصوص خيول.

«من قتله؟»

«لا أعرف. الجنود. لا؟»

صاروا يخرجون الى الطريق وقتاً أقل. سقوا الخضر المتأخرة وعثروا وراء ثلم الملفوف على جلد ثعبان كامل كأنه طُرح هنا أثناء الليل. «طوال الصيف كان جارنا ولم ننتبه.» قاسوا طوله وعلقوه زينة داخل البيت. أصابت حنا الحمّى بعد يوم طويل في نقر الأقنية. اعتنى به قاسم ليلاً ونعمان أثناء النهار. تحسن سريعاً لكن الحرارة انتقلت الى قاسم حتى عجز عن القيام. منذ نزوله في بئر الهرسك صار عرضة للمرض. خرج نعمان الى البريّة. اختفى نهاراً. غربت الشمس ولم يرجع. بشير نظر الى التلال وقال «تأخر كثيراً.» الشيخ محمود رفع عينيه عن الفأس التي يُصلح قبضتها. «لا تخف يا بشير، أخوك ليس الشيخ حمد، لن يذهب وحده.»

«أخاف؟ أنا أصلّي كي يذهب. ماذا يفعل هنا؟»

رجع مع ظلّه الطويل يحمل جذوراً متربة. نقعها في الجرن وغسلها ثم قطعها وغلاها في قدر حتى صارت المياه بلون العدس المطبوخ. شربها قاسم وقام معافى في الصباح: «تنفع يا نعمان.»

(النهر)

قضوا أياماً وراء قشلة صوفيا. لبسوا البزات النظامية وبنوا الحيطان لحدائق الباشا الجديدة. الهواء قرص وجوههم الحليقة. تبلّلت طاقيات القطن على رؤوسهم. الباشا نظر اليهم من شرفته. كان يأكل فستقاً ويلقي القشور في طبق فضة. لم يميزوا وجهه

البعيد. نقلوا تراباً الى البساتين من غابة مجاورة. وجدوا حفرة عميقة تتسع لبيتين يجرّ اليها حطّابون أشجاراً مقطوعة. «يشعلونها ويطمرونها بالتراب ويتركون منافذ ضيقة للهواء كي تتفحم.» حنا يعقوب حاول أن يتذكر أين ومتى سمع من قبل كيف يُصنع الفحم النباتي لكنه لم يقدر. لم يعد حنا القديم واذا حمله ربّنا في هذه الساعة الى بيته في بيروت وأوقفه أمام زوجته هل تعرفه هيلانة؟ تلكأ وسأله قاسم لماذا وجهه أصفر؟ انتبه أنه مغمّس بالعرق وشعر بالحاجة الشديدة الى النوم مع أن النهار لم ينتصف بعد. قطف نعمان القرنبيطة الأولى وأكلوها. أرسلوهم لبناء جسر عند سفوح جبال رودوب.

أعطاهم نعمان «مونة» للطريق وصلّى أن تكون هذه المهمة الأخيرة قبل السفر الى البيت. أمطار الخريف وقعت عليهم بينما يتمددون في عربات تجرّها ثيران. بلغوا نهراً أصفر المياه بعد ليلة أضاءتها البروق من دون أن يسقط مطر. «في الهرسك كنت مرات أسمع الرعد.» نظر حنا الى وجه قاسم ورأى تجاعيد عند عينيه، غائرة وحزينة. نزلوا عند جسر خشبي محروق. قسموهم الى مجموعتين. حنا ذهب للحفر ونقل الرمل. قاسم ومحمود وبشير ومعظم الدروز التقطوا الحبال وذهبوا لرفع الحجارة. شغيلة أجراء وسخرة سبقوهم الى المقلع ونقروا تلاً من الحجارة الضخمة. قبل حلول الظهيرة دبّ فيهم الانهاك. الضفة عريضة رملية، والأقدام تغوص. رآهم حنا وهو يطلّ من الحفرة ويرمي رفش رمل: بدوا مثل صف قنافذ بليد بينما الحجارة المحمولة على الظهور تطويهم صوب الأرض. في اليوم الأول كوّموا صخوراً عند الضفة. في اليوم الثاني أزالوا من النهر الأعمدة المتفحمة وجلبوا مزيداً من

الحجارة. في اليوم الثالث نشروا خشباً للسقالة. امتلأت الضفة بالحفر العميقة. صادق الشيخ عماد الدين محمود بلغارياً من التوماك. جاء البلغاري وأكل معهم لقمة. حنا أخرج رملاً من المداس وأصغى الى حديث البلغاري. الجنود تبعثروا في صفوف غير مستقيمة ينظرون صوب الغابات كما فعلوا طوال الأيام الماضية. كانت أصابعهم تتعرق على البواريد. «لا يظهرون في النهار.» في اليوم الرابع بنوا السقالة وجلبوا مزيداً من الحجارة. ظلّ حنا يسمع وهو في قعر الحفرة الطرقات على الأزاميل وهتافات الرجال وهم يرفعون الصخور مربوطة بالحبال على الظهور. في اليوم الخامس، عند الغروب، بينما مطر خفيف يتساقط والدفعة الأخيرة من الحجارة تُنقل الى الضفة، باغتهم الرصاص الغزير من بين الأشجار. حنا رفع رأسه كالخلد ورأى الرجال جامدين ومثقلين بالحجارة يبحثون عن ملجأ. أحدهم أبصره واندفع صوب حفرته. بدا بطيء الحركة لا بسبب الحجر المربوط الى ظهره بل لعلّة قديمة فيه. تعثر ونزل على ركبة واحدة على مسافة أمتار من رأس حنا. كان هذا الشيخ نجيب عبد الصمد. الرصاص ملأ الرمل بالثقوب. سمع حنا صراخاً يصمّ الأذنين والتفت ورأى الشيخ بشير غاضباً مكشّراً عن أسنانه يحاول فكّ الحبل والتخلص من صخرته. العقدة عند الكتف، فوق القلب، لم تنفك. بينما يعالجها بأسنانه نفر الدم من رقبته. ذبحت الرصاصة شريانه كأنها سكين. حنا أراد الخروج. جسمه لم يقبل. تجمدّ بالرعب كما حدث له حين أبصرهم للمرة الأولى راكعين مربوطين في ساحة التحميل في ميناء بيروت. سقط الشيخ بشير وارتطمت ذقنه بالأرض. لم يغمض عينيه. ظلّ يحدّق أبدياً الى

حنا يعقوب. في الغروب الماطر تراكضت الأشباح مترنحة. الجنود انبطحوا وقوّصوا على الأشجار التي تقوّص. رأى حنا جندياً راكعاً على ركبة واحدة يسدّد عابس الوجه. أصابه رصاص في بطنه وألقى البارودة وهو يميل ثم أمسك بها من جديد وكفّ عن الحركة. الزعيق أتى من أعلى كأن الرجال يرتفعون الى فوق وهم يقعون قتلى على الرمل من حوله. رأى البنادق تشرقط بين الأشجار. صرخة أخرى جعلته يلتفت. وجد من يبحث عنه. يده ارتفعت. كانوا كتلة من الرجال الذين انتصبوا يتلقون الرصاص في صدورهم كأنهم تعبوا من الفرار الى هنا ثم الى هناك بحثاً عن صخرة تبتعد وحدها بينما الصخرة على الظهر جامدة ثقيلة غير قابلة للحركة. الشيخ محمود عز الدين سقط على ركبتيه. قميصه تشبّع دماً. الألم بدّل قسماته. تجمد هكذا وقتاً يتلفت بعنقه باحثاً عن أخوته، وجذعه ثابت بسبب الصخرة، ثم هوى مصدوماً بالموت كأنه تلقى ضربة من الوراء. قصّهم الرصاص مثل منجل القمح. قاسم دار دورة واحدة يبتسم مبلول الوجه ابتسامة صبي نال حلوى يهواها، كأنه الآن يخرج من «البئر» المحشوة ظلاماً ودماً بقّع درج قلعة حاصبيا. أفلت جسمه من الصخرة لأن الرصاص قطع الحبل كي يقطع لحمه. نفر الدم قوساً من عنقه. خطا خطوتين متخففتين من الثقل ثم اندفع بذراعين ممدودتين الى الأمام كأنه يغطس في البحر. انفجر الدم من رأسه. الحرارة لطمت حنا في عينيه. رأى اليد الممدودة تنتفض كسمكة حمراء على الرمل. دام ذلك رمشة عين أطول من الأبدية. لم يبقَ من وجه قاسم أثر: نقره الرصاص ومزّقه وعفّره بالرمل. صار كتلة لحم نازفة. انتفض جسمه مرتين مثل ثور ذبحه جزار بارع، ثم همد. غرق في بركة سوداء اتسعت

بوقوع المطر. حنا ظلّ يصرخ حتى فقد صوته. اهتزّت حفرته وارتطم به ثقل من الخلف. شعر بسلسلة ظهره تنكسر. لم تخرج الصرخة الأخيرة من فمه. غاص في الرمل الرطب بينما المساء يغطي ساحة المذبحة.

(النهر - 2)

وقع الوحل على جسمه ثقيلاً زنخ الرائحة مثل بيض فاسد قديم. لم يتحرك. «أنا ميت. قتلوني.» ظلّ يرى الأضواء المتنقلة، مصابيح أو برق نجوم أو لفافات تبغ مشتعلة. حتى أنه شمّ رائحة التبغ وهو يحترق. لم يميّز الأصوات بسبب الدمَ الذي ملأ أذنه. نزف في حفرته بينما الشيران تشخر نصف نائمة وهي تجرّ عربات محملة بالجثث. «أريد أن أذهب الى البيت.» رفع جسمه لكنه سقط مرة أخرى. الصداع عصر صدغه. كأن جمجمته تتشقق. تكاثف الظلام. «أنا قاسم، اذا احتجت شيئاً اندهْ لي!» فتح فمه وأخرج الرمل من بين أسنانه. شعر بالسائل يقطر في الحفرة. «دم؟» انطفأ العالم زمناً. «البحر؟ الباخرة؟ عكا؟» المطر غسل كتفه. استيقظ راجفاً يتجمد بالبرد في الظلام. كان الجوع يهدّه. «هيلانة طبخت لي. بربارة تنتظرني. سأذهب الى البيت.» مدّ يده وبحث عن نقطة جامدة يستند اليها كي يتحرك. جدران الحفرة وقعت عليه، كأنها تريد دفنه. ملأ الوحل ثقباً في رقبته. لمس الرقبة كي يرى أين جرحوه. رؤوس أصابعه أوجعته. جاهد حتى أخرج جسمه من القبر العمودي. لهث كأنه حفر للتو نفقاً من

بلغراد الى هذا النهر. كانت الجبال نائمة، مغسولة بالمطر، تميل غاباتها ميلاً خفيفاً بلا صوت. عند النظرة الأولى لم يجد أثراً لما جرى. ثم رأى الحجارة. كانت متباعدة بلا نظام حيث سقطوا. مبقّعة بالأسود. وأبعد منها رأى كومة. «جمعوا الجثث وتركوها؟» تحرك مرتعش الكتفين في ضباب داكن وحين اقترب مسافة كافية اكتشف أنها حجارة مقصَّبة معدَّة لبناء القنطرة التي لن يراها. سمع أنيناً يخرج من الأرض.«هذا أنا؟» أصغى لكن الأنين اختفى. تمسّكت الرجفة بجسمه كأنه شاخ في ليلة. ركع على حافة الماء وشرب كأنه لم يشرب منذ سنوات. غسل أذنه ورقبته ووجهه. صعقته برودة النهر. كان الدم متخثراً ومتجمداً على رقبته وفي شعر رأسه الذي نبت من جديد. بينما يفرك صدغه بالماء مغمض العينين رأى وجه قاسم قبل أن يتمزق. التفت وحدّق في الظلام ولم يرَ غير الرمل الأسود. رفع وجهه ووجد السماء غائمة بلا نجوم. كانت مرئية مع ذلك ورغم أن الرذاذ لم يتوقف عن الهطول. رجع الأنين. بحث عن مصدره واكتشف رجلاً يحتضر في حفرة بعيدة. كان تركياً او ألبانياً أو مقدونياً، لم يتأكد. حاول سحبه من قبره المكشوف لكنه وجده أثقل من كومة الصخور كلّها. انزلقت أصابعه المبلولة على لحم مبلول. كان دافئاً، يتنفس، لكن أنينه يخفت مع مرور الوقت. تركه وذهب غائم العينين الى حيث اعتادوا الجلوس وقت الراحة. بحث عن شيء يأكله. بين حجرين وجد صرّة مخبأة. أخرجها وفتحها وأكل الخبزة اليابسة ومضغ حصّ الثوم. بحث عن المزيد ولم يجد. سكت الأنين تماماً. شمّ الرائحة الفظيعة تتبخر من الرمل. مصرانه التف في بطنه كأنه ينقلب. خرج ما أكله من فمه منفجراً في كتلة خضراء. مياه النهر

ضجّت حول السقالة المتروكة. هبّ الهواء وصفّر بين الحجارة. كان الرمل منبسطاً الآن خالياً من التجاعيد، تتباعد فيه ثقوب سرطان عملاقة. استمر سقوط المطر طوال الليل. تحرك متمهلاً أولاً ثم تسارعت خطواته قليلاً حين اعتاد السير في الظلام. ارتطم بالجذوع وبعد كل خبطة شعر بجسمه يتورم ويتفكك عنه. لم يكن متأكداً أين يمضي لكنه ظنّ أنه يمضي صوب البيت. «المهم أن أظلّ أمشي.» قبيل الفجر توغل هاذياً محموماً بين الأشجار، يبحث عن الطريق الرومانية المستقيمة كي يستدل بها. «وبعد ذلك أتبعها من بعيد. وأظلّ أمشي.» وجد فطراً يؤكل. التهمه وهو يتضور. انقبضت معدته الى نقطة مشتعلة وأحرقه الألم على طول زلعومه بينما الكتلة السوداء السائلة تدفق من فمه. تلوى جسمه كالدودة. ابتلّت عيناه بالعرق. غاب عن الوعي ساعتين في كومة أوراق يابسة. أيقظته السناجب والطيور. صحت السماء وهو نائم وأضاءت الشمس أرض الغابة. دبّ على أربع في ثيابه المبلولة. اصطكت أسنانه. بكى وهو يتكوم في بقعة الشمس. وظلّ أياماً يبكي كلّما استيقظ من النوم.

(خير الدين قيس)

واحد من القلة الناجية. شهد مصرع الأخوة عز الدين. لم يكن أول شخص ينقل خبرهم الى الشيخ نعمان. الجنود حملوا خير الدين قيس مع القتلى في عربة الجثث. كان مصاباً ينزف لكنه حضر دفنهم بلا أكفان في مقبرة ثكنة تبعد ساعتين عن موقع

المذبحة. رأى صديقه الأعزّ الشيخ رؤوف أبو علي يقضي مفتوح البطن راكعاً ومطوياً الى خلف على صخرته في ذلك الغروب الدموي. كان يحاول أن يرد أحشاءه الى بطنه المبقورة. خير الدين قيس جرّب أن يزحف صوبه لكن صخرته جمّدته في الرمل الرطب. استعان بها متراساً حين عجز عن فكّ الحبال واحتمى من الرصاص جامعاً جسمه كالقنفذ. صاح ونادى صاحبه وتكلّم معه. بعد أيام أنزلته عربة يجرّها حصانان أمام بيت الأخوة عز الدين. كان ثالث العائدين الى بيوت الدروز على حافة القرية البلغارية. قطع الخطوات الى باب نعمان حاملاً جزمته. اتسخت ضمادات قدمه كأنه أتى يعرج ماشياً من الهرسك. قطعوا ثلاثة من أصابعه لئلا تقتله الغرغرينا. أراد أن يعزي نعمان بأخوته قبل أن يدخل الى البيت. نعمان أصغى اليه أزرق الوجه، شاحباً. منذ أيام، منذ أخبروه، يجد صعوبة في تحريك جسمه. انطوت سلسلة ظهره. صار أقصر. برزت عظام وجنتيه، عاجية رفيعة. أخرج خير الدين حرزاً من جيبه: «هذا كان في رقبة أخيك الشيخ محمود الله يرحمه». تناول نعمان الحرز ساكتاً. مطر خفيف قرع السقف. أخرج خير الدين حرزاً آخر. «الشيخ رؤوف الله يرحمه أوصاني أن أعطيه لإبنه موسى حين نرجع الى الجبل.» شهق وسكت ناظراً الى الخارج. «البقية بحياتك». صوت نعمان خرج خشناً واهناً مريضاً. كأن شخصاً غيره يتكلم. يده اليتيمة الملمومة على حرز أخيه ظلّت ترتجف.

*

خير الدين قيس رأى صاحبه رؤوف أبو علي إبن قرية بريح يلفظ أنفاسه باكياً مبقوراً عند سفوح جبال رودوب في بلاد البلغار.

حرّره الجنود من الصخرة حين سكت الرصاص. لم يقوّصوا عليهم من الغابة العالية بينما يجمعون الجثث. احتموا بعربات. العصاة لم يرموا الثيران بالرصاص. لعل المطر أبعدهم. أو أنهم رصدوا وصول التعزيزات من الثكنة. لفّ قدمه بنفسه قاعداً بين الحجارة عند حافة النهر. شرب ماء ونظر لاهثاً الى القناديل. كانوا يجمعون جرحى وقتلى. رأى الشيخين عماد الدين محمود إبن الباروك ومحمد بركات رضي الدين إبن بعقلين يساعدان في قطع الحبال وزحزحة الصخور ورفع الجثث. نادى عليهما في الليل لكن صوته لم يصل. رأى جنوداً حفاة يطمرون قتلى سقطوا في حُفَرِ الرمل كأنهم نقروا قبورهم بلا مساعدة. رأى ضابطاً تعيس الوجه يدخن تبغاً ويفرك صدغه. استعان ببارودة مكسورة ووقف ومشى ناظراً الى الغابة المظلمة تميل في الأعلى كأنها ستقع عليهم. صفوا الجثث متراصفة على الرمل وجرّوا العربات الى أقرب مسافة ممكنة. ميّز جثة قاسم عز الدين من القامة الطويلة. الخردق محا وجهه. الشيخ محمود عز الدين في المقابل بدا صقيل الملامح، وديعاً، شبه نائم في نور القنديل. مزّق الرصاص قميصه وسرواله كأنهم شطبوه بالسيوف والفؤوس. الشيخ بشير تحول جنب صخرته الى ذئب مقتول: كانت أسنانه ظاهرة والعقدة بين حاجبيه متجعدة كأنه مات وهو يخنق عدواً. بحث عن الأخ الرابع، بائع البيض المسيحي من بيروت الذي صار واحداً منهم، ووجده ميتاً في حفرة مكوماً ومغطى بالدم والرمل. في حفرة مجاورة عثر على الشيخ نسيب أبو صالح. ظنّه للوهلة الأولى حيّاً. كان مفتوح العينين مغسول الوجه يتأمل السماء بنظرة صافية حزينة. حين أدرك أنه ميت أراد أن ينحني كي يغمض عينيه. أبعده الجنود

من الطريق. ذهب الى صاحبه رؤوف أبو علي وجلس جنب رأسه. تعاهدا قبل اقتحام دير القمر أن يحمي أحدهما ظهر الآخر. لن ينسى أبداً كيف ظلّ البخار يرتفع من مصارينه الساخنة المكشوفة بينما الرصاص يقطعهم بلا رحمة والمطر يتساقط على حدباتهم الحجرية. مال بجبهته وبكى وهو يتلمس الوجه الخشب والرقبة المثلجة. أحد الجنود أمره أن يتحرك. نظر اليهم يرفعون جثة صاحبه وانتظرهم حتى يرجعوا لرفعه هو أيضاً. لم يرجعوا وكان عليه أن يسير وهو ميت حتى العربة. حملته الأيدي بينما يترنح وألقته فوق الباقين. لم يتوقف المطر.

(الجبال)

ضاع في جبال تتكرر غاباتها مثل كابوس قديم منتظم. لم يعثر على الطريق الرومانية المستقيمة. قصف الرعد وجرت المياه في أرض الغابة. رأى نبعاً ينفجر من صخرة جافة. بدلاً من المضي شمالاً أخذه الهذيان جنوباً وابتعد أكثر فأكثر عن صوفيا. طوال أيام لم تظهر الشمس من بين الغيوم. وقعت الثلوج الأولى لكنها ذابت ولم تتكوم. أثناء الليل أبصر عيوناً صفراء وخضراء تراقبه من الأرض والسماء. عاش على الفطر وعلى ثمر حرشي أحمر صغير الحبّة يشبه العناب والزعرور البري لكنه مرّ وقشرته غليظة. لم يتوقف الغثيان ولا انقباضات المعدة. حين بدأ الاسهال بكى ونام مسنوداً الى جذع شجرة وهو يبكي. قضى نهاراً في كهف يرجف برداً وينظر الى حبال المطر تسوط منحدراً متوحش الصخور يبث

رعباً في القلب. رائحة الحيوانات التي أقامت هنا من قبل تغلغلت في جلده. تلك الليلة سمع عواء قريباً وخاف أن تهاجمه ذئاب أو ضباع. بينما أسنانه تصطك، صلّى بلا توقف أن ينقذه الربّ من الأنياب. تقطعت صلاته بارتفاع حرارته وصار يصلّي كالدراويش في دمدمة حارة متصلة بلا كلمات. نسي الكلمات وبات نطقه أقرب الى البرطمة. الألم في فكه وخده وأذنه منع عنه النوم رغم تعبه الشديد. مزّق السعال صدره. البرق أضاء المنحدرات الصخرية. بعد كل التماعة اشتدّ سقوط المطر. قبيل الفجر وقعت حبّات الجليد كبيرة وطرطقت على الحجارة أمام الكهف وقفزت الى الداخل. بلا نار أيقن أنه سيموت. حضن نفسه وأغمض عينيه وتخيل وجه هيلانة ووجه بربارة. رأى أشباحاً وجليداً وضباباً أبيض ووجه الشيخ حمد السعدي الأعمى مشوهاً بحروق البارود. انتبه الى أظافره تزرق والى البقع السوداء على فخذيه. وقف وتحرك في مكانه وانتظر الضوء. في ذلك الصباح ركض ووقع ونهض وركض من جديد. انحدر بين أشجار تسوطه بأغصان من زجاج. حين عثر على طريق قدم ضيقة قفز قلبه الى زلعومه. طار منحدراً في الطريق وبلغ وهدة كثيرة الشوك ملتفة القصب لكنه وجد الطريق من جديد وتسلق هضبة بينما الدم يسيل على ذراعيه وساقيه. أطلّ على قرية صغيرة تغطيها قشرة ثلج وتحيط بها تلال وحل. أبصر دخاناً يرتفع من سقوف ورأى للمرة الأولى منذ فترة طويلة بشراً: امرأة ملتفة بصوف خروف تقطع حطباً بفأس أمام باب بيتها. كانت بعيدة، في الأسفل، قصيرة كقزم. قبل أن يتحرك أبصر شيئاً ألزمه مكانه. صبيان صغار، سبعة أو ثمانية، ظهروا من ثغرة بين بيتين وهم يطاردون واحداً منهم ويضربونه بالعصي. وقع

الصبي وتجمعوا حوله. كان يقف بين حين وآخر ويتكلم معهم من دون أن يبكي وهو ينفض ثيابه. عرف أنه يكلمهم لا من الأصوات ولكن من حركة الأجسام. لاحقاً صار الصبي يبكي لأنهم لم يتوقفوا عن دفعه أرضاً. المرأة رأتهم ولم تفعل شيئاً. حملت الحطب الذي قطعته ودخلت وردَّت الباب. حنا انتظر المساء ثم انحدر صوب القرية. رأى ثعلباً رمادياً متسخ الفروة وتبعه بنظرته وأبصر قن دجاج على حائط بيت يغرق في العتمة. الثعلب شعر به واختفى. حنا دبّ على أربع حتى بلغ القن. في الداخل الضيق وجد دجاجة واحدة وبيضة واحدة. لم تخف الدجاجة منه. أمسكها بيد خبيرة وكلّمها. لم يبكِ وهو يحضنها في الظلام. رقد متكوماً على جنبه. شعر بالدفء وتنشق الرائحة. كسر البيضة برأس ظفره وشرق من ثقب النقطة سائلاً حاراً دسماً. بينما صفار البيض ينزل كثيف المادة في زلعومه بدأت الدموع تسيل من عينيه. نام في القن والدجاجة بين يديه. رأى للمرة الأولى منذ دهر أنه رجع الى بيته وأنه قاعد مع زوجته عند المساء يخبرها عن نهاره. أيقظه نباح كلاب رصدت رائحته. قبل أن يخرج من القن أحاطوا به وأثخنوه شتماً وضرباً. بعد ذلك جرّوه الى قلعة وراء تلّة مسننة الصخور ورموه في قبو بانتظار استيقاظ الآغا من النوم.

(الحُكم)

أدخلوه الى غرفة الآغا عند الغروب. أعطوه جلداً مدبوغاً يستر بدنه. ركع مثقلاً بالسلاسل في غرفة مستديرة حجرية الأرض

والحيطان، دافئة بسبب كوانين الفخار المملوءة جمراً والموزعة في جنباتها. شمّ رائحة لحم ورزّ. بلع ريقه. كان صادق آغا منطرحاً على حشية وثيرة تعلو عن الأرض شبرين، يدخن غليوناً تركياً طويلاً كعادته بعد الغداء ويداعب قطة بيضاء، ضخمة وسمينة. بدا رائق المزاج على غير عادة وهو يصغي الى القروي الواقف عند النافذة. «بيضة؟» حنا يعقوب أصغى الى القروي صاحب الدجاجة من دون أن يفهم لغته الغريبة. لكنه فهم عدداً من أسئلة الآغا. تحدث الآغا مع رجل قاعد في الزاوية يكتب بريشة على دفتر سميك كبير الحجم. وصل المساء سريعاً وأدخلوا مصابيح. القروي نقل ثقل جسمه من قدم الى أخرى. رائحة تيس عجوز فاحت حين تحرك. هجعت القطة كأنها شربت دلو حليب.

«أنت هارب من خدمة السلطان. وسارق دجاج أيضاً.»

الرجل تكلم من الزاوية بالتركية. حنا ظلّ صامتاً. كان محموماً ورقبته تهتز وحدها. الآغا انتبه الى رجفة شفتيه وسأله عن اسمه. في الخارج استمر قصف الرعد. كلّمه الآغا بالتركية ثم بالألبانية وفهمه حنا في المرتين لكنه لم يتمكن من الإجابة. لسانه المعقود لم يستجب له.

«أنت أخرس؟»

هزّ رأسه رافضاً التهمة الجديدة التي ألقاها الكاتب اللامرئي من زاويته. حاول أن يلتفت كي ينقل اليه جوابه بالنظرات لكن السلاسل منعته. لمح بطرف عينه الساخنة حبراً يقطر من رأس الريشة. شعر أنه سيقع على وجهه. بذل جهداً خارقاً لئلا يهين الآغا بسقوطه فيأمر بجلده.

«أين بارودتك؟ أين سيفك؟ أين القروش التي قبضتها؟ من اشترى سلاحك؟ من أي فرقة هربت ومتى وكيف؟ ما اسمك ومن أي قرية أنت ومن أي عشيرة؟ لماذا مزقت بزتك النظامية هكذا؟ الى أين كنت ذاهباً حين قبضوا عليك في قن الدجاج؟ ماذا فعلت بالدجاجة؟ كيف ستعوض على المدعي عليك ثمن البيضة التي أكلتها؟؟»

الآغا أصغى الى سلسلة الأسئلة التي أطلقها كاتبه ثم تثاءب. سحب نفساً طويلاً من غليونه ونظر الى المتهم الجاثي أمامه. تنهدّ شاعراً بالأسى. لم يفهم يوماً كيف انتهى سيداً على هذا السنجق النائي. أبوه خدم تحت يد عثمان باشا صاحب قلعة فيدين على ضفة الدانوب. كان انكشارياً من الحرس القديم وانشق مع عثمان باشا عن طاعة السلطان سليم الثالث عندما انصاع السلطان للقناصل الأجانب وخرج عن الصراط المستقيم وبطش بالانكشارية. أنزلوا الهلال العثماني عن الأبراج ورفعوا راية مستقلة. صادق آغا وُلد هناك من جارية مجرية ورث عنها عينين غجريتين كئيبتين وميلاً شديداً الى السفر والأغاني وحبّ الخضرة. رموه في هذه الأصقاع الموحلة بين الهمج الألبان الذين يقتلون من أجل دجاجة ولا يرضى أحدهم بتعويض أو غرامة الا بعد أن يأخذ ثأره مضاعفاً مئة مرة. في سنواته الأولى هنا حنّ الى أسواق فيدين التي تعجّ بالألوان واللغات كأنها برج بابل. كل ليلة قبل النوم لعن الأب العجوز الذي لقّنه قواعد اللغة الألبانية. كان عثمان باشا يعرف لغات كثيرة ومع أنه دعم الحرس القديم ورفع سلطته على أكتافهم، أقام صلات مع الصرب والنمسا وروسيا وانكلترا وفرنسا. تزوج نساء من الغرب والشرق وأنجب سلالة من

الأرانب. سمع أخباره وهو صغير وحلم أن يكبر كي يصير مثله. انتهى هنا، بلا أمل، حبيس برج في جهنم.

«عقوبة السرقة شرعاً قطع اليد. وعقوبة الفرار من الخدمة سبع سنوات في الحبس. وعقوبة بيع السلاح خمس سنوات مع الأشغال الشاقة. الآغا سيحكم الآن.»

(الحُكم - 2)

كانوا أربعة في الغرفة المضاءة بالقناديل وصاروا ثلاثة حين ألقى الآغا قرشاً أمام القروي وصرفه الى بيته. وضع الغليون على الطاولة الصغيرة ونادى طالباً حلوى. دخلت جارية مكشوفة الوجه تحمل صينية فضة. جلست على الأرض جنب الغليون من دون أن تتنفس. التقطت قطعة عجين محلى ومخبوز من طبق خزف وملأتها بملعقة من القشطة. غمستها في قصعة القطر وأطعمت الآغا كأنها تطعم عصفوراً. حنا يعقوب أغمض عينيه كما فعل حين رموه في القبو بين محابيس ضجوا حوله كالدبابير يسألون عن اسمه ومن أين أتى ولماذا حبسوه.

«هل تريد أن تقول شيئاً؟»

فتح حنا عينيه ورأى في غيمة البخار الآغا يلحس القطر عن شفتيه وينتظره كي يتكلم.

«اسمي حنا يعقوب. كنت أبيع بيضاً في ميناء بيروت. الجنود ضربوني على فمي وكسروا أسناني ونفوني بالباخرة الى بلغراد بدلاً من سجين درزي. أنا مسيحي ولا أخدم الخدمة الالزامية في جيش

السلطان ولم أحمل في حياتي بارودة ولا سيفاً. عندي بنت صغيرة. أبوس رجلك يا باشا لا تقطع يدي من أجل البيضة. كنت أموت جوعاً.»

الجارية التي تفوح برائحة المسك والحنّة أعدت ثلاث قطع قطايف بقشطة وانتظرت ايماءة سيدها.

«أنت أخرس اذاً؟»

انتبه حنا عندئذٍ أنه يتكلم في رأسه بلا صوت وأن أحداً لم يسمع كلامه.

«احبسوه. وبعد ذوبان الثلج انقلوه الى بريشتينا.»

خطّ الكاتب حكم الآغا.

«ويده؟»

«لا، لا تقطعوا يده.»

«لكنه سرق بيضة!»

«لم يسرق الدجاجة.»

وضع الكاتب الريشة في الدواة وتركها. الآغا دفع صحن الحلوى الى السجين المبلول بالعرق وطلب منه أن يأكل. أعطاه ظهره بعد ذلك وكفّ عن الحركة كأنه أخلد مثل القطة الى النوم. حنا انحنى وهو يجرّ نفسه صوب الطبق. السلسلة المربوطة منعته من بلوغ القطايف. مالت الجارية على الآغا وهمست في أذنه. الكاتب ابتسم وهو يصغي الى المطر وطقطقة حبّات الجليد ناظراً الى الجارية تدفع الصحن أقرب الى الرجل المربوط كي يأكل. الهيكل العظمي التهم القطايف ولعق القشطة والقطر ثم نظر الى الجارية الشركسية البيضاء. لم يشكرها لكنه كفّ عن البكاء.

(حبس بريشتينا)

أقام في حبس صادق آغا فترة الشتاء ثم نقلوه مع محابيس من تيرانا الى ثكنات بريشتينا. كان شبيهاً بالقتلى الآن، فاقد اللون، مخضرّاً عند المفاصل. تراخى جلده القديم على عظام مدببة. نفخ غاز الموت بطنه. قطعوا مضائق جبلية تهلك فيها الحيوانات ودفنوا على الطريق رجالاً سقطوا كالذبان بلا ضرب. لم ينطق حرفاً وهو يحفر قبوراً. على الطريق اشتغلوا في حقول. بنوا حيطان دعم. نقروا أقنية. تلقى السياط في أنين حيواني مستسلم. تحول الى بهيمة وهو يحاول أن يتكلم أمام صادق آغا ويعجز. لم تكن الحمى السبب. زالت عنه الحمى بعد أيام أو أسابيع لكنه ظلّ عاجزاً عن الحكي. فتح فمه وتكلم. سمع برطمة حيوان. المحابيس شتموه وركلوه حتى سكت. بين الأجسام لم يتجمد برداً. في ظلمة الأقبية حاول أن يتذكر آخر مرة تكلم فيها. توقف قلبه عن النبض وهو يراهم في ضوء الغروب، يتساقطون قتلى تحت المطر، وتغرزهم الصخور في الرمل. صرخ في كابوسه ولطمته مرافق وسكن. غرقت عربات في الوحل قبل بلوغ بريشتينا. أنزلوا أحمالها ودفعوها خارج الوحل. سقط على الركبة التي تظل تؤلمه وشعر أنه لن ينهض مرة أخرى. سمع الزعيق والشتائم. لم يتحرك. غرق في الوحل وانتظر أن تطمره الرفوش حيث هو. لكنهم حملوه وطرحوه في العربة. في حبس بريشتينا عاش تحت الأرض سنتين وفوق الأرض ثلاث سنوات. كان بلا اسم، لا أحد يعرف من هو ولا من أين أتى. نُسي ذات مرة في قبو فارغ وأوشك على الموت جوعاً لولا الصدفة: حارس يعبر الدهليز قفزاً كي

يقاوم البرد سمع أنينه في الظلام. فكّ قيده وأخذه الى قبو آخر تصل اليه سطول الطعام. أثناء سنته الرابعة هنا نقلوه فترة قصيرة للخدمة في المطبخ. بينما يغلي عظماً في القدر نظر الى ذراعه الزرقاء وقال لنفسه «إسمي سليمان، إسمي حنا.» الطبّاخ عطف عليه ناظراً الى شعره الأبيض، وأعطاه ما يزيد عن حصته خبزاً. أبكته هذه الخبزة الزائدة. ذكّرته أنه ليس بهيمة. ردّوه الى مكانه ونام في زاوية. الأعوام المتعاقبة في المكان المقفل الرطب جعلت رئته تتضخم في صدره وهي تحاول امتصاص الأوكسيجين. كان يشعر بضغط حجري على قلبه وقال لنفسه سأموت هنا مخنوقاً كما مات أبي في بيت النار. لم يبكِ.

*

الخروج الى الأشغال منع عنه الموت. أخذوه مع بقية المحابيس لترميم حصون على الحدود، وهكذا قُدِر له أن يرى للمرة الثانية في حياته تلك الوعول العجيبة الحمراء التي يسمّونها وعول كوسوفو. عيونها الذكية المدوّرة كعيون الأطفال تأملته طويلاً كأنها تتذكره، كأنها تعرفت اليه رغم مرور السنين، كأنها تعلم من هو. "أنا حنا يعقوب. كانوا في ذلك الوقت يسمّونني سليمان غفار عز الدين. والآن رجعت حنا يعقوب." تلكأ ناظراً الى عيونها. جذبه الحبل. اندفع الى أمام لكنه التفت بعنقه وظلّ يبادلها النظرات. مرّ طابور المحابيس عند حافة الغابة ورافقته الوعول البديعة من بين الأشجار، تبين ثم تختفي ثم تطلّ من جديد. شعر أنها هنا من أجله. لم يكن محموماً ولكنه بان مترنح الخطوة شبه سكران دائخاً بالنور الربيعي وروائح النباتات البرّية والمدى المفتوح، ومنتشياً بالماء الكثير الذي شربه قبل ساعة من

نبع يفور حلواً كاللبن الطازج بين أشجار جوز عملاقة. رئيس الحرس ركع على ركبة واحدة وشرب أولاً ثم سمح لجنوده بالشرب. حين اكتفوا أشار بلفافة التبغ التي أشعلها الى المحابيس: «اشربوا أنتم أيضاً.» مشى في ظلال الأشجار ودخن على مهل متأملاً القرى في القاطع المقابل. القرميد الأحمر للبيوت المتكتلة تألق وسط خضرة البساتين وزرقة الأحراج. حنا نظر الى رئيس الحرس ووجد وجهه شبيهاً بوجه قديم كان يعرفه ويحبّه ثم مرّ الزمن وأنساه من يكون. كانوا يصيحون في البساتين ونداءاتهم تصل خافتة الى هذا الجانب. فهم كلمتي «ماء» و«الليل» وكلمة «دور» ثم صار يصغي الى لحن أغنية تأتي من نقطة أقرب، في الوادي. كانوا يصفرون ويقرعون على قصب أو خشب. رئيس الحرس أخّر الطابور كي يسمع المرأة التي تغني. سار حتى حافة الظلال وبدا خارج العالم وهو يميل مع الأغنية وراء سحابة تبغه.

(حصن على الحدود)

أطعموهم وجبة ساخنة وسقوهم قهوة. كان يشرب قهوة للمرة الأولى منذ أربع أو خمس سنوات. أعطاه سجين نتفة تبغ بين اصبعيه. مضغ التبغ متمهلاً ونظر الى غيمة بيضاء مفردة في السماء. رأى محابيس يستلقون للنوم دقيقة قبل القيام. فعل مثلهم لكنه لحظة أغمض عينيه سمع صوت قاسم في أذنه: «سامحنا يا حنا.» شهق وجلس مرتجفاً كأن هواء بارداً لسعه فجأة. لم يرَ الا السجناء الألبان نفسهم يستعدون للنهوض بينما الجنود يرمون ماء

على التراب. في الوقت الباقي من ذلك النهار حمل الحجارة كالبغل شاعراً أنه في مكان آخر. ارتقى سلماً حاملاً مطرقة الى رجل أسقطها من فوق السور. رأى رملاً وأشجاراً رمادية قصيرة وغنماً واستغرب ألا يرى ملتقى نهري السافا والدانوب. لم يسمع أذان جامع بلغراد عند الغروب. لكنه سمعه في رأسه بعد العشاء حين سمحوا لهم بالنوم مربوطين في الهواء الطلق بين أكوام الحجارة. كان يعرف أن بلغراد بعيدة في آخر الأرض وأنه لا يبلغها إلا بمسيرة أسابيع وحتى عندئذٍ قد يعجز عن الوصول لأنه صار وحده ولأنهم قضوا مقطوعين بالرصاص. لكن صوت قاسم في أذنه لم يتبدّد. رقد على جنبه ونام كالقتيل محطم الجسم. لم يضايقه الشخير. لم يسمع الا الضفادع. ظلّ يسمع نقيقها وهو غارق في نومه. حين فتح عينيه شاعراً بضغط شديد على مثانته رأى عدداً لا يحصى من الأضواء يرصع السقف. دامت حيرته وقتاً ثم أدرك أنها النجوم وأنه ينظر الى السماء. «أنا ميت. قتلوني. طمروني في حفرة الرمل.» تحرك لئلا يوسخ نفسه. تحايل على الحبل كي يركع في نقطة بعيدة قليلاً عن الباقين. انفجر البول أمامه ساخناً أصفر اللون. فكر أنه مريض. لم يتوقف السيل وتغيّر لونه، صار فاتحاً شبه شفاف، وتبدّل شعوره. أصلح سرواله ورجع الى مكانه واستلقى على ظهره. نام هكذا مملوءاً بسكينة لم يعرفها منذ دهور. في الفجر أيقظوهم بالركلات. قام واشتغل ولم يتوقف للراحة الا بعد توقف الجميع. ابتلّ بالعرق كأنه نزل الى النهر وخرج. أطعموهم خبزاً وحبوباً مطبوخة. هواء لطيف داعب أوراق الشجر. نام دقيقتين بعد الأكل ونهض ناشف الجلد مسترداً قوّته. نقل تراباً وساعد على تثبيت عجلة لعربة زعزعها ثقل الحجارة.

الثور الذي فكّوه كي يرتاح نفخ عليه نفساً حاراً جباراً. داخ من الرائحة الشديدة واستدار وهو يرمش بعينيه وسمع ضحكة الشيخ محمود. رآه واقفاً أمامه بلحيته الصفراء وعباءته القديمة المقلمة وكتفه المحني. قبل أن يتلاشى الشبح أدرك أنهم حوله. شعر بهم واستمر في الحركة ناقلاً التراب في ضباب الدموع. عند المساء، بينما يأكل خبزته، رأى الشيخ بشير. كان بعيداً، آتياً من وراء التلّ حيث أقاموا المطبخ وعلّقوا القدور. سار متمهلاً يتكلم مع جنود تحلقوا حول نار يدخنون. بان أصغر سناً في ضوء النار وحين نظر الى حنا لم يفهم ماذا يريد: هل يريده أن ينهض؟ ينتظره كي يقوم؟ فتح فمه كي يسأل. لم يخرج صوته. كانوا هنا. ذهبوا ثم عادوا. اختفوا ورقد على جنبه ينتظر شيئاً. من دون أن ينتبه غرق في نوم عميق.

(هيلانة وبربارة)

اشتغلت في بيت الكونت ده بسترس سبع سنوات وفي الثامنة مات. الخادمة الفرنسية وجدته ميتاً في سريره في الصباح وذهبت وقالت للست سارة التي تنام في غرفة أخرى لأنها مريضة. الستّ مريضة لكن الكونت هو الذي مات. أرسلوا يطلبون العجوز خولة الشامي التي لا يغسل أحد غيرها موتى حيّ سرسق. تكلمت العجوز بصوت منخفض وطلبت قدرين من المياه الساخنة. سألتها هيلانة هل تريد صابوناً فابتسمت وفتحت صرّتها. أخرجت صابونة وحجر خفّان وقماشة صفراء كبيرة. «شمّي!» دفعت الصابونة أمام

أنف هيلانة. تراجعت المرأة الى خلف. العجوز ضحكت وقالت اسرعي بالماء وتعالي وتعلمي، ولن آخذ منكِ قرشاً. ساعدتها هيلانة على غسل الكونت الميت. تقلبت الجثة عارية ثقيلة على التخت، فاترة تحت القماشة. بدت العجوز حزينة كأنها تغسل عزيزاً. فركت بحجر الخفّان القشرة الرقيقة لكعب القدم. البخور الذي أشعلته في صحن عند النافذة تأرجح دخانه في مساحة محددة ولم يصل الى التخت. كان الهواء ساكناً. لم تدخل الغرفة نسمة واحدة. النهار في أوله لكن هيلانة شعرت بالتعب. عند الغروب، بينما تنشر أغطية مغسولة وراء البيت، ناداها الخواجة ابن الكونت السيد نقولا. «تأخرتِ اليوم.» سمعته وهي تلفّ المنديل على رأسها وتتأهب للمغادرة. رأت عينيه الحمراوين واستحت ونظرت الى الأرض. كان يبكي وطلب منها كأس ماء قبل أن تذهب. جلبت الماء ورأت وحلاً من المقبرة على صباطه. وقفت مترددة لحظة. مدّ يديه وجذبها اليه. سنوات وهي تهرب من طريقه وهذه المرة اضطرت الى دفعه دفعاً. انتبهت الى قوّة ذراعيها حين ترنح وأوشك أن يقع مع الكرسي. لم تقل «عيب يا خواجة.» أبعدته خارج العالم وغادرت حيّ السراسقة ولم تدعس فيه بعد ذلك. أبونا بطرس ظلّ حتى موته يتخيلها هناك، على الدرج الرخام، مؤطرة بالنافذة، تنتظر كالتمثال رجوع حنا. سألها لماذا تركت الخدمة عند الستّ بسترس. أسكتته بكذبة واحدة. كانت قليلة الحكي ولهذا صدقها. قال إنه هو أيضاً يتضايق الآن اذا ذهب الى هناك ووجد كنبة الكونت المرحوم فارغة. سعل وغيّرت الحديث. سألته عن صحته. ارتاح وأخذ يخبرها عن آلامه.

«الرطوبة مؤذية للعظم. لا أنام في الليل. كنيستي عتيقة رملية

الحيطان تمصّ الرطوبة كالاسفنجة ولا تنشف حتى في عزّ الصيف.»

ابتسمت كي تبدو مصغية. جاءت العجوز خولة الشامي بعد أسابيع وقرعت بابها وسألتها هل تحبّ أن تأتي وتغسل معها ميتاً. «لا يا خالتي، مشكورة.» العجوز ضحكت ضحكة قصيرة ثم عبست كأن نحلة عقصتها: «أنا مثلكِ يا هيلانة قسطنطين يعقوب. في زمن الجزار خرج زوجي الى السوق ولم يرجع عند المساء. انتظرته سنوات وابني الوحيد كبر وهو ينتظر معي. أنتِ تركك مع بنت. أنا تركني مع صبي. أدعو الربّ أن يحمي إبنتكِ وأن تكبر في دلالكِ وأن يلعب أحفادكِ في هذه الدار. ربّي أخذ إبني مني وأنا أعدّه للزواج. غسلته بيدي ودفنته. خفت بعد ذلك أن يرجع زوجي الى البيت. ماذا أقول له إذا سألني أين الصبي؟ بقيت سنوات خائفة ثم انتبهت أنني صرت ختيارة. أدعو الربّ أن يرد إليكِ زوجكِ يا أم بربارة.» ذهبت وتركتها وحدها. أقفلت هيلانة الباب والنافذة. بكت قاعدة في العتمة وظلّت سنوات تبكي في العتمة وتصلّي - بعد أن نسيت الصلاة وهي تمسح وتغسل في بيت بسترس - من أجل زوجها. في السنة العاشرة قال أبونا بطرس ان بربارة صارت تشبهها هي أكثر. لم تعجبها كلماته وسألته لماذا يفعل الربّ هذا معها؟ كانت وحدها معه، في بيته على حائط الكنيسة، ترتب المكان لأنه مريض، وتطبخ له. ارتبك وأخفى أفكاره خلف سعاله. لكنها لم تتراجع. «لم أعد مؤمنة. لا تزعل مني. أصلّي وأقول اذا كان الربّ يسمع ربما يساعدني ويساعد حنا. لكن لا أؤمن كما أنت تؤمن. كيف أؤمن؟ هل جهنم أسوأ من النوم والقيام وأنا لا أعرف أين حنا؟» أبونا بطرس نهض من

فراشه غاضباً ورفع صوته. ابتعدت عنه لكن غضبه لم يحرقها. هاجمه سعال حقيقي هذه المرة وعاد الى فراشه مرغماً. تابع تقريعه لها. طأطأت رأسها. بعد شهور تصرف معها كأنه نسي اعترافها. رآها في القدّاس تبكي. قال لنفسه أنا مثلها. في الفصح أخذ سلّة الكعك كالعادة وقرع بابها. وجد في الكتاب المقدس مقاطع مناسبة وحاول أن يحفظها وأن يقوّيها بها وأن يُقوي نفسه. بينما يقرأ مرة أخرى خبر البرص الذي ضرب به الربّ خادمه أيوب انتبه الى البقع على جلده. « أنا أيضاً. » كان ماشياً خالي البال في سوق الفشخة وواجهته مرآة زجاجية طويلة في مدخل متجر جديد داخل باب ادريس واكتشف أنه صار عجوزاً. ذلك المساء زار جيرانه كي يسمع بربارة تحكي وتضحك. سألها عن دروسها. كانت تتعلم الفرنسية والحياكة والتطريز في دير راهبات المحبة اللعازاريات الذي تديره الأم جيلاس الفرنسية. بدت بربارة نسخة عن أمها، كأنها هيلانة قبل أن يختفي حنا. نظر الى عينيها الذكيتين وفكر في أبيها. شعر بالنعاس وقرر أن ينهض لكن هيلانة وضعت أمامه صحن مهلبية، حلواه المفضلة. قبل أن ينام تلك الليلة فتح الباب لحظة ونظر الى الدرب الخالية ولم يرَ أحداً. في عيد الميلاد زاد سعاله ولم يرأس القداس. اعتنت به هيلانة مع أن أشغالها كثيرة: كانوا يجلبون الغسيل الى بيتها ويستردونه نظيفاً مكوياً مشبعاً برائحة الصابون والشمس. فقد السيطرة على أحشائه. نظّفته وهو يبكي وغسلت ثيابه وأغطيته وألبسته ثياباً جديدة. في شهور شاخ سنوات. بربارة ظلت تأتي في المساء وتضحكه بحديثها. كانت أجمل ما حدث له في مملكة هذا العالم. نظفت هيلانة فراشه ذات صباح ووسخه قبل مضي ساعة. عاتبته لأنها سألته في الصباح هل

يريد قضاء حاجته وقال لا. لم يبكِ وانتظرها حتى جلبت الماء. أعدّ كلماته ولفظها متمهلاً وغارقاً في الحزن لأنه لم يكتمها في نفسه.

«تغيرتِ كثيراً يا هيلانة.»

«لا تزعل مني. أنا أيضاً كبرت.»

«لا أزعل لأنكِ كبرتِ يا هيلانة. أزعل لأنكِ صرتِ قاسية.»

(حكي في الظلام)

«كنا في حبس الهرسك. طلبنا مدحت باشا والي الدانوب الى حبسه الجديد في روسه. أصلحنا الطرق من الهرسك الى قشلاق صوفيا. في مضائق البلقان فكرت أنني سأموت قبل الوصول الى الحبس الجديد. كنت أبصق دماً ولا أقدر أن أنام بسبب الدم في فمي. لكنني بلغت سهل الدانوب. واسع كالبحر أخضر وأحمر وأصفر وفي آخره المدينة والسفن الشراعية تعبر النهر. وضعونا في الثكنات لأن بناء الحبس لم ينتهِ بعد. شغّلونا في مدّ سكة الحديد الى البحر الأسود. مسافة أيام لكن القطار البخاري يقطعها في عشر ساعات. المهندسون الانكليز علمونا كيف نمدّ القضبان الحديد بالطول والألواح الخشب بالعرض قبل أن يأتي الذين بعدنا ويطرقوا المسامير. كل مسمار بطول إزميل. الطريق طلعة وبعد ذلك تنحدر. صرنا نشمّ رائحة الملح في الهواء وعرفنا أننا نقترب من البحر. لكننا لم نرَ البحر لأن محابيس غيرنا مدّوا السكة آتين من مرفأ فارنا ونحن لا نعرف. رأيت الانكليزي يضحك علينا.

ردّونا الى ثكنات روسه ولم نرَ القطار. لكننا سمعناه يصفر ونحن في القبو. وزعوا علينا كعكاً أرسله الوالي هدية. أكلت كعكة وشُفي صدري ومنذ ذلك الوقت لا أسعل دماً.»

تكلّم الرجل بالتركية يُحدّث شخصاً قربه. حنا يعقوب أصغى الى قصته في الظلام. منذ فترة لا ينام جيداً. عند بلوغ الحبس كان يعرج على قدمين متورمتين. نزع مداسه. وجد الجلد مسلوخاً. عالج جروحه وظلّ أياماً يتخيل الباب يتحرك والحارس ينادي كي يخرجوا الى الأشغال. انتظر لكنهم لم يأخذوه الى الحصن على الحدود مرة أخرى. سمع الرعود وفقد الأمل. المكان بلا نوافذ لكن فيه كوى عالية يدخل منها الهواء ونور النهار. أمطرت ودخلت رائحة التراب والنبات. وراء الحائط يسمع جلبة. لكنه لم يسمع مرة واحدة ركضاً على السقف. لم يعد تحت الأرض. في الكوابيس يراهم ينقلونه الى الأقبية المطمورة ويصرخ كما صرخ قبل سنوات عندما ألقوه في قبو صادق آغا. تلك الليلة الأولى قصمته نصفين. وضعوا قيداً حديداً في كاحله حيث ظلّت العلامة محفورة. ضربوه وخرجوا وأقفلوا الباب. صرخ حتى تقطعت حباله الصوتية. كان من جديد في السجن: خرج وسكن بيتاً في بلاد البلغار. وعدوه بالعودة الى بيروت. قتلوا الذين معه وردّوه الى الظلام.

«أنا أيضاً كنت في حبس الهرسك. إسمي حنا يعقوب. أنا من بيروت. أعرف قشلاق صوفيا. لم نذهب الى روسه. رأيت نهر الدانوب حين حبسونا في القلعة البيضاء. كانوا يسمّونني سليمان غفّار عز الدين. في الهرسك سمّونا دروز بلغراد.»

حاول عبثاً أن ينطق الكلمات. سأله صوت لماذا يبكي الآن

ولماذا يئن ولماذا لا ينام؟ كان الصوت في رأسه. عرف لأنه تكلّم بالعربية. وعرف لأنه لم يشتمه.

*

«ماذا سأفعل يا قاسم؟»

«اصبرْ.»

«لم أعد أقدر.»

«تتذكر عندما أخذونا أول مرة كي نقطف التفاح والعنب؟»

في المكان الساكن لم يكن يُسمع غير وشيش المطر على السقف.

«تتذكر الخان والأولاد الذين سألونا كيف نأكل من مطبخ العسكر ولا نحمل بواريد؟»

الرعد بعيد. تقلّب سجناء.

«تتذكر ميناء بيروت وأنت تقف حاملاً البيض تنظر الينا ولا تهرب؟»

مغمض العينين، راقداً على بطنه، تذكر حنا يعقوب.

(جدول ماء)

عيّنوه في خدمة التنظيف. صار يخرج حاملاً سطلين ثقيلين الى جورة المجارير عند السور. امتلأت الجورة وجلبوا براميل على عربات تجرّها حمير. اشتغل أياماً مع آخرين في إفراغ الجورة. سُمح لهم بالخروج مع العربة الثقيلة. أفرغوا البراميل في جورة أعمق وأوسع على مسافة دقائق من السجن. زلقت قدمه وسقط في

السائل القذر الكثيف. لم يغرق لأنهم انتشلوه بالرفوش. تحمّموا عند الغروب في جدول ضحل المياه. كان عارياً يفرك نفسه بالوحل ولطمه أحد السجناء في كليته. وقع على حجارة وكشط جلد فخذه. البرد أخرج من فمه بخاراً أبيض. تلقى ركلة ودبّ مبتعداً ثم استدار. كان يواجه رجالاً قادرين على قتله بلا سبب. رأى أعضاءهم متضخمة كأعضاء الحمير. استغرب أنه مثلهم. كانوا أكياس جلد مملوءة عظماً وسمعهم يضحكون. أحد الجنود نادى عليهم وهو يكسر غصناً ويسوط الماء. أنهى حنا حمامه ولبس ثيابه التي غسلها وعصرها ومشى في الصف. دفعته القبضة ذاتها ومن دون أن ينتبه فتح فمه وتكلّم بالعربية ثم بالتركية وشتم الرجل. هكذا نطق من جديد بعد خمس سنوات من السكوت.

*

«ضربوك يا حنا؟»

نظر الى وجه يغرق في ضباب أحمر.

«سنوات وأنا أنتظر. أين كنت؟»

سمع جرس الكنيسة يُقرع. الوجه بدّده الضباب.

«سنوات والناس يضحكون عليّ. وأنا وحدي. ويقولون أرملة ولا تلبس ثوب الحداد لأنها لم تدفن زوجها بعد. انظرْ اليّ!»

في الضباب لمح حركة ولوناً أصفر كالنار لكن الوجه ظلّ ممحواً.

«كيف فعلت هذا يا حنا؟ كيف تركتني وحدي مع بربارة وذهبت؟»

«حبسوني يا هيلانة. حبسوني في آخر الأرض.»

(خروج)

أخرجوهم مع طيور الربيع لإصلاح الطرق. عرج ولم يسقط. ضرب المعول في بقعة رطبة وأبصر عدداً لا يحصى من الديدان البيضاء السمينة تتغلغل عائدة الى الأعماق. بعد ضربتين رآها تنفجر صفراء ورمادية. ملأ الجردل وحلاً ونظر الى السماء. كانت زرقاء باردة. الشيخ الذي كسر رأسه على حائط القبو في قلعة بلغراد تأمله مغمّساً بالعرق يجلس كي يأكل خبزته عند الغروب بين محابيس غرباء.

«تتذكرني يا شيخ حنا؟»

«أتذكرك لكن نسيت الإسم.»

«لا تتذكرني؟»

«أتذكرك. وتخطر على بالي في الليل. قريبك الشيخ عثمان. كان معنا. مات بالهواء الأصفر قبل سنوات. أبو غانم أو أبو غنّام. نسيت.»

«ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم ترجع الى بيتك بعد؟»

بان الدم جامداً أسود اللون على جبهته المشقوقة.

*

نقلوه الى حبس على طريق مونتينغرو. رأى رايات خضراء خافقة على أبراج بعيدة وعرف أنها الحدود. تأخر الطابور في منطقة مستنقعات. دفنوا بلا صلاة رجالاً حطمتهم أرض كريهة الرائحة. تورّم وجهه من عقصات البعوض. عبروا قرية مقفلة الأبواب والنوافذ. نبحت عليهم كلاب مبقّعة بالجرب يسيل لعاب مسعور من أشداقها. «لا أقدر.» ترنح نصف ميت. شعر بسخونة

تحرق فخذيه وسقط. غاص كحجر في الوحل. امتدت يد ورفعته. بصق حشرات ميتة. أدخل أصبعاً في أذنه وأخرج وحلاً أحمر. توغلوا في غابة صفراء مظلمة. شمّوا رائحة شواء. أطلّ حطّابون من بين الجذوع. غافلوا الجنود وناولوا الأشباح ثمراً مجعد القشرة له طعم الإجاص. حنا مضغ وبلع شبه نائم. لم يرتاحوا تلك الليلة. ساقوهم كالماشية. فتح عينيه حين تعثر. رأى جثة ضئيلة الحجم تنتفض مرة أخيرة ملطخة بالوسخ. عرف الوجه والشعر الأبيض. «أنا؟» اخترق الألم دبره وخرج من بين أسنانه. ظلّ على الأرض بينما أكياس العظم تواصل سيرها تحت غيوم عمياء. سمع الخيول تصهل في الظلام وتبتعد.

«ستموت هنا؟»

«من أنت؟ لا أراك لكن أشعر بيدك ثقيلة عليّ. ماذا تريد مني؟»

«ستموت هنا يا حنا يعقوب؟»

توقف حصان ونفخ عليه. قبض بخار ساخن على رقبته. نهض ومشى. ارتطم بأشجار. استند الى جثث تتساقط ثم تقف. قبل الفجر بلغوا بلاطة صخرية شاسعة. أراحوهم هنا. أحصوهم واكتشفوا أن الباقين أكثر من الذين قضوا.

(قلعة الجبل الأسود)

أبنية من الحجر الأسود تتكتل كالورم على حدود السلطنة العثمانية. قلعة عمرها أربعة قرون رُممت أبراجها في عهد السلطان

سليم الثالث. لم تظهر على خرايط أسطنبول الا بعد ثورة الجبل الأسود. تعاملت الحيطان الصمّاء مع رصاص العصاة تعامل جسم الانسان مع الطفح الجلدي أو داء الحصبة. تحملت على مضض، وأحياناً بلا مبالاة، وصمدت. ظلّت مقر الحكم للسنجق القديم بأسواق ماشيتها الاسبوعية وجامعها الشاهق المئذنة ومخازن الملح والسكر والزندان الكئيب العميق أسفل السراي المصدّع. في 1862 اكتسبت أهمية خاصة بتسلم «الباشاوات الثلاثة» أمرها. حكموها بالعدل. ازدهر السنجق في عهدهم حتى طمع فيه أمير مونتينغرو نقولا الأول. جرّب بالحرب وبالمفاوضات إنتزاعه منهم. صدّوه طويلاً وحموا حدود السلطنة. كانوا دهاة باطنيين. فتحوا أبواب الثراء أمام الطامحين لكن التاريخ لم يحفظ منهم غير فرمانات غريبة أقلقت راحة العامة. في صيف 1867 منعوا بفتوى شرعية أكل الفول والبقدونس كما منع الخليفة الفاطمي قبلهم بثمانية قرون أهل مصر عن الملوخية والكزبرة. في خريف 1871، بعد رجوعهم من رحلة خارج أراضي السلطنة، نهوا الباعة عن الصياح في الأسواق وألزموا الأهالي كما الجنود بخفض أصواتهم الى حدّ الهمس ليلاً نهاراً تحت طائلة الجلد والحبس ودفع الغرامة، ولم يستثنوا غير المؤذن وخطيب الجمعة. هنا، في قلعة الباشاوات الثلاثة، انتهى بائع البيض حنا يعقوب مقيّداً تحت التراب الى وتد يفتّه الصدأ.

*

كانوا ثلاثة ضباط مدفعية صفر البشرة كأهل الصين لكنهم يشبهون الجرذان شكلاً وطبعاً. جاؤوا من فيدين هاربين من التتر. في 1861 نقلت الدولة العلية 120 ألف تتري من حدودها الشرقية

مع بلاد الروس الى الحقول المجاورة لقلعة فيدين على حدودها الغربية. قضى نصفهم بالتيفوئيد مكوماً كالغنم في بطن السفن. ألقوا 60 ألف جثة على وحول الضفة. كانت جبلاً من عائلات الفلاحين وتأخر دفنها. سكان القرى سدّوا نوافذهم المطلة على الماء بالخشب والقماش منعاً لانتشار الرائحة وتفشي المرض. الضباط الثلاثة انتقوا أجمل التتريات الناجيات. طلقوهن بعد شهور وتزوجوا أخواتهن وبنات أخواتهن. أحبّوا التعفف التتري ووجدوه أقرب الى طبيعتهم. هجروا شركسياتهن. اعتبروهن شرسات ماجنات راغبات في الباه أكثر مما يُحتمل. كثّروا صلاتهم بالتتر المستوطنين طلباً للزعامة. لم تجرِ الرياح بما تشتهي سفنهم. آمنوا بالخرافات: انتبهوا الى تقشر جلودهم وضمور خصاهم. بينما بولهم ينبثق حارقاً مخضباً بالدم أيقنوا أنهم وقعوا ضحية السحر التتري الأسود. حزموا أغراضهم على عجل. رشوا باشاوات الباب العالي بالذهب البندقي وبسرج مفضضة حاذقة الصنعة لا تعقر بكلاتها بطن الفرس. يمّموا تحت ستر الليل شطر الجنوب. تولّوا قلعة الجبل الأسود. ضاعفوا الضرائب على القرى بحجج عسكرية. سمّوا سكنهم الجديد «دار الجهاد» تقليداً لما فعله السلطان مراد قبل قرون مع قلعة بلغراد. لكنهم لم يخزنوا بارودا. استغلوا خصب المراعي المجاورة وكثّروا مواشيهم. هجّنوا بقراً شديد الكسل كثير الأكل يدرّ حليباً على مدار الساعة. استوردوا خيولاً من الجزيرة. خرجوا لصيد التدرج في غروب ماطر واكتشفوا عرق حديد في تلال يبرق صخرها. استقدموا خبيراً من لندرة نقر سلسلة التلال وفتح لهم ثلاثة مناجم. ضاعفوا نزلاء السجن أربع مرات في سنتين وأمّنوا عمالة رخيصة.

المهندس ذاته اقترح عليهم توسيع القلعة عمودياً عبر استغلال الأرض ونقب زنازين جديدة فسيحة عصرية ومزودة بفتحات تهوئة ومصابيح زيت للإنارة تحت أقبية العقد العثماني المطمورة. شرح لهم ان المستقبل الثوري لفن العمارة يكمن في أبراج تتوغل في طبقات الأرض بدلاً من نطح الغيوم حيث الرياح شديدة. أحبّوا حماسته مع أنه لم يستخرج لهم غير الحديد السيئ النوعية الذي لا يصلح الا لصناعة المسامير وحدوات البغال.

«لماذا لا تبقى هنا؟ نعيّنك مستشاراً مثل اللورد بالمرستون ونمنحك علاوة على الراتب بيتاً وحصاناً وعبداً وزوجة.»

«عندي زوجة وأربعة أولاد في انكلترا!»

«لا يمنع، خمسة رؤوس، انقلهم الى هنا أيضاً.»

(قلعة الجبل الأسود - 2)

حنا لم يعمل في المناجم. في الشتاء الذي سبق وصوله إنهارالمنجم الأقدم بين الثلاثة واضطروا الى إقفالها. قضى عشرات العمال الأجراء إضافة الى عدد غير محدد من السجناء. حجز الركام 17 سجيناً في مكان عميق يصله هواء قليل وخيط ضوء وماء. ظلّت أصواتهم تُسمع من بطن التراب زمناً. كان حبساً جهنمياً أفظع من موت تحت التعذيب. جاعوا وذبحوا الأضعف بينهم وأكلوه. أذكاهم وأقواهم صمد خمسة شهور ثم قضى مسموماً بين العظام. بعد ذلك لم يسمع أهالي القرى صوتاً ينادي تحتهم. حنا سمع نتفاً من هذا في الظلام. في الدهليز، بينما

يُضرب ويُدفع بعظام طويلة، حاول أن يتكلم مع الحراس وأن يشرح قصته. استخدم كل اللغات التي يعرفها معرفة سجين قضى 11 أو 12 سنة متنقلاً في بلاد البلقان. تلقى لطمات أخرجت الأنفاس من صدره وتركته مرمياً ككلب حيث يضيع كل أمل. تكوّم على نفسه شاهقاً بالبكاء يتلمس سلسلته. لم يردّ على السجناء حين سألوه عن اسمه وبلده وجريمته. الليالي الجليدية كسرت ما تبقى من أظافره. احترق جلده. تشقّق فمه. حين بدأ يسمع عن الباشاوات الثلاثة تذكر جودت باشا وراسم باشا وعامر باشا.

*

قبل أن ينزل هنا أرسلوا الى أمير مونتينغرو هدايا فدعاهم الى زيارته. كانت دعابة منه لكنهم أخذوها على محمل الجد وساروا اليه في قافلة. نظّم للباشاوات الثلاثة استقبالاً شبه رسمي. ارتدى زيّه الأميري ونياشينه. تمنطق بسيف رشيق. كان عريض الجبهة ملون العينين بشارب أسود نحيل ولحية رفيعة مرسومة بريشة حبر على بياض وجهه. حملوا اليه هديةً سجاجيد صلاة حبك اليد من ديار أصفهان وداعبوه بأنها تصلح فرشاً لبيته وكنيسته أو هدية للأميرة. عدّ كلامهم إهانة للطرفين، للهلال والصليب، لكنه حبس امتعاضه بابتسامة أوروبية. حفلات الملوك الراقصة خفّفت خطوته على درج القصر الرخام من دون أن تُبطل نباهته. مع ذلك باغتوه على المائدة. طلبوا خمراً وشربوا ضاحكين وهم يقضمون أجنحة الطيور المشوية والمتبلة.

«أنا مسلم أكثر منكم. لا أذوق الخمر الا وقت المناولة.»

سكتوا ناظرين الى أعماقه. سبروا باطنه واستغربوا كيف كرههم الى هذه الدرجة في هذا الوقت القصير.

«نحن مسيحيون أكثر منك. ونُدير الخد الأيسر.»

عادوا من رحلتهم مصابين بصداع وخافوا أن يكون الأمير سمّم القهوة. منعوا الكلام في القصر والأسواق وحكموا بجلد السقائين والباعة الجوّالين اذا زعقوا بينما ينادون على البضاعة. لم يقطعوا ألسنتهم لأنهم - كقناصل الفرنجة- كرهوا العقوبات الهمجية. استراحوا قانطين في ظلال الرمان على مصطبة وراء القصر يتأملون بركة الزجاج بالسمك الملوّن الراقص المجلوب من وراء الدانوب. تحدثوا بلا صوت. وجدوا إمارة الجبل الأسود خضراء زاهرة طيبة المناخ، تملأ الجرار ذهباً اذا حكموها. أحبّوا المكان وكرهوا سيده.

«نشتري مدافع؟»

ابتسموا لأنهم ثلاثتهم نطقوا السؤال في اللحظة ذاتها.

(قلعة الجبل الأسود - 3)

حنا سمع الحراس يتكلمون مع السجناء في الظلمة. بدوا أقارب لهم أو أصدقاء.

«هنا أحسن من فوق. الباشاوات منعوا الحكي. لا نسمع غير العصافير وخبطة السطل في البئر.»

«هنا نسمع خبطة السطل في البئر. لكن لا نسمع عصافير.»

«كم سنة عندك بعد؟»

«ثلاث سنوات.»

«لا تهتم. تمرّ بسرعة. أنا هنا منذ أربعين سنة. ومرّت هكذا، مثل سهم.»

«أنت تحرس. تخرج الى بيتك حين تريد وتأكل طبخ زوجتك و...»

«جيد أنك سكتّ.»

سمع عظمة تطقّ على جمجمة. ارتفع صياح وأعقبته شتائم. مرة تلو أخرى طقّ العظم على العظم. ارتجف حنا. «سيموت.» لكن الرجل لم يمت. طوال أيام حرمهم بأنينه من النوم. كان عنيناً متواصلاً لا يتقطع ويخفت إلا كي يستجمع قواه ويرتفع ويمتد من جديد. بدا أبدياً. لم يضربه النائمون جنبه. اهتموا به وتكلّموا معه وحاولوا إسكاته. لكن بلا ضرب. أدرك حنا أنهم أقارب له أو أصدقاء. في شهور قليلة، بينما يفقد ما تبقى من روحه بسبب الجوع والظلمة وندرة الهواء والماء، انتبه حنا أنه يئن مع الرجل من دون انتباه. سأل نفسه كيف لم يضربه الآخرون بعد لإسكاته. نام ورأى زقاقاً فيه متاجر مقفلة يشبه سوقاً قديماً كان يعرفه ويمرّ فيه. فتح عينيه وحاول أن يتذكر المكان لأنه يحفظ أزقة بيروت. بكى حين أدرك أنه الزقاق فوق هذا القبو، الزقاق الذي عبره بينما يلطمونه كي يُسرع وينزل الدرج قبل أن تفتح الدكاكين. في ليلة أخرى، قبيل الفجر، أيقظته اللطمات التي ترجّ الحائط. ظنّ أنهم يساعدون قريبهم في التغلب على نوبة. حين أدرك أنهم يخنقون الرجل صاح ولم يكفّ عن الصياح حتى ضربوه. حشوا قماشاً في فمه. تركوه حياً. شعر بالجثة قريبة وسمع نواحاً.

«النوم صعب.»

«قاسم؟»

«كان ينزف ويتعذب. هل تسمع الرجل الذي يبكي؟ هذا أخوه الكبير.»

*

جمعوا الجنود في الباحة وأعطوهم تعليمات جديدة. بعد أيام قوّصوا وقتلوا رعاة صرباً من أهالي الجبل الأسود جاوزوا الحدود التي لا يراها أحد. صادروا مواشيهم الساعية صوب العشب بلا حذر. أمير مونتينغرو أرسل طالباً تعويضات. ذبحوا حصان الرسول ووزعوه شواء على الجنود. عندئذٍ أمرّ بقصف القلعة.

«لم نظن أنه يجرؤ.»

بدا أن النحس التتري يطاردهم مع الحمام الزاجل.

«الاسطبلات تحترق.»

«بسبب التبن والخشب. قديمة.»

استدعوا تجاراً بيوتهم قريبة وانتخبوا منهم مجلس أعيان ثم سلّموا المجلس المذكور مفتاح القلعة.

«سنرجع مع تعزيزات ومدافع. انتبهوا للناس وأملاك الناس في غيابنا.»

الجبل الأسود (1872)

«أيقظني الهدير وارتجاج الأرض. أين أنا؟ في حبس الهرسك أم في قلعة بلغراد؟ القيود الحديد منعتني من النهوض لكنني أمد رقبتي ومن دون وعي أوشك ان أصيح كما في السنين البعيدة في

بلدي البعيد: « بيض بيض، بيض مسلوق». أسمع ركضاً وصراخاً ثم خبطات مرعبة فوقي - على وجه الأرض - كأن حيوانات أسطورية عملاقة تتراكض وتقع وتموت. خوار فظيع يملأ الفضاء وأشم رائحة اللحم الذي يحترق. الرعب يخترق عقلي كحد السيف. عرق بارد كالثلج يبلّ جسمي. أتجمد كما يحدث في الكوابيس - كما في اللحظة التي تسبق فرقعة البواريد وسقوط قاسم مع أخوته على الرمل الرطب- عارفاً أنني قد لا أخرج من هنا. لماذا أموت في هذا المكان من دون أن أرى زوجتي وإبنتي وبيتي مرة أخرى؟ خرجت في الصبح أبيع بيضاً والشمس لم تطلع من وراء جبل صنين بعد. قبل عشر سنوات، قبل 11 سنة، قبل 12 سنة. التراب يتساقط على رأسي. مكتوب لي في اللوح المحفوظ أنني أطمر حياً حبيساً بلا جرم في هذه الأرض الغريبة؟

أين العدل؟ كيف يصنع الربّ بي هذا؟ وهيلانة؟ والصغيرة كم كبرت وأنا لا أراها ولا أسمع صوتها؟ النار والدخان. الضجة وراء الحيطان. الزعيق فوقي وتحتي. لم أكن متأكداً من قبل والآن أعرف: هناك محابيس تحتي أيضاً، طبقة أخرى تحت.

عقلي مقسوم نصفين. نصف مذعور يرى في الظلام الأيدي والأقدام تحاول عبثاً أن تتخلص من القيود، ونصف ساكن لا يهتم ويشرد إلى البعيد: إذا كانت هذه ساعتي الأخيرة فأنا اطلب أن أرى أمامي الوجوه القديمة التي أحبها لا هذه الوجوه. رموني هنا قبل سبعة شهور وطوال هذه الفترة لم أصادق أحداً من المحابيس. قيّدوني إلى وتد يفتته الصدأ في الزاوية الفارغة حيث تنحدر الأرض ويتجمع الماء عند تساقط المطر. «لن تعطش»، قال الحارس الأحمر الشعر وهو يبتسم ويخرج بينما المفاتيح الكثيرة

تطقطق على جنبه. «لكنك ستجوع»، قال صوت في الظلام، وامتلأ المكان ضحكاً يشبه الزعيق. سمعت صرير الأسنان وصليل السلاسل وكما يحدث في كل مرة أُنقل فيها فقدت السيطرة على بطني ووسخت نفسي. رفعت وجهي إلى فوق ولم أهتم بالآخرين لأن الظلمة كاملة. ظننت أنهم يتكلمون لغة الحراس في هذه الأقاليم - لغة تعلمت نتفاً منها في القلعة البيضاء- لكن بينما يوجهون الشتائم صوبي اكتشفت أنهم يأتون من أمكنة مختلفة ويتكلمون أكثر من لغة واحدة. سألوني عن اسمي ومن أين أجيء ولماذا حبسوني. لم أجب لئلا يعرفوا من صوتي المخنوق أنني أبكي. في وقت الأكل انشق الباب ووضعوا أكلاً في القدر جنب الباب. بقيت بلا أكل لأنني مربوط في أبعد زاوية.

عظامي ثقيلة في كيس جلدي وأحاول أن أرفعها. لكنني بلا قوة. أسمع ارتطام الأجسام والسلاسل والرؤوس - بعضهم مقيد إلى بعض - ثم الصوت الحاد الذي يصرخ وينادي الحراس. الدخان يتسرب إلى هنا. أسعل وكذلك غيري وحين يرتطم أحدهم بي أستوعب أن النجاة ممكنة. أمد ذراعي وأقبض على ساق أو ذراع. طبيعة الصوت في القبو تتبدل وأنتبه أن الباب فتح لكن الظلام لم يتغير. لعله الليل في الخارج. تطرقني عظمة على وجهي وأقع إلى خلف وأصدم رأسي. الدم يملأ فمي وحلقي كما في مرفأ بيروت قبل 12 سنة. لا أدري من أين تأتي القدرة إلى بدني الجائع المحطم لكنني أمد أطرافي مرة أخرى ومثل حيوان لا يفهم أتشبث بالرجل المذعور الذي يحاول أن يهرب وأحفر أصابعي فيه. الغريب أن عضوي ينتصب. يضربني مرة أخرى وهذه المرة أستعمل أسناني. أغرزها في اللحم والعظم ولا أقبل أن أُترك كي

أختنق. المفاتيح تطرطق، رائحتها قوية، وعلى ثياب الرجل أشم رائحة الخارج. يشدني أحدهم وأسقط. أعرف أنني ميت. حتى أسناني وقعت من لثتي المريضة. رأسي تراخى، مال عن رقبتي. ماء آسن ولج أنفي وعينيّ. في ثياب الرجل الذي فتح الباب رائحة خبز وسكر وتفاح. أبلع دمي وأرفع وجهي. رائحة التفاح تمنحني هذا. بلا أمل أفتح فمي وأقول: أنا حنا يعقوب.»

(الهروب من الجبل الأسود)

صياح نسوة وزعيق أطفال. تأجّجت النار بهبوب الريح وانتشرت في أنحاء السوق المسقوف بالخشب. الجنود والأهالي كافحوها بدلاء الماء ورفوش التراب حتى دنت من مخزن العسكر الجديد. هربوا يتدافعون وطاروا بانفجار البارود. رأوا دخاناً كثيفاً ولهباً أزرق وعدداً لا يحصى من الموتى خارجين من تحت الأرض بثياب مهلهلة وعيون غائرة وسلاسل حديد. كانوا بشراً أحياء. قبل هذه اللحظة لم ينتبهوا لهم لأنهم في السجن. ثيران هاربة بأذيال مشتعلة ارتطمت بمحابيس أعماهم ضوء الشمس. داستهم بحوافر مذعورة. حنا يعقوب الذي يسند فمه النازف بيده أنقذه زقاق أبصره في منامه. جرّ ساقاً كسيحة. رأى بوابة القلعة مشرعة. اندفع بين أشباح في دخان كثيف أسود وخرج صارخاً الى النور. سمع رصاصاً يطارده ولم يتوقف.

*

بدا صراخه أبدياً. حتى بعد أن كفّ عن الصراخ ووقف يتأكد

أنه لم يحترق ولم يُجرح بالرصاص، ظلّ الصراخ يدوي في رأسه. استدار غائم البصر. شاهد القلعة السوداء ومئذنتها السامقة تلتف بالدخان الأسود كأنها تتحجب. كانوا يخرجون منها في زعيق مرعب يهزّ الأرض. رأى كتلة سوداء وناراً ومن بطن الدخان انبثقت أبقار وناس يركضون ويصيحون بلا توقف. أزّ الرصاص في الفضاء. طقّ الخردق على حجارة. «اركضْ يا حنا!» لهث راكضاً أبعد فأبعد. ضباب أحمر اكتسح وجهه لكنه لم يتوقف. بصق دماً وقفز في حقول محروثة موحلة. الريح شديدة في عينيه لكن رعب الرجوع الى السجن أشدّ. «تتذكر حين نظرت الينا مربوطين في الميناء ولم تهرب؟» اندفع ممزق الأعضاء هارباً من حبس لا يخرج الواحد منه حتى يختنق أو يُخنق. لم يتجمّد بالرعب هذه المرة. رأى فلاحين يركضون في الاتجاه المعاكس وابتعد من طريقهم. لم يردّ على سؤال يتيم مكرّر. لكنه أشار بيده الى الوراء، صوب الدخان، صوب الصراخ، صوب القلعة التي يهرب منها. قفز أعلى واندفع الى أمام كأن ساقه الكسيحة استقامت من جديد وأخذت تركض وحدها وتحمله كما يحمل الجناح طائراً. لم يتوقف. جسمه ارتمى تحت أشجار غريبة تشبه الغيوم أكثر مما تشبه شجراً. هدر الدم. أعماه. رئته المتضخمة نزفت وهي تبتلع كميات الهواء الأخضر المفاجئة. بصق ورأى قلبه ينتفض على عشب أصفر. كتلة حمراء خافقة في ضوء المساء.

«اركضْ!»

قام وركض. جاوز طريقاً تسلكها العجلة. مرّ خارج قرية تفوح منها روائح العشاء وظلّ يركض. توقف في الليل يلتقط أنفاسه. الدبابيس الحارقة في خاصرته أفقدته الوعي وهو ينحني

ويلهث. سقط محطماً. حين قال الصوت «اركضْ» لم يردّ. استيقظ في ظلمة دامسة. شمّ رائحة الأعشاب وتأكد أنه ليس حلماً. تلمّس ساقه ولم يجد سلسلة. كتم صيحته بيده. كان يرتعش وخاف أن يفقد الوعي مرة أخرى. «أنجو؟» تحرّك مستعيناً بضوء بعيد يتلامع ثم يختفي. قبيل الفجر تباعدت الغيوم ولمع كوكب الزهرة. ديدان بلون الدم سبحت في عينيه. انتبه أنه يهذي ويأمر نفسه بالركض. نسمة هواء مباغتة جلّدت العرق الغزير على ظهره. اندفع مترنحاً كأنه لُسع بسياط. لم يقع لكنه تكوّم على الأرض وقبض حفنة تراب ومسح رقبته. مع شعاع الشمس الأول ارتجف كطفل يخرج من رحم أمه. أراد أن يصيح ومرة أخرى سدّ فمه بيدّه. بانت مدينة في البعيد، غائمة رمادية، ترتفع فوق بيوتها شوكة مثلثة من المآذن. ابتهج كأنه ينظر الى مدينته، كأن الربّ حمل بيروت الى هنا من وراء البحر كي يُقصّر عليه المسافة. «جامع السراي والجامع العمري وجامع النوفرة.» بلغ ساقية ماء فجأة. أوشك وهو مندفع في الضباب أن يسقط فيها. كانت تجري بلا صوت في سهل أصفر. ركع وشرب وغسل رأسه. مسح جروحه. حرارة جسمه خدّرته. لم يشعر بألم فكه المخلوع ولا بزعيق عضلات ظهره. تلمّس سيقان السنابل. عثر على حبّات منسية. دقّها بين حجرين ومضغها مع الماء. «نلتقي يا نعمان؟» ركض حتى رأى خرافاً تطلّ من وراء تلّة. كانت ساكتة سمينة ذهبية الصوف. لمحته وارتفع ثغاؤها. أوقف الخوف الرجل الهارب من الحبس.

(الراعي المقدوني)

أطلّ وجه حنطي أسود الشعر والعينين، طفولي يشبه حنا يعقوب كما كان قبل ثلاثين سنة. بان أقصر من العصا التي يحملها. الخراف القليلة تحلقت حوله بلا كلب حراسة. نظر الى الفقير المقرفص في الأسفل وانتبه أن فمه متورم وأن الدم يلطخ قدميه من المشي على الشوك. الراعي الصغير لم يخف من الفقير الدرويش. عرف أنه سقط وأذى نفسه في البرّية. انحدر على العشب كأنه يسبح على غمامة. قرفص غير بعيد من الفقير وحيّاه. أنزل جراباً عن ظهره. أخرج منه خبزاً طرياً وجبناً وزيتوناً أسود. مدّ يده بالأكل الى الدرويش المذهول. «خذْ!» العينان المقدونيتان نظرتا اليه بمودة حقيقية. حنا يعقوب مدّ يداً سوداء تشبه مخلباً محروقاً وأخذ الخبزة وقطعة الجبن وحبّات الزيتون المملح. كانت أشياء من عالم بعيد، غير موجود، خيالي. وجدها فجأة بين يديه وظلّ حتى وهو يبلعها لا يصدق أن هذا ممكن الحدوث. لا يصدّق أن الجنّة يمكن أن تكون قريبة الى هذا الحد من جهنم. رائحة جبن الغنم القويّة غطّت رائحة الدخان في جلده. مضغ الزيتون الأسود والخبز الطري ونظر الى الصبي وقال لنفسه هكذا بربارة الآن لكن شعرها أطول وربما قامتها أطول أيضاً. تكّلم الراعي الصغير بالمقدونية وكلّما لاحظ في حديثه أن الفقير الساكت لا يفهم ما يقول لجأ الى حفنة كلمات بوسنية وتركية يعرفها. الفقير هزّ رأسه وأصغى اليه. رأى بربارة بين الخراف. انتبهت اليه وتركت يدها على ظهر الخروف: «أنت أبي؟» لم يعرف ماذا يجيب وتماسك لئلا ينفجر بالبكاء أمام الراعي. كان واقفاً يدلّه الى تلّة

جرداء ويخبره أن بيته في ذلك الاتجاه وغير بعيد. «جدي إسمه أحمد مثلي. وأبي اسمه حسن. وأمي تقول إنني أشبه جدي. هو أيضاً ذهب مع الحجّاج الى مكة منذ ثلاث سنوات كما أنت ذاهب.» حنا يعقوب هزّ رأسه وهو يبلع اللقمة التي لم يذق أطيب منها في حياته. الراعي دلّ الى المدينة المثلثة المآذن وقال إن موكب الحجّ يتجمع منذ أيام لكنهم ما زالوا ينتظرون أبناء سراييفو. حنا هزّ رأسه ومسح فمه. ألم فكّه لم يقتله وهو يلوك الطعام ويبلع. «أنت أتيت ماشياً من البوسنة؟» هزّ حنا الفقير رأسه. «وحافياً؟» تماسك حنا وظلّ ينظر الى بربارة تتحرك بين الخراف خفيفة كلقاح الزهور. «جدي قال لي ان الدراويش الذين يسيرون الى مكة حفاة يسكنون جنب بيت الرسول في الجنّة.» هزّ حنا يعقوب رأسه. سأله الراعي المقدوني عن إسمه. «سليمان.» كانت الكلمة الوحيدة التي لفظها. سكت بعدها وترك الراعي يحكي عن جده وأمه وأبيه الذي يخدم في عسكر السلطان. «جدي قال كلما كان بيت الفقير أبعد من مكة ورحلته أطول وأصعب كلما كان بيته في الجنّة أقرب الى بيت الرسول.» افترق خروف عن البقية. الراعي التقط حجراً عن الأرض ورماه أبعد منه قصداً. طقّ الحجر على صخرة. تراجع الخروف الصغير وهو يثغو خوفاً وعاد الى المجموعة. هبّت الريح وتحرك العشب. ماج صوف الخراف. «أنت بردان!» حنا هزّ رأسه وجمّد فمه كي يمنع اصطكاك أسنانه. «تعال!» قفز الراعي متسلقاً التلّ لكن الفقير بدا متردداً. أطلّ حنا بعينيه يفحص الأرض وراء التلّ. رأى شجرة ولم يرَ ناساً ولا بيوتاً. سار خلف الراعي حتى شجرته التي ترك تحتها جرّة ماء. كان سريع الحركة وارتقى الأغصان وجذب من مخبأ جلداً مدبوغاً

وقفز الى الأرض. «خذْ!» ركض الى صخور تبعد أمتاراً واختفت ذراعه في تجويف ثم خرجت طويلة. كان عابساً كما يعبس الصغار وهو يهزّ العصا التي أخرجها من بين الصخور. قاسها وهو يمدّها جنب عصاه في ظلّ الشجرة. بدا في حيرة. ثم حسم رأيه وأعطاها للدرويش مع أنها أطول وأمتن وأجمل من عصاه. تناولها حنا ورأى أنها قديمة ملساء، محمرّة الخشب ثمينة. ردّها الى الراعي. «لك، لك، خذْها معك الى مكة.» قفز الى خلف واضعاً مسافة بينه وبين العصا التي أعطاها للدرويش سليمان. مشى الى الجرّة وحملها للفقير كي يشرب. تأمل الجلد المدبوغ الذي لفّه وأدفأه. لمعت عيناه الواسعتان سروراً. حنا يعقوب سار يجرّ ساقه مع الراعي المقدوني. الخراف تتبعنهما حتى بلغا طريق قدم ظاهرة تنحدر بين الحقول. نظر حنا يعقوب الى المدينة المثلثة المآذن في نهاية الطريق ثم وضع يده على رأس الصغير. تأكّد أنه حقيقي. شفته اللمسة من دون أن يعلم. مشى مبتعداً راجف الصدر يستند الى العصا ويشدّ الجلد على كتفيه. «واذا رأيت جدي أحمد في مكة قلْ له عني وأخبره أنني اشتقت اليه وقلْ له أنا الذي أعطيتك العصا.»

(قافلة الحجّ)

أعوام البُكم قنّنت كلامه. جلس في الميدان وسط عددٍ غفير من حجّاج يتكلمون لغات كثيرة. تلقى خبزاً من قفّة الخبز وتمراً من سلّة التمر. إسمه «سليمان». ذاهب الى «مكة». لم يكن بحاجة

الى أكثر من كلمتين كي يأكل على نفقة السلطان ويحظى بصحبة حجّاج بيتِ الله الحرام وينام دافئاً في الخانات العثمانية المتباعدة على الطريق الطويلة من هذه المدينة المثلثة المآذن الى صوفيا الى بلوفدف الى أدرنة الى أسطنبول الى دمشق. «ومن هناك فشخة الى جبلكم.» ملتفاً بالجلد المدبوغ الذي ردّه إنساناً، قابضاً على عصا ملأته قوّة، نظر الى أحد المكّارين مقرفصاً جنب بغلة بيضاء يرسم على التراب طريق القافلة. قال المكّار «دمشق» فوجد حنا نفسه على ضفة نهر إيشكار ينظر الى جندي حموي يخطّ الدرب ذاتها. قضى الليل نائماً في الميدان أمام الجامع بين الحجّاج الآخرين. أشعلوا لهم ناراً لئلا يبردوا. ظلّ يرجف داخل جلده. لم يكن برداً. غفا قبل أذان الفجر ثم قام معهم. توضأوا للصلاة. قلّدهم. صلّى مع الجماعة صلاة المسلمين. بينما يسجد تحت قناطر الجامع شعر أنه المسلم الفقير سليمان. مع أنه بائع البيض المسيحي حنا يعقوب من بيروت الذي بيته على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك. «أعرف من تكون. قدحت طبلة أذني وأنت تصيح في الميناء.» وجد قاسم جنبه. لمح وجهه كما كان قبل النزول في حبس الهرسك، قبل أن يطمروه سنة كاملة في تلك «البئر». ركع حنا مغمض العينين. أصغى الى تلاوة الشيخ من سورة البقرة. الكلمات العربية نزلت سلاماً في صدره. بينما يخرج أمسك به أحدهم وأعطاه مداساً بنعل خشب. قبل أن يشكر الرجل حمله تيار الخارجين من الجامع الى بسطة القهوة والكعك والسحلب. انتعل المداس. طالت قامته. شرب حليباً ساخناً وبكى. رأى نفسه يدخل بيته من جديد.

*

هذه المرة لم يجرف ثلجاً ولم يحفر أقنية ولا قبوراً. سار معتمداً على عصاه متجنباً جرّ قدمه. حين بدأ يتعب وينعس ويمسح عرقاً عن وجهه امتدت أيدي الحجّاج ورفعته مثل دمية خفيفة الى عربة ديليجانس بستة أحصنة. أقعدوه كأنه ولد على الدكة الخشب. ترّنح ناعساً بين أجسام كثيرة ساهرة لكنه لم يسقط. نام هكذا بينما القافلة تمتد في الليل وسط قرع الأجراس الصغيرة التي تزين الحمير وتجلجل كلما زادت سرعتها. فتح عينيه لحظة ولمح جملاً سريعاً تغطيه أقمشة مزركشة وجلود ثمينة. خفقت راية صفراء فوق هودج مكسو بالمخمل الأخضر. حملة القناديل تراكضوا كالملائكة. تضوعت رائحة الزيت والمسك والعنبر. كان شبه نائم لكن بهجتهم ظلّت تبلغ أعماقه بينما يتبادلون قصصاً سعداء بالرحلة الى مكة. ناولته يد بيضاء خبزة مغمسّة بدبس. مضغها وترك السكر يذوب في حلقه. أصوات كثيرة وشيخ من أرضروم يخبرهم عن السماء والأرض ويرصع حديثه بآيات قرآنية. تذكر حنا نفسه أمام الجامع العمري في بيروت، ولداً صغيراً يتدرب على مهنة العطارة. رأى جسمه الضئيل متحركاً بين سلال التوابل. «أنا كنت ذلك الولد؟» تاه في العتمة لكن الشيخ بدا أقرب صوتاً الآن كأنه نقل مقعده في العربة. «كُتب عليكم الحجّ. وفي سورة آل عمران: ولله على الناس حجّ البيت من استطاع اليه سبيلاً. وفي سورة الحجّ: وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. هذا كلام الله للنبيّ إبراهيم عليه السلام بعد أن أكمل عمارة البيت العتيق. حجر على حجر بلا طين. سُمي الكعبة لأنه بسيط كامل مكعب الشكل. شماله بنى عريشاً منحنياً زرباً للغنم. زوجته عطشت قبل سنوات مع طفلها. خرج لها ماء نقي يجري

على الرمل. هذا بئر زمزم وبه تُغسل أرض الكعبة. هل ترون الغبار الأبيض بين الكواكب، هذا الدرب الذي سلكه الكبش السماوي حين افتدى به الله إبن النبّي إبراهيم. لم تذبح السكين رقبة ولده مع أنه انبطح ووضع خده على التراب راضياً. قال اربط يدي يا أبي ولا تنظر الى وجهي لئلا تشفق عليّ وتعجز عن ذبحي. مرّ النبيّ بالسكين الحادة على الرقبة، لكنها بمشيئة الله لم تنحر. نزل من السماء خروف أبيض الصوف رعى عشب الجنّة. حين ذبحه سيدنا ابراهيم وهو يقول اللهم تقبّل منا، شمّ رائحة الجنّة.» صاحت لقالق طائرة في الليل. هواء الحقول ملأ صدر حنا. خفتت ضجّة القافلة. كانوا ينعسون ويتغطون للنوم. العربة لم تتوقف. ركضت أشجار شوح عن الجهتين. بانت برّية زرقاء مسننّة الصخور رآها من قبل. ظهر صفّ أليف، من التنوب. لكنه لم يرَ جثثاً تتدلى من مشانق بدم يتجمد في لحاها وألسنة مخضرّة كالسحالي. «هذه الطريق ذاتها التي سلكناها قبل سنوات الى صوفيا؟» رأى النجوم تبرق وتضيء سلسلة الجبال. لم يُصدق. «أنا خارج الحبس؟ أنا ذاهب الى البيت؟» ظلّ ينام هنيهات قصيرة ثم يوقظ نفسه متمسكاً بعصاه. خاف اذا طال نومه أن يستيقظ ويجد نفسه ما زال مربوطاً في القبو تحت الأرض.

(البيت القديم)

ترجلوا من العربات في المرتفعات. خفّفوا حمولتها. لهثت الأحصنة. كانت الثلوج تذوب عن القمم والبساتين تزهر. ألوان

بيضاء وصفراء وزهرية ماجت فوق أرض تتغطى بالأخضر. عجنوا وخبزوا. ذبحوا غنماً. أداروا الوجوه الى مكة. شووا وأكلوا. كانت حصته تصل اليه من دون أن يطلب. عالج جروحه بماء مملح. رآه مكّار بوسني وجلب له قارورة زيت موستاري تفوح برائحة العسل والليمون والزعتر. «امسحها بهذا المرهم كل ليلة قبل النوم.» دخلوا بلدة مزينة بأغصان وشموع وأقمشة. انضم اليهم حجّاج جدد في دوامة أهازيج وأدعية. في قرية تجاور الطريق أولموا لهم وسقوهم شربات أذابوا فيها ثلجاً. أعطوهم أباريق صغيرة بسدّات فلين كي يردوها عند رجوعهم مملوءة ماء من نبع زمزم. «حجّ مبرور.» رأى حنا صبياً يشبه الراعي المقدوني يتعلق بساق أبيه الذاهب الى الحجّ ولا يتركه. «أنا أخاف يا أبي، خذني الى البيت!» بدا مذعوراً وسط الزحمة والضجيج ونداءات الوداع. الأب حمله وناوله ضاحك الوجه الى إمرأة ملتفة بالأبيض. «أمك ستأخذك الى البيت. لا تبكِ. سأجلب لك تمراً من مكة.» سردار الحجّ تمايل في زيّه الجميل على فرس كحلية كأنها فرس عامر بيك البوشناقي. عبروا جسراً بقنطرتين على نهر رائق المياه. حنا رأى طيوراً تخفق أمام القافلة كأنها تتأكد من الدرب. على صخرة جلس الشيخ عارف عبد الباقي مغطى بغبار الصخور يرمي مطرقته في الهواء ويلتقطها. تأمل مرور القافلة. كان أصفر الوجه وعلامات الكوليرا ما زالت بائنة في تقاسيمه. نزلوا ساعة الغروب عند جدول بارد تحف به شجيرات الياسمين. فلاحات حاملات سلالاً مملوءة زهراً رفعن زغاريد. اصطفت العربات جنب الطريق. فكّوا الثيران والبغال كي ترتاح وترعى. توضأوا وفرشوا سجاجيد على العشب وصلّوا. في ليلة ملبدة

الغيوم دامسة الظلام أبصر ناراً بعيدة تتأجج بين تلال. ذات ظهيرة غطّت أسراب البجع وجه الشمس. في قرية محاطة بالصفصاف النهري أكل خبزاً ولبناً طازجاً ونام أجمل نومة منذ سنوات. حين بلغوا قشلاق صوفيا نظر الى النوافذ حمراء في نور الغروب وبكى بلا انتباه. لم يجد الفرن القديم جنب الجامع. في مكانه رأى عمارة بلا باب تدير ظهرها للطريق. «خذْ! اشربْ شربة ماء يا حاج!» تناول الابريق من السقّاء وشرب وبلع الماء الحلو مع ملح دموعه. «مثل قشلاق بيروت!» سمع صوت قاسم في رأسه. كان بعيداً كأنه يسافر أبدياً هذه المرة بلا عودة. «أين أنت يا قاسم؟» لم يسمع جواباً لكنه رأى حجّاجاً جدداً يلتحقون بالقافلة. أبصر سوداً طوال القامة يلتحفون بملاحف صفراء يخرجون من الثكنات ويتسلقون بلا جهد عربة ديليجانس. اهتزت العربة وأبطأت سيرها. أوشكت أن تزحف ببطنها على الأرض. كانوا يحملون أمتعة ثقيلة ورأى أحدهم يتأبط لباس الإحرام القطني الأبيض. كانوا يتحزمون بزنانير زرقاء وحين أنهوا ترتيب أغراضهم في العربة أرخوا الزنانير وناموا. حنا لم ينم رمشة عين. حدّق الى خان يعرفه ورأى أن الأقنية جنب طريقه طافحة بالماء لكنها غير مسدودة. ضوء المصابيح برق كالنجوم في المياه. في صباح غائم توقفوا وتلقوا من فلاحين وفلاحات سلالاً مملوءة بيضاً مسلوقاً وتيناً يابساً وخبز شعير. رأى قرى بعيدة واطئة لم يرَها من قبل لأنه كان يسير على قدميه. كانت بيضاء الحيطان مسقوفة قرميداً أحمر. واقفاً في العربة العالية تأمل أشجاراً جلس في ظلالها قبل سنوات وأكل مع الدروز خبزاً وثوماً. قلبه نبض مجنوناً في صدره بينما يدنو من البيت القديم. لم يجد أثراً لنعمان. كان البيت

متهدماً وبعر الغنم يغطي أرضه المتشققة. لم يجد أثراً للحديقة بسورها الخشب والبركة الحجرية الصغيرة التي بنوها للوزّة البيضاء. حتى قش السقف أكلته الأغنام. رأى بيوتاً محروقة عند طرف القرية وفزع من اللون الأسود. ظهر أولاد من بين البيوت الباقية يرفعون أرانب رمادية من آذانها. وقفوا باسمين مفتوحي الأفواه يراقبون القافلة. عيون الأرانب الصفراء تأملت حنا وهو يبكي بلا صوت.

(أدرنة)

أمطار خفيفة سقطت عليهم حين خرجوا من مدينة بلوفدف. ابتلّت لحية حنا بالماء كما ابتلّ شعر رأسه. أعطوه عمامة. صحت السماء وفرقع الهواء بأشعة الشمس. أزّ النمل الطيّار هارباً من الحوافر. الأشجار قطرت ماء يشبه الجواهر. نزل من العربة ومشى مسروراً بزوال الألم من ساقه. أجراس الحمير جاوبها جرس كراز من تلال تتحرك مع قطيع غنم. نظر الى الطريق الرومانية المستقيمة، نظر الى القافلة التي تحمله كما يحمل النهر قطرة ماء، وصلّى أن يمهله الربّ وألا يقبض روحه قبل أن يرى هيلانة وبربارة.

*

ناموا ليلة في خان أكمكجي زادة الذي أخبره عنه الحاج مصطفى مراد قبل سنوات بعيدة في حبس الهرسك. صلّوا في جامع السليمية، أجمل جامع في العالم. تأملوا القبّب العجيبة التي

رفعها المهندس سنان باشا قبل قرون ولم يفهموا كيف تبقى معلقة هكذا بين المآذن الأربع الثلاثية الشرفات والطبقات. حنا سار في الجهة الأخرى من الطريق يراقب القصور والوجوه ولا يعثر على الحاج مصطفى. لم يجرؤ أن يسأل أحداً عنه. «واذا رأيته؟» صلّوا في الجامع الكبير القديم ودلّهم الشيخ الى حجر فوق شبّاك عن يمين المنبر وقال هذا الحجر مجلوب من الكعبة. لمسوا الحجر تبركاً والشيخ أخبرهم ان دراويش أدرنة يزعمون ان جامعها يقع كبيت رمل إذا أُزيل من الشبّاك هذا الحجر. أكلوا حلوى يسمّونها كليجا معمولة من عجين وسمن وسكر. شاهدوا فقراء المولوية ينشدون ويرقصون قبل أن ينضموا الى موكب الحجّ. صار عدد الحجّاج أضعاف ما كان عليه عند الخروج من المدينة التي دلّه اليها قبل أسابيع الراعي المقدوني الصغير أحمد. توقفوا عند معصرة في الهواء الطلق. شاهدوا حزماً من قصب السكر وقدوراً ضخمة تغلي على النار وفقراء يدنون منها بلا معترض واحداً تلو آخر ويغمسون في القدر خبزة ساخنة ثم يخرجونها مشبعة بالقطر.
حنا سمع أنين عجوز ألباني ينام النهار والليل في العربة التي يركبها. كان مريضاً. ترك زوجته وأولاده كي يطوف البيت العتيق قبل أن يموت. أثناء الليل يوقظه كبده. اعتاد أن ينظر باسماً الى المخلوق الملتف بجلد مدبوغ والذي يسمّونه الحاج سليمان. نادراً ما تكلّم هذا الرجل الذي يقبض بأصابعه المشوهة عصا حمراء صقيلة، كأنه يخفي في العصا سرّاً. العجوز المريض أحبّ أن يتكلم معه وأن يسأله عن أهله. لكن الحاج سليمان بدا بعيداً نائياً كأن دائرة صمت تلفّه مع جلده. قبل أن يبلغوا عاصمة السلطنة مات العجوز. شهق وهم يتوضأون لصلاة الفجر. فاضت روحه.

حفروا له قبراً جنب الطريق. غسلوه وألبسوه كفناً لباس الإحرام الذي حمله معه من أقاصي جبال ألبانيا. صلوا عليه مصطفين كالجنود. كانوا جيشاً بلا بواريد. في البعيد البعيد بانت أسراب حمام تحوم فوق أسطنبول اللامرئية. أرقدوه في القبر على جنبه باسم المحيا ظاهر العظم. أداروا وجهه الى مكة. طمروه بلا حزن. بدوا في نور الصباح خالدين.

(مراكب البوسفور وحكاية المكّار)

قلاع اسطنبول أطلقت مدافعها احتفالاً بوصول موكب الحجيج البلقاني. ارتعش قلب حنا في قفصه الصدري. دوي المدافع حرّك أصابعه كالعنكبوت على فخذه. لمس جرحاً قديماً لم تضربه الغرغرينا في قبو بلغراد. خرج من رأسه أعمى يتشمّم ملح الهواء وطرطق بعصا على عجلة العربة كأنه يزيحها من دربه. كان حقيقياً. تأكد حين سمعه يتكلم مع الحجّاج. «هذا ليس الشيخ حمد.» داخوا بين المراكب والبواخر. شاهدوا سفناً محملة بالبقر والخيل والغنم. عجزوا عن احصاء القوارب. كانت المدينة مقطوعة بالبحر العظيم نصفين وسمعوا نداءات الباعة من الجهة الأخرى. استقلوا عبّارات. قطعوا البوسفور من الجانب الأوروبي الى الجانب الآسيوي. على وجه الماء تطايرت النوارس مطلقة صيحاتها. ارتطمت باخرة بحافة حجرية. اهتزوا كأن الأرض زلزلت. تيار من الحمّالين أغرقهم في زعيق متشابك. رايات لا تحصى ومآذن تسقف المدينة. نظروا الى أبراج الحجر القاتم

وانتبهوا الى ضآلة أحجامهم. توغلوا مذهولين في أزقة متاهة مسقوفة. شعروا بمِعدهم مخضوضة. روائح وأصوات وألوان. خرجوا من الدوّامة العجيبة الى ميدان تطوقه أشجار لم يروا مثلها من قبل. الجوامع الرخام والقصور المرمر عقدت ألسنتهم. حطّ عليهم الطير ناظرين الى عمارات خشبية مزخرفة لا أحد يعلم الجهد والوقت والفن الذي بُذل كي تخرج على هذه الصورة. شرفات ومصاطب تعلقت مسحورة فوق المياه. اكتظت برجال يشربون قهوة ويدخنون أراجيل ويأكلون حلوى، لكنها لم تسقط. طقطق خشبها تحت دعساتهم الخائفة من دون ان يتكسر. اجتازوا أقواساً مزينة. رشقوهم بالرزّ. ضحكوا والتقطوا الحبّات من أرض العربة. أطلّت عليهم عيون جميلة من مشربيات ونوافذ. كانت الزحمة شديدة لا تصدق ولم يفهموا كيف يقدر أهل اسطنبول أن يتنفسوا في هذه الشوارع المحشوة أجناساً ووجوهاً وألسنة. مسلمون وأرمن ويهود ونصارى، تجار من البلقان واليونان والقوقاز والقرم والعراق والشام وبيت المقدس والاسكندرية، دكاكين فوق دكاكين ودروب ضيقة مبلطة تنحدر حتى الماء بعربات خاصة مكبوسة ثقيلة تكرّ وتقفز الى معديات خشب تنزلق سريعة وبطيئة حتى تبلغ الجانب الآخر. صعقهم الأذان. كان هديراً هاجماً من الجهات كلّها. في داخل الهدير ميّزوا صوتاً مفرداً منغوماً وتعلقوا به حتى دمعت عيونهم. نزلوا في خان رستم باشا. وصلوا في وقت الأكل ورائحة الباذنجان المقلي تغمر الباحة. غمّسوا الخبز في الصلصة الحارة وأكلوا. جلبوا لهم كاسات ماء ورد. تحلّوا براحة الحلقوم المشهورة. حين خرجوا من اسطنبول بعد أيام وعلى رأسهم أمير الركب رفعت باشا انتبهوا ان الموكب

الاسطمبولي طغى بتياره العظيم على موكبهم البلقاني. صاروا آلافاً. جزء من الموكب البلقاني انفصل عن القافلة البرية وركب بواخر شركة المساجيري مكملاً الرحلة بالبحر الى جدة. «معهم ثمن الناولون.» حنا الذي يسمّونه الحاج سليمان مشى جنب المكّار البوسني ساكتاً يصغي الى حديثه. «لا أحبّ ركوب البحر. وحميري مثلي.» ضحك وهو يشدّ الحبل لأن حميره المثقلة بالأحمال أخذت تتأخر عن القافلة. «المشكلة في رفعت باشا لا في الحمير. يريدنا أن نركض ركضاً. عنده زوجة وأولاد في حلب. اشتاق لهم.» قطعوا هضبة الأناضول من الغرب الى الشرق. كانت جداول جديدة تنضم الى الموكب كلّما عبر قرية أو مدينة. حجّاج بورصة جاؤوا محملين ببضائع يبيعونها في مكة. حجّاج قيصرية أخّروا الموكب: أولموا للحجّاج وأجبروهم على النزول ليلتين في خان مصطفى باشا. كانوا ينتظرون بضاعة متأخرة آتية من الجبال، جرار زيت وأحمال صابون اعتادوا بيعها في مكة. جلبوا أيضاً أكياس خيش مملوءة سكراً وحنطة وملح، مونة للطريق، عارفين أنهم سيرجعون وهي مملوءة مسكاً وأعواد قرفة وتوابل من بلاد الهند يجلبها الى مكة حجّاج تلك البلاد القصية. التجار المختصون بالتمور تكتّلوا يتبادلون الأخبار ويسألون عن المواسم في أماكن مختلفة. «خالي كان تاجر جوز ولوز وصنوبر. هو ربّاني أنا وأخوتي العشرة لأن أبي تركنا ونحن صغار مع أمي. أولاد خالي ماتوا بالطاعون وهو مسافر. زوجته لم تمت مطعونة لكنها نزلت الى النهر بلا جرّة وبلا غسيل وغرقت. صرنا نحن أولاده. كان يفحص مداساتنا في الصباح خوفاً علينا من العقارب. انتبه لأمي وعزّزها وكرّمها. لكننا كنا ساعة نقعد كي

نأكل معه نعرف أنه يفكر في زوجته وأولاده. مات قبل سنوات ميتة ربّنا وهو يشرب قهوة الصباح. أتذكر وجهه ونظرته حين تصل الى الدكان حمولة ينتظرها، أو حين يرجع من السوق بعد صلاة العشاء ويجد أننا ننتظره ولم نأكل بعد. فيك شبه منه يا حاج سليمان.»

(بلاد الشام)

تغيّرت الأصوات التي تُسمع من الحقول. في قرية قبل حلب وجدوا الطريق منهارة. العمال أصلحوها في ساعتين. المكّار البوسني تكلّم مع البدو بالتركية والبوسنية. حفنة الكلمات العربية التي يعرفها أضحكتهم. وجدوا نطقه غريباً. ضحك معهم وتعجّب لرؤية صاحبه الساكت الحاج سليمان ضاحك الوجه أيضاً. من دون أن يسأله أيقن أن هذه دياره. راقبه يصغي الى المكارية العرب وشعر بحزن مباغت شديد وودّ لو يحمله الله الى البوسنة في هذه اللحظة.

*

حنا يعقوب ابتهج مصغياً الى النبرة الدافئة. كأنه بلغ بيروت! سمع الحكي العربي وشعر بالصقيع يخرج من سلسلة ظهره. السنابل ماجت من أجله. زغردت الحساسين كي يسمعها. نبحت كلاب حلب على الترك لكنها لم تنبح في وجهه. اغتسل في بركة في خان البنادقة. قبل أن تعتكر المياه أبصر وجهاً مأكولاً بالشعر يتأمله مستغرباً من أعماق البركة. «أبانا الذي في السموات.» غسل

رقبته وغسل لحيته وجلس على درجة حجرية مبرية. كان بعيداً من مكان الحركة. راقب العالم وسمع اللغة الأليفة تسبح صوبه كي يسمعها. لم يبكِ لأن دموعه جفّت على الطريق من آخر الأرض الى هنا. نظر الى العصا الحمراء الصقيلة وشمّ رائحة يديه فيها. «لك، لك، خذْها معك الى مكة.» رأى دخاناً كثيفاً في باب المطبخ وسمع صياحاً. أولاد تراكضوا خارجين يضحكون ويرمون في الهواء بصلاً. «اركضْ يا حنا!» اهتزّ قاعداً على الدرج وتبلّل بالعرق داخل جلده. نظر الى مداس مشى عليه من نهاية العالم. طرد من فكره القلعة السوداء والجبل الأسود. قام كي ينضم الى الجماعة خائفاً من القعود وحده.

(افتراق)

بعد البادية وكثبان الرمل أطلّت مدينة سابحة في الخضرة. رائحة البساتين جعلت الحمير تركض ركضاً. جذبها الماء كأنه يشدّها بسلسلة حديد. «دمشق! الغوطة! المشمش!» وزعوهم على خمسة خانات. لم يجدوا مكاناً للجميع لأن المدينة امتلأت بحجّاج العراق وأذربيجان والقوقاز والساحل الممتد من طرابلس الشام الى صحراء غزة. البلقانيون صلّوا في الجامع الأموي ثم اتخذوا الميدان خاناً. في الليل أشعلوا ناراً وسهروا. كانوا سعداء ببلوغ هذه النقطة سعادة منعت عنهم النوم. تحلقوا متعبي الأجسام وأصغوا الى الحكواتي من دون أن يفهموا جميع كلماته. كانت الإبل هاجعة مثل جبال نائمة وبين حين وآخر تفتح

عيونها وتنخر معترضة على الضجة. أمير الحجّ أتى من قصره محفوفاً بعبيد يوزعون البقلاوة بالفستق، وألقى عليهم السلام. باتوا الآن قطعة من موكب الحجّ الشامي. أحد المشايخ جلس في زاوية يتلو آيات من القرآن. الحكواتي تبدّد في الهواء عندئذٍ. باعة القهوة داروا يطرطقون بالفناجين. رقصت ألسنة النار وخفقت الأشباح على الحائط. «لبيك اللهم لبيك.» حنا انتظرهم حتى هجعوا. غفا ساعة واستيقظ مذعوراً في ظلمة دامسة. رأى نفسه في قبو عميق مربوطاً بسلسلة الى حلقة في الأرض. جلس مرتجفاً شبه محموم. بانت مصابيح وتعرّف على الجامع الأبيض. جمع أعضاءه المتناثرة ونهض مهزوز القلب. خطا فوق النيام. المكّار البوسني كان هاجعاً بين حميره يشخر مثلها كأنه يقلدها. حين انحنى كي يترك العصا جنبه شمّ رائحة الزيت الموستاري في رأسه. «لك، خذْها معك الى مكة.» أجابه شخير وهمهمة خلفه. تحرك كالشبح في الميدان وجاوز بحر الأجسام خافق الرقبة. ألقى السلام همساً وبالايماءات على جنود ساهرين يستدفئون بالنار ويحرسون أمتعة. كانوا ناعسين حزانى الوجوه. ردّوا تحيته وتركوه يذهب.

(العجوز والأحصنة)

ارتفع أذان الفجر وهو تائه في دروب دمشق لا يدري من أين يخرج. سمع حوافر تقرع زقاقاً مبلّطاً ثم رأى بغلة تخرج من الظلام. كانت بيضاء كالثلج. استوى على ظهرها شيخ طاعن في

السنّ. حين تكلّم ظهر من لهجته أنه من جبل حوران. بادر الغريب المرتعد داخل جلد مدبوغ الى السلام، وسأله هل هو ضائع؟ كانت نظرته زرقاء غريبة في وجه مجعد ترابي.

«تعرف يا شيخ أين طريق بيروت؟»

«أنت من بيروت يا إبني؟»

هزّ رأسه في عتمة تتبدّد.

«ولك إسم يا إبني؟»

«حنا يعقوب.»

«تعال يا حنا يعقوب. أنا أدلّك.»

شدّ الشيخ الحبل شدّة خفيفة. استجابت البغلة ودارت عائدة الى ظلمة الزقاق. بلا صوت تبعه حنا حتى بلغا ساحة تتراصف فيها عربات الأحصنة. رأى رجالاً محمّلين بالسلال يركضون في شعاع الشروق. ارتعد حين سمع صرخة بائع بيض: «بيض بيض، بيض مسلوق!» كان البائع مخفياً بالعربات الديليجانس لكن صوته ملأ الساحة. التفت الشيخ.

«من هنا تنزل العربات الى بلدك.»

«العربات تصل الى بيروت؟»

«لماذا لا تصل؟ تكرّ على الطريق وقبل غروب الشمس تكون في بلدك.»

لم يكن حنا يعلم أن درب عربات شُقت من دمشق الى بيروت أثناء غيابه.

«معك أجرة الطريق يا إبني؟»

«معي يا شيخنا.»

«وجهك لا يقول هذا. خذْ هذه القروش. أنت غريب عن دارك. وأنا غريب.»

*

«جئت في وقتك.» ابتسم له المكّار الحمصي. كانت العربة ملآنة تنتظر راكباً واحداً بعد كي يكتمل العدد. رحبوا بالرجل الأبيض اللحية وأفسحوا له مكاناً. خطا فوق سلال وأكياس منتفخة واستقر في زاوية على الدكة الخشب. كانوا شواماً وحماصنة وزحلاوية. نظر الى أولاد صغار ينعسون شبه نيام في أحضان أمهاتهم. مع حركة العربة ناموا. حنا أيضاً نام من دون أن ينتبه. مرّ زمن قبل أن يفتح عينيه ويبصر حقولاً خضراً. لم يتذكر سهلاً قطعه في الليل في بلاد البوسنة لكن تعباً حلّ عليه. مالت السنابل وغمرته رائحة القمح الأخضر. خدّرته بثقلها وغفا من جديد. ترجلوا من العربة ظهراً لإراحة الخيل في محطة شتورة. شاهد شغيلة يخرجون تبناً رطباً من مخزن ويبعثرونه بالمذراة تحت الشمس. رأى بسطة تبيع أطعمة مقلية وأرغفة مرقوقة على الصاج مدهونة لبنة بقر. تحت شجرة جوز تحلّق مسافرون يفتحون صرر زوّادة. رأى حجّاجاً ذاهبين الى دمشق. بدت وجوههم أليفة كأنه رآهم في أسواق بيروت. مدّ يده الى قعر البئر لكنها لم تقبض على ذكرياته. تسلقوا مضيق ظهر البيدر ثم انحدروا من علو 1400 متر على طرق جبل لبنان. تعرجت الدرب كالحيّة بين غابات صنوبر. مسح عرقاً عن عينيه. حين ترجلوا في محطة بحمدون لاستراحة ثانية وجيزة ظلّ في مكانه. هذه المرة سقى المكّار خيله من دون أن يفكّها. أسند حنا رأسه الى حافة العربة. رأى حركة غير مفهومة. سمع لهجة الجبل التي اعتاد عليها وسط دروز بلغراد.

كانوا عشرة أو أكثر يصارعون ثوراً من أجل ربطه. حيوان ضخم الجثة كبير القرنين شديد البأس أهلكهم وبلّلهم بالعرق ولطّخهم بالتراب قبل أن يتمكنوا منه. اقترب أحد المسافرين كي يتفرج. حذّروه: «ابعدْ من درب الثور!» حين تحركت العربة لسعه هواء بارد. «البحر!» فتح عينيه ورآهم يشيرون بالأصابع الى نقط سوداء تتباعد في سهل بعيد أبيض. «سفن. لا. بواخر. انظرْ الى الدخان.» شدّ الجلد على صدره العرقان. رأى قرية هاجعة بين تلّتين متشابهتين. أخفتها الأشجار.

(البيت)

أحد الركاب ظلّ يُلقي حزماً طوال الرحلة الى ناس ينتظرون مروره. ارتطم بالرجل النائم وهو يلتقط كيساً من تحت المقعد. فتح حنا عينيه ورأى جبل صنين برتقالياً. لم يُصدّق. وقف مستنداً الى حافة العربة ورأى مدينته في الأسفل، على بعد رمية حجر. صعقته المفاجأة. أطلّت بيروت مثلثة المآذن كما يتذكرها، مغمورة بنور الغروب، تسقفها أسراب الحمام. دارت الطيور في أقواسٍ فرحة كأن الربّ أقام المدينة على هذا الشاطىء من أجل هذه الساعة. شعر أنه في حلم. ترجلوا من العربة في ساحة البرج عند المساء. كانوا منهكين وأحشاؤهم مقلوبة من اختضاض العجلات. انفصل عنهم كالشبح. حيث كانت بساتين التوت وجد عمارات حجرية وحديقة مستديرة وموقفاً للعربات الديليجانس ومتاجر بأبواب زجاج مثل السوق الجديد في صوفيا. لم يخف لأنه أبصر

أطلال السور العتيق وباب السراي. دخل من باب قديم الى مدينة قديمة. مرّ أمام جامع السراي الذي يُسمّى جامع عساف. كان جوفه مضاء بالقناديل الصفراء وفي مدخله تتراصف المداسات السختيان والقباقيب الخشب. تقدم خائفاً في زقاق بلّطوه. لم يجد مصطبة الخيّاط. على درجة خارج بيت قرميد جلس صبي. انتبه الى الرجل يدنو منه.

«من يسكن هناك، في البيت حدّ الكنيسة؟»

الصبي نقل نظرته من يد مقفّعة الأصابع الى بيت مضاء النافذة.

«بربارة وأم بربارة.»

*

جمّده الخوف قبل أن ينطق الصبي. «بربارة وأم بربارة.» أسرع واسع الخطى الى باب الحوش. كانت بيروت تأكل. روائح الطعام خرجت من النوافذ. سعى كالأعمى في خط مستقيم الى بيته. «هيلانة. بربارة.» تخيّل نفسه يغتسل ويتخلص من جلده المدبوغ ويلبس قميصاً نظيفاً من قمصانه. دفع باب الحوش الذي ثبّته هنا بيديه قبل 16 سنة فغمرته رائحة قديمة. سمع الدجاج في القن يُرتب أجنحته كي ينام. شمّ زهور الرمان. دخل بلا صوت. وجد باب البيت مشرعاً والقنديل مضاء. رأى هيلانة على العتبة تخيّط صوفاً بالصنارة، جميلة وصغيرة كما تركها عند الفجر قبل 12 سنة خارجاً كي يبيع بيضاً في الميناء. لم يفهم كيف ظلّت صغيرة. كأن الزمن توقف في البيت الصغير على حائط كنيسة مار الياس! «لكن هذا مستحيل! هذا كلّه منام؟ كابوس؟ ما زلت في الحبس!» تجمّد مبلولاً عرقاً. أيقن أنه عالق الى الأبد في قبو في البلقان.

انطبقت رئته مسدودة بالدم. وقع في كيس أسود وخرج النفس من فمه ولم يقدر أن يستردّه. «ستموت هنا يا حنا يعقوب؟ من أجل موتك جئت من آخر الأرض؟» ارتعش ولطم الكيس بمخلبه. شعّ باب أمام عينيه. بربارة التي ظنّها هيلانة التفتت ورأت فقيراً واقفاً في جلد ماعز، لعله يريد خبزاً، أو بيضاً من القن. وضعت شغل الصوف على العتبة ونادت.

«أمي!»

ظهرت هيلانة قسطنطين يعقوب من داخل البيت تحمل ثوباً. رأت رجلاً مرتعداً في عتمة المساء. سقط الثوب من يدها.

«حنا؟ هذا أنت يا حنا؟»

جلس حنا يعقوب على الأرض. «هذه هيلانة. أنا في البيت.» شعر بالأصابع على جسمه تتأكد أنه ليس شبحاً. حضن زوجته وإبنته وبكى. شهق وملأ رئتيه بالهواء.

المراجع

Dicey, Edward
The peasant state: An account of Bulgaria in 1894 (1894)

Frankland, Charles Colville
Travels to and from Constantinople in the years 1827 and 1828, or, Personal narrative of a journey from Vienna, through Hungary, Transylvania, Wallachia, Bulgaria, and Roumelia, to Constantinople: and from that city to the capital of Austria, by the Dardanelles, Tenedos, the plains of Troy, Smyrna, Napoli di Romania, Athens, Egina, Poros, Cyprus, Syria, Alexandria, (1828)

Arbuthnot, George
Herzegovina ; or, Omer Pacha and the Christian rebels: With a brief account of Servia, its social, political, and financial condition (1862)

Thomson, H.C
The outgoing Turk: impressions of a journey through the western Balkans (1897)

Evans, Arthur
Through Bosnia and the Herzegovina on foot during the insurrection, August and September 1875: with an historical review of Bosnia, and a glimpse at the Croats, Slavonians, and the ancient republic of Ragusa (1876)

Servia and the Servians, by William Denton, 1862.

الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية، يوسف غضبان أبو شقرا ويوسف خطار ابو شقرا، تحرير عارف أبو شقرا، 1952.

«رسالة الشيخ سليمان العيد في الزمن السعيد»، مخطوط.

«مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان»، ميخائيل مشاقة، 1908.

«رحلة الى القدس»، جون لويس، ترجمة الياس البستاني، 1922.

للمؤلف

1- سيد العتمة، 1992.

2- شاي أسود، 1995.

3- البيت الأخير، 1996.

4- الفراشة الزرقاء، 1996.

5- رالف رزق الله في المرآة، 1997.

6- كنت أميراً، 1997.

7- نظرة أخيرة على كين ساي، 1998.

8- يوسف الإنجليزي، 1999.

9- رحلة الغرناطي، 2002.

10- بيروت مدينة العالم: الجزء الأول، 2003.

11- بيريتوس: مدينة تحت الأرض، 2005 .

12- بيروت مدينة العالم: الجزء الثاني، 2005.

13- تقرير ميليس، 2005.

14- بيروت مدينة العالم: الجزء الثالث، 2007.

15- الاعترافات، 2008.

16- أميركا، 2009.

ربيع جابر

دروز بلغراد

حكاية حنا يعقوب

علي قضى في كمين خارج دير القمر. بهاء الدين جرحته السيوف في وقعة زحلة ولفظ أنفاسه بجوار قلعة حاصبيا. بقي للشيخ غفار خمسة أبناء وهؤلاء محابيس عند اسماعيل باشا الهنغاري ينتظرون مع ٥٥٠ درزياً السفن التي ستأخذهم إلى المنفى في طرابلس الغرب وفي بلغراد. أخبروه ان اسماعيل باشا يقبل الشفاعات ولهذا أتى. لكنه في طلعة القشلاق، بينما الشمس تغرب، اضطرب. استرد نفسه حين رأى عيون الحراس تتأمله. أخبروه ان الباشا يتعشى وانتظره واقفاً تحت شجرة الجميز في باحة القشلاق بينما العبيد ينقلون بعض أحمال البغلتين إلى المطبخ. كان الظلام هبط والقناديل أضيئت وعُلقت عندما نادوا عليه أخيراً. في اللحظة التي ولج فيها العمارة الحجر العملاقة اختفى طنين أذنيه. أدرك أن أولاده هنا، في قبو السراي.

علي مولا

ISBN 978-9953-68-496-0

9 789953 684963

المركز الثقافي العربي

دار الآداب - بيروت